سلسلة الحضارة الصينية
تجسيد تاريخ طويل
استكشاف الحضارة الصينية

طفولة حضارة

الأساطير والخرافات الصينية

رؤساء التحرير: باي وي وداي هيبينغ
تأليف: فانغ مينغ و زو وينيو و شي جون



BEIJING PUBLISHING GROUP


الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

تتناول هذه السلسلة مواضيع متنوعة؛ كالشخصيات الصينية، والمسرح، والموسيقى، والرسم، وتنسيق الحدائق، والعمارة، والغناء الشعبي، والطب، والحِرَف التقليدية، والفنون القتالية، والعادات، والتقويم الشمسي، فضلاً عن الملاحم والأساطير، والحليّ والمجوهرات، والأدوات البرونزية، وفنّ الخطّ والأدب الصيني. لذا، لا بدّ تُثري معارف القارئ المهتم بتاريخ الصين العريق.

وفي هذه السلسلة، سيبحر القارئ مستطلعاً صوراً مدهشة تتراكب بشكل متقن في كتب تصل به إلى قلب الحضارة الصينية وهو في مكانه؛ حتى بالنسبة لأولئك الذين لم يعتادوا القراءة في هذه المواضيع. مما يجعل منها كتباً مناسبة لكل من الكبار في السن والشباب على حد سواء. فالقراءة متعة بحد ذاتها، وهي تُطوِّر القدرات والمعارف لكل من يختار الإبحار في عالمها الرحب.

صدر من هذه السلسلة:

- أثواب فخمة مزينة — الملبوسات والإكسسوارات الصينية
- تقليد الطبيعة — الحدائق الصينية
- الحجر الأنيق — تحف الجاد الصينية
- الوسائل الطبيعية — الطب الصيني التقليدي
- الدمج الأمثل بين الكونغ فو والتربية الطاوية — الفنون القتالية الووشو الصينية
- أسرار فينولوجية في الأغنية الشعبية — الفصول الشمسية الصينية
- السحر الأزلي — العمارة الصينية
- التشابه والتغاير — فن الرسم الصيني
- ازدهار أمة بفضل العلوم — العلوم والتكنولوجيا في الصين
- ألحان من الروح — الموسيقى الصينية
- الترفيه مع الفن الغنائي والسردي الشفهي — الكيو يي الصينية
- الاحتفالات والشعائر والآداب الشرقية — الأدوات البرونزية الصينية
- تعبير عن الروح — الخط الصيني
- عالم صغير — الأحرف الصينية
- أهمية المشاعر — الأدب الصيني
- طفولة حضارة — الأساطير والخرافات الصينية
- كلٌ متكامل بين العالمين العقلي والمادي — الفنون والحرف الصينية التقليدية
- عائق التاريخ الطويل — الأوبرا التقليدية الصينية


ISBN 978-614-01-2012-9
9 786140 120129


الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com



سلسلة الحضارة الصينية

تجسيد تاريخ طويل
استكشاف الحضارة الصينية



طفولة حضارة

رؤساء التحرير: باي وي وداي هيبينغ

تأليف: فانغ مينغ و زو وينيو و شي جون



B&R BOOK PROGRAM

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

The Childhood of a Civilization
Chinese Myths and Legends

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

الطبعة الأولى
1438 هـ - 2017 م

ردمك 978-614-01-2018-1



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

مقدمة عامة
لسلسلة استكشاف الحضارة الصينية

في عالمٍ يزداد وقعُ الحياة فيه تسارعاً، وتصبح الثقافات المختلفة أكثر اتصالاً ببعضها بعضاً، نجد الكثير من الكتب التي تقدّم للثقافات والحضارات المتنوعة. ولا شكّ في أنّ أيّ جهد مبذول في إطار التشجيع على القراءة والتعريف بالثقافات والحضارات مطلوبٌ وهامٌّ.

وفي يومنا هذا، صار من الممكن العثور على الكثير من الكتب التي تتناول الثقافات والحضارات الشعبية. غير أنّه لا يُخفى على أحد أنّ نشر الثقافة على أيدي علماء مختصين أمر مهم؛ كي يستطيع عامة الناس الانتفاع من خلاصة ثقافات الشعوب. وهذا تحديداً ما أقدم عليه نخبة من العلماء المتخصصين الذين تركوا بصماتهم في مختلف ميادين المعرفة؛ بنشرهم سلسلة كتب استكشاف الحضارة الصينية. وقد حرصوا في عملهم هذا على أن تكون الأفكار واضحة، والكتب سهلة الفهم؛ بعكس الأسلوب الأكاديمي التقليدي في مقاربة التاريخ. وتتناول هذه السلسلة مواضيع متنوعة؛ كالشخصيات الصينية، والمسرح، والموسيقى، والرسم، وتنسيق الحدائق، والعمارة، والغناء الشعبي، والطب، والحِرَف التقليدية، والفنون القتالية، والعادات، والتقويم الشمسي، فضلاً عن الملاحم والأساطير، والحليّ والمجوهرات، والأدوات البرونزية، وفنّ الخطّ والأدب الصيني. لذا، لا بدّ تُثري معارف القارئ المهتم بتاريخ الصين العريق.

وفي هذه السلسلة، سيبحر القارئ مستطلعاً صوراً مدهشة تتراكب بشكل متقن في كتب تصل به إلى قلب الحضارة الصينية وهو في مكانه؛ حتى بالنسبة لأولئك الذين لم يعتادوا القراءة في هذه المواضيع. مما يجعل منها كتباً مناسبة لكل من الكبار في السن والشباب على حد سواء. فالقراءة متعة بحد ذاتها، وهي تُطوِّر القدرات والمعارف لكل من يختار الإبحار في عالمها الرحب.

الحضارة بشكل عام هي المنبع الروحي لكل أمة، وهي القوة التي تدفع الشعوب إلى المزيد من التقدم والإبداع. والحضارة الصينية على وجه الخصوص هي الوحيدة بين الحضارات الإنسانية التي يمكنها أن تفخر بتطور مستمر وغير منقطع امتد خمسة آلاف سنة. وخلال هذا التاريخ الطويل، بكل ما رافقه من عمليات تحوّل وتقلّب، أظهر الصينيون ما يتميزون به من مثابرة وجدّ، فضلاً عن التفاؤل واللطف المعروفَين عنهم. فهذا الشعب يحترم الطبيعة، ويحب العيش بتناغم معها، كما أنه شديد التسامح والتقبل للحضارات الأخرى التي ما فتئ يمتص تأثيرها ويدرسها قبل أن يستوعبها، محوِّلاً إياها إلى جزء من حضارته وثقافته. وقد لعبت حكمة الأمة الصينية وإبداعها في الماضي دوراً لا غنىً عنه في تقدم الحضارة الإنسانية كما نعرفها اليوم، وهي حتى يومنا هذا لا تزال تبرهن عن قدرتها على التجدد وترسيخ قيمها التي تتمثل في المحبة والكرم والسعي إلى تحقيق السلام والسعادة لأبناء البشر؛ وكلّها صفات تمثّل تقاليد الأمة الصينية خير تمثيل.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما هي التقاليد؟ التقاليد هي الثقافة الموروثة والمتطورة عبر الأجيال. ولا تزال الحضارة الصينية- بعد آلاف السنين- مستمرّةً في مسيرتها التطورية على أيدي الأجيال الجديدة، ولا يزال الشعب الصيني ذو الحضارة المجيدة يبني إرثه الغني ليصنع تاريخاً جديداً مبنياً على أخلاقياته الرفيعة والعريقة دون توقف أو انقطاع.

مقدمة الكتاب

فجر الحضارة قبل التنوير

كوكب الأرض الجميل فريدٌ من نوعه في هذا الكون الشاسع الفسيح، فهو موئل الإنسان الذي تمكّن من التغلب على محيطه وإنشاء حضارات عديدة ورائعة. وخلال المراحل الأولى من تلك الحضارات، استقرأ أسلافنا العالم من حولهم بخيال خصب وواسع، وقبل أن ينشئ الإنسان اللغة المكتوبة، حفظت مخيلته وذاكرته وقلبه تاريخاً أسطورياً تناقلته الأجيال المتعاقبة شفوياً، ثم دوّنته في الكتب بعد اختراع الكتابة. تعطينا تلك الأساطير الحافلة بقصص الآلهة والأبطال لمحة عن الإنسانية؛ بدءاً من عصورها الوحشية السالفة والمظلمة وحتى بزوغ شمس الحضارة.

إن تلك الأساطير- أو القصص حول الآلهة- ليست في الغالب إلا نتاج مخيلات الناس، ولكنها تشكّل في الوقت نفسه مجموع تفاسيرهم للطبيعة والمجتمع والكيان الإنساني في تلك المراحل المبكرة من تاريخ البشرية. إن الأساطير ظاهرة حضارية لا مناص منها؛ فهي تعكس تفسير الإنسان الأول للطبيعة، وتكيّفه معها، وتحويله إياها لصالحه. إذ لم تكن لدى أولئك البشر الأوائل أي معرفة علمية، ولم يكن لديهم أي ملاذ يتوجهون إليه لفهم الطبيعة إلا مخيلتهم؛ فحين هددتهم الطبيعة وافتقدوا إلى القدرة على مواجهتها، ابتكروا أساطير ألّهوا فيها مختلف الظواهر الطبيعية، بل وحتى إخوتهم من البشر أيضاً.

لا تكاد الأساطير الصينية القديمة المحكية والمكتوبة تفصل بين الآلهة والخالدين في رواياتها. ومع أنّ كلاً من الصنفين يتمتع بقوى خارقة، إلا أنهما مختلفان كثيراً؛ فالآلهة بحسب هذه الأساطير تولد وهي تتمتع بهذه القدرات والخصائص الفريدة، أما الخالدون فيحصلون عليها من خلال الممارسات الروحية التي يصل بعدها بشر عاديون إلى الخلود. لذا، إن التصور القديم للآلهة المتعددة كان نتاج المراحل الأولى الوحشية من تاريخ الإنسانية، أما فكرة الخالدين فنشأت حين وصل الناس إلى درجة من الحضارة تؤهلهم

للتفكير في سرعة انقضاء أجل الإنسان وحياته الدنيا، فسعوا إلى الوصول إلى الخلود. وبحسب الأساطير، كان الناس الذين تمكنوا من التوصل إلى الخلود من خلال الممارسة الروحية يمتلكون قوى شبه إلهية تميزهم عن بقية البشر. إذاً، الأساطير الصينية القديمة ليست روايات عن الآلهة فحسب، بل عن الخالدين أيضاً.

يمكن أن تمثّل الصورة نفسها أحد الآلهة أو الخالدين كما يقتضيه سياق القصة. وبحسب ما يذكره لنا الأدب الصيني القديم، بدأ رواج مفهوم الخالدين أثناء حقبتَي الربيع والخريف والممالك المتحاربة، وخاصة بعد ازدياد انتشار الديانة والفلسفة الطاوية في حقبة سلالة هان. وتكاد كل حضارة تتناقل قصصها الخاصة حول الآلهة، ولكن القصص عن الكائنات السماوية أو الخالدين أمر تفردت به الحضارة الصينية.

الأساطير عبارة عن قصص يتم تناقلها شفوياً في بادئ الأمر، ويتعلق الكثير منها بالآلهة أو الكائنات السماوية، وليست بالضرورة مبنية على أمر واقع. أما الخرافات فلا تكاد تجد لها جذوراً في الواقع أصلاً. لذا، حين نتكلم عن الخرافات والأساطير، فنحن في الغالب نتحدث عن وقائع خيالية.

أنتجت كل أمة تتمتع بتاريخ طويل مجموعتها الخاصة من الأساطير والخرافات، وتشمل الأمثلة الكلاسيكية على هذا: الإلياذة والأوذيسة في اليونان القديمة، والمهابهارتا والرامايانا في الهند القديمة، وقصائد بلاد ما بين الرافدين. قد تبدو هذه الأساطير والخرافات غريبة، بل وحتى مستهجنة بالنسبة إلينا اليوم في ضوء التقدم العلمي الذي أوضح لنا الأسباب والقوانين الكامنة خلف الكثير من الظواهر الطبيعية والكونية، ولكنها تعتبر بالنسبة إلى الأقدمين مصدر ثراء روحي قامت عليه مبانٍ عملاقة من الدين والفلسفة والتاريخ وحتى العلم.

وبالمقارنة مع الروائع الفنية التي أنتجتها حضارات أخرى، ظلت الأساطير والخرافات الصينية قصيرة ومتفرقة في الكتب القديمة والمختلفة. وكما هو الحال في القصص القصيرة في الأدب المعاصر، كانت الأساطير والخرافات الصينية مبنية بشكل متماسك ومختصر، ولكنها تترك أثراً طويل المدى في نفس قارئها والمستمع إليها. ولو

شئت أن تنشئ شجرة عائلية للآلهة الصينية التي تمخضت عنها تلك الأساطير، فسوف تجد هذا الأمر مستحيلاً. فبخلاف آلهة جبل الأولمب اليونانية، ثمة أواصر قرابة تربط بين الآلهة الصينية، ولدى كل مجموعة منها قصصها الخاصة بها؛ لذا لا يمكننا وضعها ضمن تسلسل تراتبي عائلي منتظم.

لكن، بالرغم من عدم الترابط هذا في الأساطير والخرافات الصينية، فإنها تظل غنية بمضمونها نتيجة خلفية اصطناعها. وحين نقارن بين تاريخ الحضارة الصينية ونظيرتها الغربية، فسوف نجد أن الحضارتين تشتركان في سعيهما إلى مستقبل أفضل. ولكنّ الحضارة الصينية تدعو إلى ذلك من خلال التطور والنمو أثناء عملية توارث التاريخ، أما الحضارة الغربية فتتوارث عبر التطور والنمو ليس إلّا. وسنوضّح عبارتنا الأخيرة من خلال ما يلي: قبل أكثر من ألفي سنة، وُلِدت الأساطير والخرافات الغربية في اليونان القديمة في منطقة ضيقة المساحة ومترابطة عرقياً ولغوياً، ما أدى إلى نظام موحد من الأساطير. وفي وقت لاحق، تمكّن الرومان من غزو اليونان التي أصبحت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية، فورثوا هذا النظام الموحد. على سبيل المثال، كان زيوس هو ملك الآلهة لدى اليونانيين القدامى، لذا سمّاه الرومان: «جوف»، أما الإلهة «أفروديت» فغيروا تسميتها وصارت تدعى «فينوس»، وهكذا... ومع أن الأسماء تغيرت إلا أن المحتوى ظل نفسه. ومع توسع الإمبراطورية الرومانية وامتدادها إلى أصقاع العالم الشرقية والغربية انتشر نظام الأساطير اليوناني معها بشكل أساسي. إذاً، إن نظام الأساطير الغربية في الأساس هو النظام اليوناني القديم، أما الأساطير والخرافات الصينية فتعود إلى أكثر من مصدر واحد. ففي حوضَي النهر الأصفر ونهر يانغتسه، طوّرَت مجموعات بشرية متنوعة ثقافاتٍ مختلفة في مساحاتها المستقلة من ناحية، والمترابطة من ناحية أخرى، فتطورت أساطير مختلفة وغير متسقة ضمن هذه المجموعات، وغطّت معظم أوجه الحياة الرئيسة في تلك الأزمنة القديمة، ثم تجمعت هذه الأساطير التي تحمل المواضيع ذاتها مع بعضها لتشكل الملامح الأساسية للأساطير والخرافات الصينية ككل.

تشير المعلومات التي يحملها كل من «كتاب الجبال والأنهار المرجعي»، و«تيانون» إلى أن حوضَي النهر الأصفر ونهر يانغتسه هما مهد أساطير وخرافات رائعة تغطي

مواضيع مثل مولد الكون، وبداية العرق البشري، واختراع الأدوات، مع تفسيرات للظواهر الفلكية والجغرافية. وفي بعض الأحيان، يظهر الموضوع ذاته في نسخ متعددة من أسطورة ما. وقد أثبتت اكتشافات علم الآثار أن تاريخ الصين الطويل يمتد إلى ماضٍ أبعد حتى مما كان يعتقد في بادئ الأمر. وفي المرحلة المبكرة منه، أي قبل حوالي عشرة آلاف سنة، أدت المسافات الطويلة التي تفصل بين القبائل المختلفة إلى الافتقاد للتواصل، وخاصة التواصل الحضاري؛ وهذا بدوره حال دون نشأة نظام متكامل للأساطير والخرافات الصينية.

لماذا تشرذمت الأساطير والخرافات بهذا الشكل؟ للإجابة عن هذا السؤال علينا أن نبحث في الانتشار التاريخي للأساطير والخرافات الصينية.

في كل أمة- وهذا يشمل الأمة الصينية- كانت الأغاني أول وسيلة تُستخدم لنشر الأساطير والخرافات؛ كما هو الحال في الملاحم التي ألفها الشاعر اليوناني المشهور هوميروس. ولكن بالمقارنة مع الحضارة اليونانية، إن الحضارة الصينية والروح العقلانية فيها قد تطوّرتا في وقت سابق عن نظيرتيهما في اليونان. وكان فو شي- أبو العلوم الإنسانية الصينية- أول مَن ابتكر مفهوم الروح العقلانية الصينية التي مثّلها «كتاب التغييرات». وبحسب ما ورد في «الكتاب المرجعي في التاريخ والسجلات التاريخية»، أصبحت هذه الروح العقلانية هي الأيديولوجية السائدة منذ أيام تانغ ياو ويوي شون، ولذلك توجّهت النخب المثقفة إلى العالم الخارجي بدلاً من الكائنات الغيبية؛ فكونفوشيوس على سبيل المثال لم يتحدث عن القوى الغيبية، وهذه الروح العقلانية تفسر ندرة إشارات النخب المثقفة في الصين إلى الأساطير والخرافات التي وصلتها شفوياً. وخلال عملية الانتشار تلك تحولت الأساطير والخرافات إلى موروث شعبي، وما عاد عامة الناس يعتبرونها مجرد أساطير وخرافات.

بالإضافة إلى ما سبق، كثيراً ما كان الناس يميلون إلى تسويغ الأساطير والخرافات المدونة على أوراق الخيزران لعقولهم؛ حيث يعتبرونها أحداثاً تاريخية. ولا شك في أن حفظ الأساطير هذا أمر فريد من نوعه؛ ويعتقد بعض الباحثين أن علم التاريخ في الصين قد وصل إلى مرحلة النضج في مرحلة مبكرة، وأن عدداً كبيراً من الأساطير والخرافات

قد سُوِّغَ عقلانياً بهذا الشكل، فتحوّلَت الأساطير إلى أحداث تاريخية. فعلى سبيل المثال، تخبرنا الأساطير عن الوحش كوي ذي الساق الواحدة، ولكنّ دوق لو خلط بين هذا الوحش وشخصية تاريخية تدعى كوي، ولم يُصحِّح له كونفوشيوس هذا الأمر رغم أنه كان يعلم أنها غلطة. وبدلاً من ذلك، قدّم تفسيراً منطقياً لهذه الغلطة يزيل أثر الأساطير والخرافات. ويُشير تفسير كونفوشيوس ذاك إلى أنه لا هو ولا الدوق لو كانا يعتبران أشكال التنين ذي الساق الواحدة على المصنوعات البرونزية العائدة إلى حقبتَي سلالتَي شانغ وتشو أشكالاً لتنين كوي.

ومع أن الأساطير والخرافات الصينية متفرّقة وغير متسقة إلا أنها تكشف عن بعض فضائل الشعب الصيني؛ إذ انتقل من حالة انعدام الحضارة إلى حالة المجتمع المتحضر. وهذه الفضيلة هي الأساس الذي أدّى إلى نضوج الروح العقلانية الصينية مُبكراً. ففي الأساطير الصينية، تجسِّد الآلهة الحق والخير والجمال والحب، وتقوم بحماية البشر؛ «فنيوي وا» تصلح السماء، و«هو يي» يرمي سهامه على الشمس، وكلاهما يضحِّيان بنفسيهما كي ينفعا الناس. أما «جينغ وي» فتحاول أن تملأ البحر بالحصى، و«كوا فو» يسابق الشمس. وتسلط هذه الأساطير الضوء على بعض فضائل الشعب الصيني القديم؛ مثل العدالة والخير والجد والشجاعة والتفاؤل والكرم.

لكن الصفات السائدة لدى الآلهة في الأساطير اليونانية القديمة إنما هي الكراهية والغيرة والانتقام وجلب المصائب. وجميعها لديها أشكال ومشاعر إنسانية، وتقوم في بعض الأحيان بأعمال شريرة بداعي الأنانية والرغبات الدنيئة.

أما الآلهة والأبطال في الأساطير الصينية القديمة فليست لديهم أي رغبات، ويظهرون وكأنهم مزيج من البشر والحيوانات الأخرى. ورغم ألوهيتهم فهم يحبون البشر الضعفاء ويحمونهم. تركز الأساطير والخرافات الصينية على طبيعة الإنسان الاجتماعية، وتجعله منفتحاً على التفكير العقلاني ومستجيباً للاندماج مع التاريخ. ولم يكتفِ الصينيون بعقلنة الأساطير والخرافات، بل ألبسوا التاريخ ثياب الأساطير والخرافات أيضاً! فعلى سبيل المثال، يصف كتاب «سيرة حياة الإمبراطور مو» الإمبراطور مو العظيم من سلالة تشو بأسلوب شبه خرافي، ويحوِّل التاريخ إلى قصص أسطورية شعبية.

تعكس الأساطير والخرافات الصينية رغبة الناس القدامى في فهم الطبيعة وتحويلها، وكذلك صراعات حياتهم، وسعيهم إلى العدالة الاجتماعية، وكفاحهم ضد العنف والشر. كما تعكس الأساطير حول خلق الكون- مثل قيام «نيوي وا» بإصلاح السماء وخلقها للبشر، وقيام يوي العظيم بترويض النهر، وهو يي برمي سهامه على الشمس، وصراع قونغ قونغ وشوان شيوي على العرش- فهم الناس القدامى للأصل الذي تعود إليه الطبيعة وظواهرها، بالإضافة إلى مساعيهم لتغيير الطبيعة وتحسين ظروف عيشهم. وتعكس الأساطير المتعلقة بالطوفانات والشمس أيضاً الكوارث الطبيعية التي عانوا منها أو كانوا يخشونها. أما الصراع بين الإمبراطورين هوانغ ويان، ومحاولة جينغ وي لملء البحر بالحصى، وصراع الناس القدامى ضد القوى الطبيعية الشريرة فجميعها قصص تعكس رغبة الناس القدامى في إزالة سيطرة هذه القوى المجهولة عليهم، ورغبتهم في تولي أمورهم بأنفسهم.

بخلاف الأساطير الغربية، إن الأساطير الصينية موجزة ومقتضبة، ولكن كان لها أثر كبير على الأدب القصصي خلال العصور التالية. وربما كان سبب هذا الأسلوب الموجز الانتقالَ من الروايات الشفوية إلى التدوين الكتابي. وإذا كان الأمر كذلك، فمن المنطقي بالنسبة لنا أن نستنتج أن هذا كان أصل سعي الأدب الصيني القديم إلى الاختصار والإيجاز. وبالإضافة إلى ذلك، إن الأساطير والخرافات الصينية تلك تؤدي عملاً باهراً في أنسنة الطبيعة، وتأليه الإنسان، وحتى في شيطنته. وقد قدمت الطبيعة الخيالية أدباً رفيعاً في العصور التالية يتضمن إرثاً غنياً من الخيال. لقد تم ابتكار الأساطير والخرافات الصينية بهدف تحسين الحالة الإنسانية في المجتمع والطبيعة، وقد جعلت تلك الأساطير الشعب الصيني القديم مؤهلاً لإنشاء الآداب، وموجّهاً إلى المجموعة الإنسانية الكبرى.

وقد أصبحت تلك الخرافات الصينية القديمة بخيالها وتمثلاتها الفنية وصورها النبيلة حول أبطال عظماء مصدراً لإلهام الأدب الصيني القديم؛ سواء أكان العمل حافلاً بالنبل والمشاعر الحزينة مثل «أغاني تشو» أم مليئاً بالفكاهة والهزل مثل «رحلة إلى الغرب».

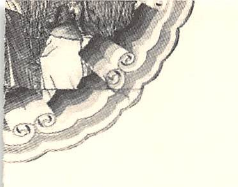
تشمل الأساطير والخرافات الصينية قصصاً حول آلهة الطبيعة، وآلهة الأبطال،

وأشخاص غريبين، وأشياء خارجة عن المألوف. كما تشمل الأساطير حول آلهة الطبيعة قصصاً حول إله الرياح في ليان، وإله المطر بينغ يي، وإله الماء قونغ قونغ، وإلهة الجفاف نيوي با، وإله النار تشو رونغ.

أما الأساطير حول آلهة الأبطال فتشمل قصصاً حول نيوي وا، وهو يي، والإمبراطور هوانغ. كما توجد أساطير حول الناس الغريبين والأشياء الخارجة عن المألوف؛ مثل البلاد التي يمتلك سكانها أجنحة ويمكنهم الطيران، والبلاد التي يمتلك الناس فيها مناقير وأجنحة ويعيشون على صيد السمك، والبلاد التي يمتلك سكانها أذرعاً طويلة ويركبون عربات طائرة.

لكن، بما أن أساطير آلهة الطبيعة والأبطال هي خير ما يُمثّل الخيال الأسطوري الصيني، فسوف يركز هذا الكتاب عليها.

ومن خلال الجمع بين الحقائق والمثاليات، وبين المآسي والمشاعر النبيلة، عكست الأساطير الصينية الروح الوطنية وهذّبتها لدى الشعب الصيني، كما زرعت في الناس الرغبة في السعي إلى الحق والعدالة والمُثُل العليا ومقاومة الاستبداد. إذاً، يهدف هذا الكتاب إلى عرض المحتوى الغني، والجاذبية الخالدة التي يتضمنها تراث الأساطير والخرافات في الصين.



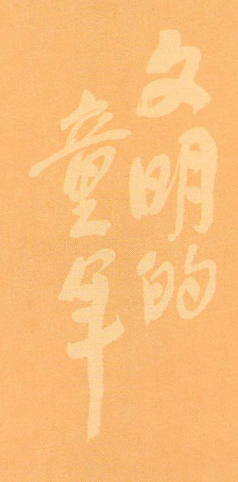


المحتويات









الأساطير والخرافات الصينية

الفصل الأول

الموطن الروحي الدافق
– تدوين الأساطير والخرافات
الصينية وخصائصه

وثائق تتعلق بالأساطير والخرافات في العصور الأولى

تتوزع روايات الأساطير والخرافات الصينية القديمة بين الكثير من الوثائق الصينية القديمة التي تنتظر من يكتشفها. ولكن، سيكون اكتشاف الأساطير والخرافات في هذا الكم الهائل من المواد التوثيقية من دون معرفة الوثائق التي تدونها في غاية الصعوبة.

ومن بين الوثائق الصينية القديمة، لعل «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار» من أكثر الوثائق قيمة في دراسة علم الأساطير، وقد سمّت الأجيال اللاحقة هذه الوثيقة القديمة: «أصل جميع الأساطير»، إذ دُوِّن فيه أكبر عدد من الأساطير والخرافات التي تعود إلى الفترة السابقة لحقبة سلالة تشين؛ وتشمل تلك الأساطير المذكورة في الكتاب: قصة ولادة الشمس من شي خه، وولادة القمر من تشانغ شي، وسباق كوا فو مع الشمس، ومحاولة جينغ وي ملء البحر بالحصى، وولادة يوي من قون، وصراع شينغ تيان مع الإمبراطور هوانغ. لكنّ معظم الصينيين القدامى لم يعتقدوا أن هذا الكتاب وثيقة عن الأساطير، بل رأوا فيه كتاباً جغرافياً يفصل ظروفاً واقعية في العالم. ولم يدرك إلا عدد قليل من الناس أن الكتاب يوثّق معارف جغرافية على شكل أساطير؛ هذا وقد دُوِّن عدد كبير من الخرافات والأساطير فيه.

حفظ لنا «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار» بمحتواه الغني الحافل بالمقاطع الوصفية الغريبة روايات عن الكثير من الوحوش المرعبة والناس غريبي الهيئة والأشياء العجيبة. ففي الفصل الذي يدور عن الشمال، يوصَف إله الرعد بأن له رأس إنسان وجسم تنين ذا بطن كبير ومنتفخ. أما إله الخشب فيوصَف بأن له وجه إنسان وجسم طائر ويركب على تنينين. في حين أن إله تشونغشان لديه وجه إنسان وجسم أفعى، ويبلغ طوله بضعة آلاف لي (وحدة طول صينية تعادل 576 م). أما في الفصل الذي يدور حول الغرب، فثمة وصف لبلاد تحتوي على صنف من البشر الذين لا يملك الواحد منهم إلا ذراعاً واحدة وعيناً واحدة ومنخراً واحداً (الصورة 1-1)، كما يوجد وصف لبلاد لا يملك الناس فيها إلا ذراعاً واحدة وثلاث عيون، ويركبون في عربات طائرة، بالإضافة إلى الكثير غيرها من البلاد العجيبة. «فـالكتاب المرجعي في الجبال والأنهار» يتضمّن أشياء غريبة لا حصر لها، والكثير من الأساطير المذكورة فيه مروية بشكل غير مترابط، ولكن الملامح العامة لبعضها الآخر واضحة. ولا شك في أن العالم الذي تأخذ قارئها إليه عالم سحري



الصورة 1-1 «بلاد الذراع الواحدة» من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار»، كتاب حول «هاي شي» (نسخة جيانغ) (نسخ تسنغ شو تسونغ)

يوجد الكثير من البلدان خلف البحار، وأحدها يدعى: «بلد الذراع الواحدة»، ويقع شمال «بلاد الأجساد الثلاثة». وفي هذا البلد، لا يملك الناس إلا ذراعاً واحدة، وعيناً واحدة، ومنخراً واحداً. تظهر هذه الصورة أحد أهالي هذا البلد وهو يمتطي حصاناً أصفر على جسده خطوط مثل الخطوط التي تتواجد على جسم النمر، بالإضافة إلى قائمة أمامية واحدة يشبه شكل حافرها شكل يد الإنسان.

عجيب. ونستشف من هذه القصص الخيالية الغريبة ما يكمن وراءها من حضارة وتقاليد ومُثُل عليا سيطرت على المجتمعات البشرية في عصورها الأولى؛ كما تعكس محاولات الشعب الصيني القديم لاستكشاف العالم من حوله ومعرفة حقائقه.

«هواينانتسي»- ويُدعى أيضاً «هونغليه» أو «ليوانتسي»- هو كتاب ألّفه عدد من العلماء تحت رعاية ليو آن (الصورة 1-2) ملك هواينان في حقبة سلالة هان الغربية. ومن حيث الأهمية في مجال دراسة الأساطير والخرافات، هذا الكتاب هو ثاني أهم كتاب بعد «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار»؛ إذ يحتوي على عدد هائل من الخرافات مثل: البلاد الأجنبية الستة والثلاثون، وجبال كونلون، والولايات التسع، والأعمدة الثمانية. ولعل أهم إسهام قدّمه هذا الكتاب هو حفاظه على أشهر أربع أساطير صينية: إصلاح نيوي وا للسماء، وضرب قونغ قونغ لجبل بوتشو، ورمي هو يي سهامه على الشمس، وطيران تشانغه إلى القمر. فرغم ذكر هذه الأساطير الأربع في الكثير من الكتب السابقة على هواينانتسي، إلا أن ذلك لم يكن إلا عبر إشارات عابرة، ولكن هذا الكتاب روى هذه القصص بالتفصيل.

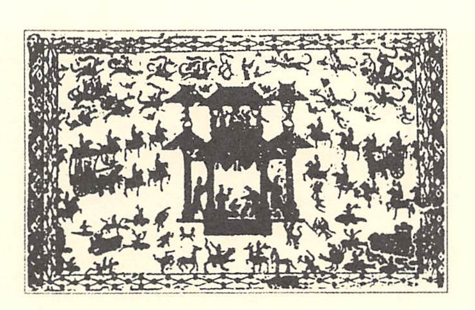
أما «سيرة حياة الإمبراطور مو»، أو «سجل رحلات الإمبراطور مو»، فعبارة عن وثيقة تحتوي على أساطير يعود زمنها إلى حقبة سلالة تشو الغربية. القسم الأغلب من هذا الكتاب (الصورة 1-3) رواياتٌ عن رحلة الإمبراطور مو إلى بلاد تحكمها الملكة الأم الغربية، ووليمة الترحاب التي أقامتها للإمبراطور. وخلال هذه الرحلة، رافقت النخبة من بلاط تشو الإمبراطور مو الذي كان يركب عربة تجرها الأحصنة ويقودها تساو فو (الصورة 1-4)،



الصورة 1-2 ليو آن، ملك هوايينان من سلالة هان الغربية، صورة من «كتاب تشيان تشيوه المرجعي حول الأشخاص البارزين» (المجلد الأول)

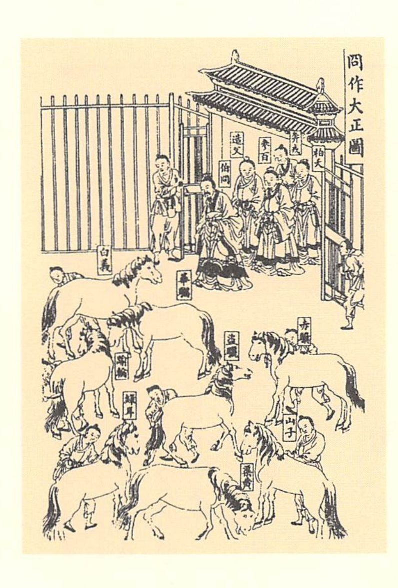
كان ليو آن مفكراً وكاتباً أثناء حقبة سلالة هان الغربية، وقد عاش في منطقة فنغ من مقاطعة جيانغسو. كان يحب قراءة الكتب، وقدم الرعاية والمأوى لآلاف العلماء الزائرين الذين ألفوا كتباً تحت رعايته مثل «هوايينانتسي». يسترشد كتاب «هوايينانتسي» بمبادئ الفلسفة الطاوية، ويسجل لنا النظريات المختلفة حولها التي تتبناها مدارسها العديدة. وحين يستعرض هذه الفلسفات، فكثيراً ما يرجع إلى كائنات غيبية وخارقة، وبهذه الطريقة يحفظ لنا بعض الأساطير والخرافات.





الصورة 1-3 «الإمبراطور مو يلاقي الملكة الأم الغربية»، نقش على الحجر يعود إلى حقبة سلالة هان الشرقية

ينقسم النقش إلى ثلاثة أقسام: المستوى الأعلى هو السماء مع صور لتنانين طائرة، والمستوى الأوسط هو الأرض مع أحصنة عليها، أما المستوى الأسفل فهو المحيط مع مطايا تشبه الأسماك. تظهر «مقصورة الخلود» في وسط النقش، حيث تجلس الملكة الأم الغربية في وسط الطابق الأعلى وتنظر إلى الأفق البعيد وترى قدوم الإمبراطور مو.



الصورة 1-4 «صورة جيونغ تسوه دا تشنغ»، رسم من نسخة الإمبراطور قوانغ شيوي من «كتب الرسوم حول كتاب التاريخ» من تأليف سون جيا ناي (1827-1909) من عهد سلالة تشينغ

كان تساو فو فارساً ماهراً أيام حقبة سلالة تشو الغربية، ويقال إنه وجد ثمانية أحصنة في تاولين وروضها. تُظهِره هذه الصورة وهو يقدّم الأحصنة إلى الإمبراطور مو. حين قابل الإمبراطور مو الملكة الأم الغربية تمرد ملك شيوي يان على البلاط الملكي، فقاد تساو فو عربة ليعود بالإمبراطور بسرعة ألف «لي» في اليوم الواحد. وهكذا، وصل الإمبراطور في الوقت المناسب ليخمد التمرد ويعطي تساو فو مدينة تشاو كجائزة له. اتخذ تساو فو بعد ذلك اللقب العائلي: تشاو، وكانت تلك بداية مملكة تشاو.

ويعمل شخص يدعى بو ياو كدليل للموكب. هذا الكتاب عبارة عن مجموعة أساطير؛ فلقاء الإمبراطور مو مع الملكة الأم الغربية يحمل في ثناياه الكثير من الملامح الخرافية، ولذلك يمكننا القول إن هذا الكتاب أسطورة ذات ملامح فنية أكثر وضوحاً من الأساطير والخرافات العادية الأخرى.

أغنية تشو أسلوب شعري اصطنعه تشيوي يوان، أحد الشعراء العظماء في حقبة الممالك المتحاربة. وخلال حقبة سلالة هان، جمع ليو شيانغ أغاني تشيوي يوان (الصورة 1-5) من تشو، وقام سونغ يوي بنسخ الكتابات وجمعها في كتاب سمّاه: «أغاني تشو». وقد حفظ هذا الكتاب الكثير من الأساطير والخرافات، وخاصة في القصيدة المسماة: «تيانون». ففي هذه القصيدة، يذكر تشيوي يوان عدداً كبيراً من الأساطير؛ مثل قصص عن الحيوانات والنباتات، وأفاعٍ تلتهم الفيلة، وتنين الشمع، وتنين يينغ السحري (الصورة 1-6). ذكر تشيوي أيضاً أساطير عن أبطال قدامى مثل بان قو وقون ويوي. ولأن المادة المذكورة في هذه القصيدة أقرب إلى الأساطير الأصلية من الروايات الأخرى لهذه

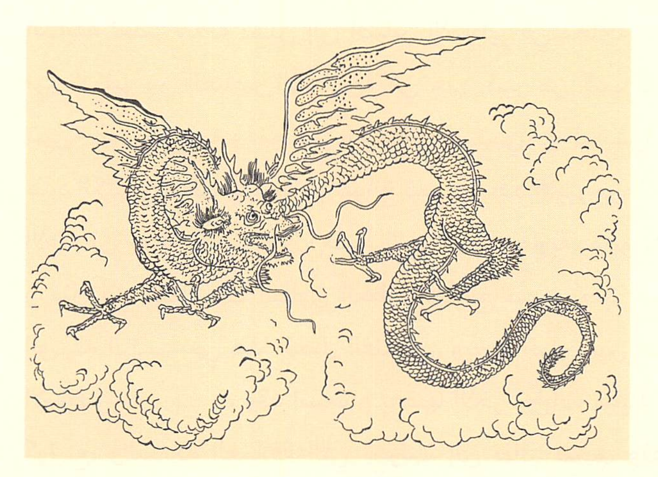
الأساطير، فإن لهذه القصيدة أهمية أكاديمية عليا. لكنّ تشيوي لا يذكر إلا شذرات من هذه الأساطير، لذا على الباحث أن يقرأ وثائق أخرى ليفهمها فهماً تاماً.

«كتاب الأغاني» الذي كان يُدعى في البداية «الأغاني» فقط هو أول مجموعة من القصائد والأغاني في تاريخ الصين، وقد ألّفه كونفوشيوس (الصورة 1-7) نفسه. ودوَّن في هذا الكتاب ثلاثمئة وخمس قصائد أو أغانٍ يتفاوت زمن تأليفها بين منتصف وأواخر حقبتَي سلالتي يين وشانغ ومنتصف حقبة الربيع والخريف. يتضمن الكتاب أربع فئات



الصورة 1-5 «بورتريه لتشيوي يوان» رسمه رن شيونغ من عهد سلالة تشينغ

كان تشيوي يوان (340-278 قبل الميلاد) يحمل عدة ألقاب مثل بينغ ولينغ جون، وكان وزير الملك هواي من مملكة تشو. وكان يتمتع بذاكرة قوية وعلم واسع أهّلاه ليصبح متكلماً بليغاً. وفي الوقت ذاته، كان ذا مهارة واسعة في إدارة شؤون ولايته. وحين نفاه الملك هواي بعد أن تعرض لتشويه سمعته، انتحر تشيوي بأن أغرق نفسه في نهر ميلوه. يعتبر تشيوي من أعظم الشعراء الرومانطيقيين في الصين، وتظهره هذه الصورة وهو يحمل سيفاً بإحدى يديه وزهرة سحلبية بالأخرى. ترمز الزهرة السحلبية إلى النبل والنقاء في الثقافة الصينية.



الصورة 1-6 «تنين يينغ»، من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار» (نسخة جينغ) (نسخ تسنغ شو تسونغ)

كان تنين يينغ المجنح يخدم الإمبراطور هوانغ، وقد كافأه الإمبراطور بعد أن قتل تشي يو. في قصيدة «تيانون»، يُبدي تشيوي شكوكه حول قيام تنين يينغ بمساعدة يوي في ترويض النهر.





الصورة 1-7 «رسم لكونفوشيوس» (نسخ تسنغ شو تسونغ)

كونفوشيوس (551-479 قبل الميلاد) هو أحد أعظم المفكرين والتربويين في تاريخ الصين، وهو مؤسس المدرسة الكونفوشيوسية. وقد ألَّف كونفوشيوس كتباً مثل «كتاب الأغاني» و«كتاب التاريخ» و«كتاب الطقوس والشعائر» و«كتاب الموسيقى» و«كتاب التغيرات» و«حوليات الربيع والخريف». لم ينكر كونفوشيوس وجود قوى غيبية عظمى والقضاء والقدر، ولكنه اتخذ موقفاً متشككاً إزاء قدرة الإنسان على فهمها، وفضّل عدم التحدث عنها، كما حاول أن يتعامل مع الأساطير بعقلانية.

من القصائد والأغاني؛ القصائد الغنائية والترانيم الكبرى فيه هي في الغالب قصائد ملحمية من حقبتَي سلالتَي شانغ وتشو وعصر الأباطرة الخمسة؛ لذا من المتوقع أن تحتوي على عناصر أسطورية. وتعكس شذرات الأساطير هذه محاولة الصينيين القدامى بناء تاريخهم العشائري بمساعدة الخيال.

وبما أن الأساطير تحمل في ثناياها رسائل واضحة وعميقة، نزع علماء الحقبة السابقة لعصر سلالة تشين إلى اقتباس الأساطير في محاولة لتفسير نظرياتهم، ولذلك نرى الكثير من العناصر الأسطورية في عدد كبير من كتب تلك الفترة مثل «تشوانغ تسي» و«منشيوس» و«مو تسي» و«هان في تسي» و«ليويشي تشون تشيو». ومن بين هذه الكتب، يُسجِّل لنا كتاب «تشوانغ تسي» العدد الأكبر من الأساطير. تم تأليف القسم الأول من هذا الكتاب خلال حقبة الممالك المتحاربة، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام، ويمثّل آراء الفيلسوف الطاوي العظيم تشوانغ تسي. يُعتَبر استخدام القصص الرمزية الوسيلة الرئيسة في هذا العمل الفلسفي، ويعود أصل بعض هذه القصص الرمزية إلى الأساطير (الصورة 1-8)، وقد استخدم بعضها الآخر روايات معينة من الأساطير مثل قصة كونبنغ، والسمكة العملاقة التي تحولت إلى طائر ضخم، وفقدان الإمبراطور هوانغ



الصورة 1-8 «تشوانغ تسي يحلم بالفراشة»، رسم من أعمال ما تاي في أواخر حقبة سلالة تشينغ وبداية نشأة جمهورية الصين (نسخ تسنغ شو تسونغ)

سجّلت هذه القصة في «تشوانغ تسي: تشي وو لون» (نظرية ترتيب الأشياء). فقد رأى تشوانغ تسي فراشة في منامه، فقال إنه موجود في حلم الفراشة وليس العكس. وتعكس هذه القصة وجهة نظر تشوانغ تسي حول كون البشر جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة.

اللؤلؤة السوداء، وقيام شو وهو بنحت هوندون بإزميل حتى الموت. ومن بين جميع هذه القصص، وتعتبر قصة شو وهو من الأساطير الصينية التي تعكس تصورات الشعب الصيني القديم حول أصل الكون.

حفظت لنا بعض الكتب الأخرى التي تعود إلى فترة ما قبل حقبة سلالة تشين- مثل «تسوه تشوان» و«قوه يوي» و«يي تشو»- بعض الإشارات القيمة إلى الأساطير؛ حيث تُعتبر معظم الأساطير التي دوّنتها هذه الكتب روايات معتمدة من قبل المؤرخين لتفسير التاريخ القديم، لكن الأثر الخرافي في هذه الروايات لا يزال بيناً. كان لهذا التصور الجامع بين الوقائع والأساطير في تناقل التاريخ القديم أثر بليغ في الكتب التاريخية المكتوبة على أيدي أجيال المؤرخين اللاحقين.

لدى الصين الكثير من الوثائق القديمة التي تُدوِّن الخرافات والأساطير. وتلعب تلك الوثائق دوراً مهماً في حفظ المخزون المتوارث والعظيم من الأساطير والخرافات في الصين، والتي نحصل من خلالها على لمحة عن عالم الأساطير والخرافات. ولكن، لا يوجد كتاب يدوّن تلك الأساطير والخرافات بشكل واضح ومتسق، ولذلك نجد أنفسنا مضطرين للبحث بين المواد المتنوعة لفهم هذا الجانب من التراث الصيني.



التشابك مع التاريخ

الصين أمة قديمة تتمتع بحضارة مجيدة، وقد تناقلت أجيال متعاقبة عديدة شعلة هذه الحضارة. وبما أن الصينيين يعلقون أهمية كبيرة على الحياة الثقافية، فإن تاريخهم العلمي متقدم للغاية. توجد مجموعة كبيرة من الكتب حول التاريخ، ومنذ عهد حكم الإمبراطور هوانغ وحتى اليوم، قام مؤرخون رسميون بتدوين الأحداث التي جرت. لكن وبالمقابل، إن التراث الصيني حافل بالأساطير والخرافات، وقد نجم عن ذلك نظام أسطوري- تاريخي منفتح للتغيير والتطورات الجديدة. يرتبط التاريخ بطبيعة الحال مع الأساطير؛ فالتاريخ هو مصدر الخرافات، والخرافات ليست إلا التاريخ ممزوجاً مع خصوبة الخيال الإنساني. لذا، إن الخرافات في بعض الأحيان ليست إلا تاريخاً تمّت المبالغة في بعض جوانبه. وهذا الارتباط والتشابك بين التاريخ والخرافة واضح بشكل خاص في الوثائق الصينية القديمة؛ خاصة تلك التي تم إملاؤها.

كان نتيجةَ طول أمد تاريخ الصين، وندرة السجلات التاريخية والوثائق التي تعود إلى فجر تلك الحضارة أن اختلط تاريخ مراحلها الأولى بشكل كبير مع الخرافات والأساطير؛ فقبل اختراع اللغة المكتوبة كانت ملامح التاريخ تتعرض للتغيير والتبديل في كل مرة تتم فيها روايته. وفي كل مرة، كان يحمل معه عنصراً أقوى من الخيال المؤدي تدريجياً إلى الخرافة والأساطير لا محالة، وهكذا تحول التاريخ تدريجياً إلى خرافات وأساطير. فعلى سبيل المثال، قد تعكس الأسطورة القائلة إن هو يي قام برمي السهام على الشمس حالة من الجفاف الشديد، أما أسطورة قيام تسون ويوي بترويض الأنهار فقد تعكس ذكرى طوفانات عارمة، في حين أن قصص صراع الإمبراطور هوانغ ضد تشي يو والإمبراطور يان فقد تكون سجلاً للنزاع بين القبائل. ولعل الأساطير حول أسلاف كل قبيلة، وقصص كل اختراع، والملاحم التي تتوارثها الأقليات العرقية جميعها تنتج عن تاريخ تمت معالجته بعناصر من الخيال والفن.

في العصور السحيقة التي لم تعرف فيها البشرية الكتابة، لم يكن التاريخ يتناقل من جيل إلى آخر إلا عن طريق الأساطير. وما كان هناك مناص من تحول التاريخ إلى أسطورة. ولكن حتى مع وجود الكتابة، تعرّض التاريخ للتحويل وحتى للتشويه في بعض الأحيان. حتى إن الحضارة العقلانية فيها متسع للأساطير الجديدة. تأثرت الأجيال

اللاحقة بخرافات الأسلاف، وظل الأباطرة في العصور التالية متعلقين بالقصص الخرافية. فعلى سبيل المثال، وبحسب ما ذكر كتاب «السجلات التاريخية» أصبحت أم ليو بانغ- الإمبراطور الأول من سلالة هان- حاملاً بعد أن رأت في منامها أحد الآلهة يجامعها، حيث جاء والد ليو بانغ بين الرعد والبرق. وبعد ذلك بفترة قصيرة، وُلِد ليو بانغ وهو يبدو كإمبراطور. وذات يوم قتل أفعى بيضاء، فرأى بعدها في منامه أن سيدة عجوزاً أخبرته أن ابنها- ابن الإمبراطور الأبيض- قد قُتِل على يد ابن الإمبراطور الأحمر (الصورة 1-9).

شعر تشين شي هوانغ- أول إمبراطور في عهد سلالة تشين- بتميز ليو بانغ؛ فقد كان يعتقد أن إمبراطوراً آخر سينشأ في المكان الذي كان ليو بانغ يعيش فيه، ولذلك ذهب إلى هناك باحثاً فاختبأ ليو بانغ في الجبال، ولكن زوجته ليوي تشي لم تجد صعوبة في العثور على مخبئه لأنه كان دائماً مجللاً بالغيوم والضباب. وهكذا، نرى أن هذه السجلات جميعها ميزت ليو بانغ عن عامة الناس.

وبالإضافة إلى ليو بانغ، أوصلت الأساطير أبطالاً مثل يويه في (الصورة 1-10) وقوان يوي إلى درجة الألوهية، وتحوّلت قصصهم التاريخية إلى أساطير وخرافات. لهذا، يستطيع علماء الأنثروبولوجيا أن يدرسوا الحضارة والتاريخ من خلال استقراء الأساطير والخرافات.

في بعض الأحيان تتحول الخرافات إلى تاريخ، أو على الأقل يعتبرها الناس تاريخاً،



الصورة 1-9 «الإمبراطور قاو تسو يقتل الأفعى» رسم من أعمال وو يو رو من عهد سلالة تشينغ

كان ليو بانغ- الإمبراطور المؤسس لسلالة هان- مسؤول دولة متدني الرتبة أيام حكم سلالة تشين. وقد حصلت قصة قتل ليو بانغ الأفعى البيضاء في سيشوي. وفي زمن حكم سلالة هان، حوّل الناس هذه القصة إلى أسطورة؛ أي قيام ابن الإمبراطور الأحمر بقتل ابن الإمبراطور الأبيض. يشير الإمبراطور الأحمر إلى الإمبراطور يان، أما ابنه فهو ليو بانغ، في حين أن ابن الإمبراطور الأبيض يُشير إلى الحاكم من سلالة تشين. والقصة بجملتها وتفصيلها تشير إلى أن سلالة هان ستحل محل سلالة تشين.



الصورة 1-10 «الولاء للبلاد»، صورة مخصصة لرأس السنة مطبوعة على كليشيه خشبية من تيانجين يانغ ليوتشينغ

كان «يويه في» قائدَ جيش وخبيرَ استراتيجية مشهوراً، وكان موالياً لسلالة سونغ الجنوبية في حربها ضد سلالة جين. وفي صورة رأس السنة هذه، تقوم أمّه بوشم ظهره بأربعة حروف وتعني: «خدمة البلاد بولاء فائق». لم تأتِ أي من الوثائق التي تعود إلى حقبة سلالة سونغ على ذكر هذا الوشم، بل ظهر للمرة الأولى في كتاب تم تأليفه أثناء حقبة سلالة يوان، ولكن لم يُشِر سياق ذكره إلى قيام أم يويه بوشمه على ظهره. وبعد ذلك، ذكر كتاب يُدعى «جينغ تشوغ شوه يويه» تم تأليفه أثناء حقبة سلالة تشينغ أنّ أم يويه كانت من وضع الوشم على ظهره. ويظهر هذا التسلسل كيفية تحوّل التاريخ إلى الأسطورة.

فتصبح مادة مهمة لمعرفة عصور ما قبل التاريخ. وفي هذا السياق، زعم الفيلسوف الألماني هيغل في كتابه «فلسفة التاريخ» أن المؤرخين الصينيين يعتبرون الأساطير والوقائع قبل التاريخ وكأنها حقائق تاريخية بحتة. وعلينا هنا أن نشير إلى أن المؤرخين الصينيين يعتبرون الأساطير تاريخاً؛ لأن التاريخ يتحول بالفعل إلى أساطير. وبما أن الأساطير الصينية لها جذور في التاريخ، فعندما تتنامى الروح العقلانية سيحاول المؤرخون

إعادة الأساطير إلى صورتها الأصلية، أي إلى كونها تاريخاً.

يمكننا تبرير قيام المؤرخين بتحويل الأساطير والخرافات إلى تاريخ إلى حد ما، فخلال عملية التحويل يحاول المؤرخون إزالة عنصر المبالغة عن هذه الأساطير.

حين يحوّل المؤرخون الأساطير إلى تاريخ، فهم يعتبرون أن المقصود بالآلهة أسلافُهم من البشر، فيقلصون الخيال إلى الواقع؛ وهذا بدوره يحوّل الأساطير إلى وقائع تاريخية مقبولة، ويساعدهم على بناء شجرة سلالات العائلات. ونظراً لعدم وجود لغة مكتوبة في الأزمنة القديمة، أصبح عصر الملوك الثلاثة والأباطرة الخمسة عصراً أسطورياً أقرب إلى الخرافة منه إلى الواقع. ولكن، حين نحوّل الأساطير إلى تاريخ، يمكننا أن نستشف ولو بشكل مبهم بعض ملامح تاريخ ذلك العصر. فعلى سبيل المثال، يحتوي كتاب «السجلات التاريخية» سجلات للأباطرة الخمسة (الصورة 1-11). إذاً، لقد وجدت أساطير الأباطرة هوانغ وتشوان شيوي ودي كو وتانغ ياو (الصورة 1-12) ويوي شون (الصورة 1-13) طريقها إلى التاريخ الرسمي.

وبما أن الروايات عن الأباطرة الخمسة تعتبر أساس التاريخ الصيني، فهم يحتلون مكانة رفيعة للغاية في الحضارة الصينية؛ فقد أصبحت المجتمعات المثالية التي بنوها والقيم السامية التي عاشوا وفقها نماذج للأجيال اللاحقة. لكن، لا يكاد يوجد أي أثر للأباطرة الخمسة إلا في الأساطير، ولذلك لا مهرب من تحويل





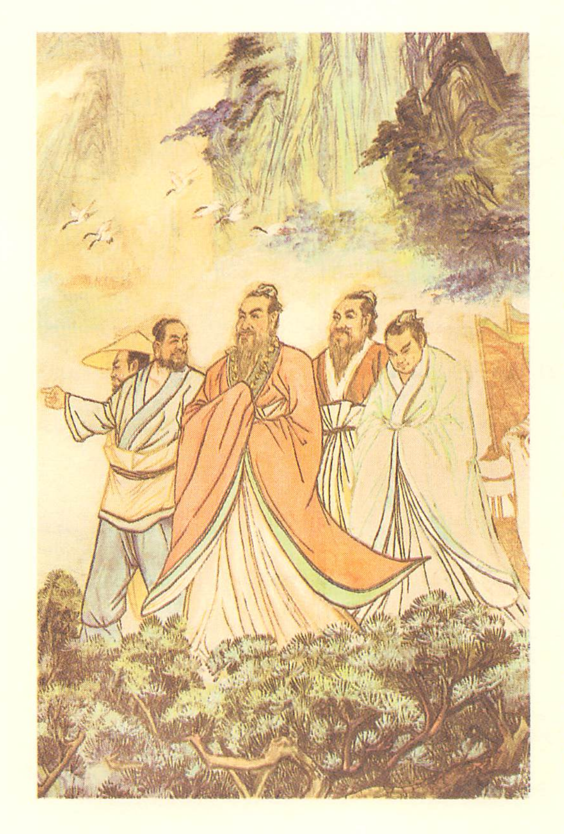






الصورة 1-11 صور الأباطرة الخمسة

يشير مصطلح الأباطرة الخمسة إلى الأباطرة والملوك الحكماء الذين حكموا البلاد قبل زمن سحيق؛ وقد ألهموا الناس لأن قصصهم نالت تبجيلاً كبيراً. وبحسب كتاب «السجلات التاريخية» من تأليف سي ما تشين، إن الأباطرة الخمسة هم: الإمبراطور هوانغ- أول الأباطرة الخمسة- والإمبراطور تشوان شيوي من نسل الإمبراطور هوانغ، والإمبراطور دي كو ابن حفيد الإمبراطور هوانغ، والإمبراطور ياو الابن الثاني للإمبراطور دي كو، والإمبراطور شون.

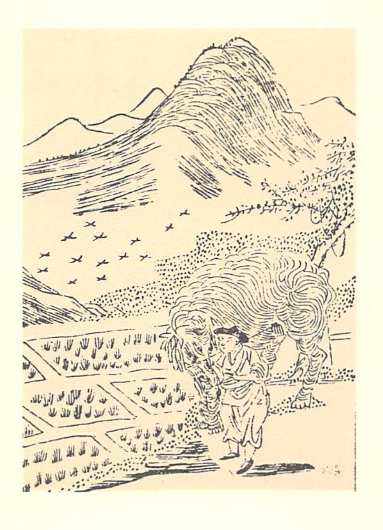


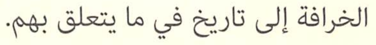
(إلى اليسار) الصورة 1-12 «الإمبراطور ياو يعتني بالناس»، لوحة جدارية في أكاديمية معبد سونغيانغ، دفنغ، مقاطعة خهنان (تصوير نيه مينغ)

اعتلى الإمبراطور العرش في تاو وتانغ، لذا استخدم اللقب العائلي تاو تانغ، ولكنّ اسمه التاريخي هو: تانغ ياو. وقد اشتهر بحكمه الخيّر والعادل، حيث كان يستمع إلى آراء الناس، ويُعيِّن أشخاصاً أصحاب فضل وكفاءة في مناصب الدولة. وفي وقت لاحق، تنازل الإمبراطور ياو عن العرش لصالح شون. وتُظهر هذه اللوحة الجدارية العلاقة الوطيدة بين ياو وشعبه.

(في الأسفل) الصورة 1-13 «الملك الحكيم يوي شون: بر بالوالدين يحرك السماء»، صورة من «الكتاب المصور حول أربع وعشرين قصة في البر بالوالدين»

لقد كان شون على الدوام رجلاً مستقيماً ونزيهاً. ويقال إنه عندما كان فلاحاً في ليشان، كانت الفيلة تحرث له الأرض، وكذلك الطيور تعزقها له طوعاً. وقد جلب شون معه عادة الكياسة وحسن المعاملة إلى كل مكان عاش فيه، ونشرها بين الناس الراغبين في اتباعه. وحين علم الإمبراطور ياو بذلك عيّنه رئيساً للوزراء، وفي وقت لاحق تنازل له عن العرش، فأصبح شون ملكاً حكيماً مشهوراً.





الخرافة إلى تاريخ في ما يتعلق بهم.

أثناء عملية إعادة تحويل الأساطير إلى تاريخ، تمت إزالة بعض الصور الخيالية التي لا تمت إلى الواقع بصلة، مثل البشر ذوي الأجسام الحيوانية وغير ذلك. فعلى سبيل المثال، يورد كتاب «شي تسي» حواراً بين كونفوشيوس وتلميذه تسي قونغ؛ فقد سأل تسي قونغ المعلم العظيم إن كان ينبغي للناس أن يصدقوا أن الإمبراطور هوانغ كانت لديه أربعة وجوه بالفعل أم لا، فأجابه

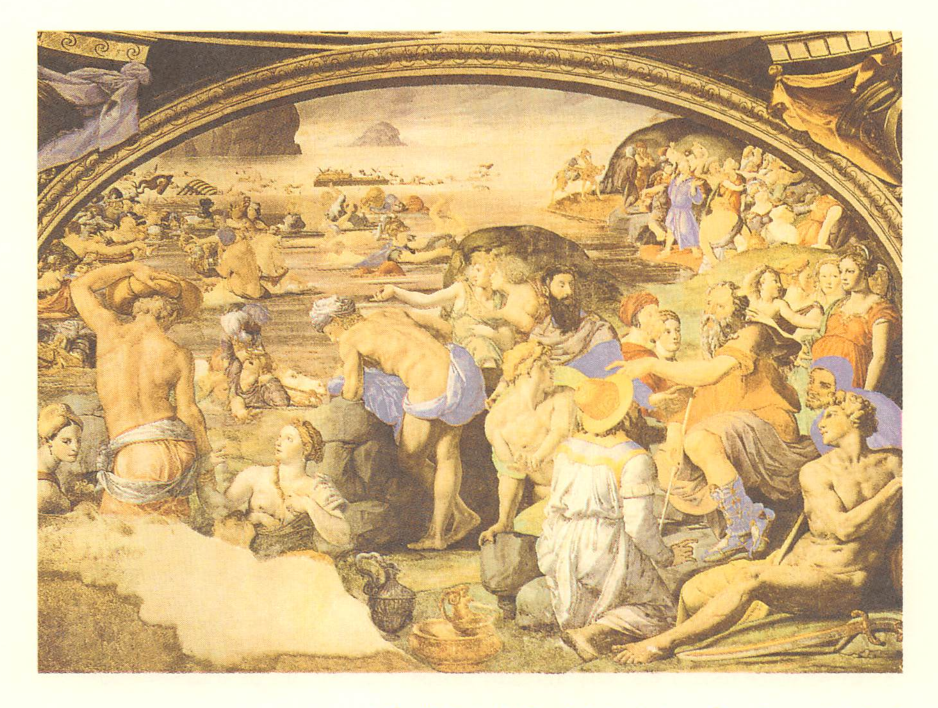
كونفوشيوس مُفسِّراً أن الوجوه الأربعة هي في الواقع رمز لأربعة وزراء أصحاب كفاءة ساعدوا الإمبراطور في حكمه للبلاد. وبما أن الكونفوشيوسية أصبحت الفلسفة السائدة في الحضارة الصينية، كان لمسلك كونفوشيوس إزاء الأساطير تأثير كبير على تطور هذه الأساطير وكيفية فهم الناس لها.

وبناء على تلك الأساطير والفلسفة التاريخية، يمكننا الاستنتاج أنّ الشعب الصيني القديم استخدم كلاً من التفكير العقلاني والخرافي في نظرته إلى التاريخ والعالم؛ ولذلك كان بإمكان العلماء الصينيين القدامى أن يعتبروا كتاباً مثل «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار» الذي يدور حول قصص الآلهة والوحوش كعمل في الجغرافيا والتاريخ، كما كان بإمكانهم أن يقتبسوا من الأساطير والخرافات للتعبير عن صفات بعض الشخصيات التاريخية، بينما كان بإمكان العلماء الكونفوشيوسيين الذين لا يحبذون التكلم عن القوى الغيبية تفسير التفاعل بين الطبيعة والإنسان، وشرح نظريتهم في نذر الشؤم المشيرة إلى قدوم المصائب.

لكن الحقيقة هي أن كلاً من الأساطير الشرقية والغربية مرتبطة بالتاريخ بشدة. فعلى سبيل المثال، ربما حصلت حرب طروادة بالفعل، ولكن الأساطير حولتها من حرب بين البشر إلى حرب بين الآلهة. وربما كان سفر الخروج بالفعل سجلاً تاريخياً لهجرة الشعب اليهودي من مصر، وليس هناك ما ينفي كون موسى (الصورة 1-14) شخصية تاريخية بالفعل. يوجد الكثير من الأمثلة الأخرى عن نسخ أسطورية من روايات التاريخ الإنساني المبكر في التراث الغربي؛ فالأساطير اليونانية القديمة غنية بالصور العجيبة، وقصص الأبطال فيها تبدو وكأنها وقائع تاريخية حوّلتها مخيلات اليونانيين القدامى إلى خرافات وأساطير.

وبخلاف التأثير الذي حمله امتزاج الأساطير مع التاريخ في الثقافة الصينية، لم تتواجد هذه الظاهرة إلا في المراحل الأولى من الحضارة الغربية؛ أي في عصور الحضارتين اليونانية والرومانية. ومع دخول الحضارة إلى القرون الوسطى، ونشأة النزعة الكلاسيكية، كادت هذه الظاهرة تنحصر في الدين فقط. أما الحضارة الصينية فلم تكن فيها ديانة سائدة بالمعنى الدقيق للكلمة؛ فلم تجد النزعة الدينية الموجودة لدى البشر عموماً مخرجاً مُحدّداً لها عند الصينيين القدامى، لذا تجد أنهم كادوا- دون وعي- يؤلّهون كل شيء حولهم. فما تتميز به الحضارة الصينية هو عدم وجود دين دائم تنامت في





الصورة 1-14 «عبور البحر الأحمر»، لوحة جدارية (فريسكو) للرسام الإيطالي آغنولو برونزينو، بالاتزو فيتشيو، فلورنسا

تظهر هذه اللوحة موسى كرجل عجوز قوي البنية، وتزيّن وجهه لحية طويلة. وبحسب سفر الخروج في العهد القديم، قاد موسى العبرانيين المستعبدين في هربهم من مصر، وحين لاحقتهم خيالة فرعون للقضاء عليهم وبمواجهة البحر الأحمر، أمر الله موسى برفع عصاه فانفلق البحر إلى نصفين عبر بينهما العبرانيون بنجاح، أما المصريون فقد غرقوا.

كنفه الحضارة، بل كان هناك وعي ديني يمتد إلى جميع جوانب الحياة والحضارة. ولا شك في أنه ثمة رابط ولو جزئي بين هذه الظاهرة والتشابك العميق بين الأسطورة والتاريخ في وعي الشعب الصيني.

يُحسن الصينيون التفكير بطريقة عقلانية وواقعية، وكذلك بطريقة مثالية خيالية. لذا، تتميز الأساطير الصينية بأسلوب يجمع بين العقل والخيال، وهي ليست عقلانية كالتاريخ مثلاً، ولكنها ليست روحانية غيبية كنظيرتها الغربية أيضاً. إن هذا التشابك بين الأسطورة والتاريخ ظاهرة فريدة في الحضارة الصينية، لذا يجد الغربيون هذه الحضارة غامضة ومستعصية على الفهم.

قصص تتطور

إن الأساطير والخرافات الصينية جزء من نظام مفتوح، والكثير من الأساطير تجد جذورها في الوقائع التاريخية. فخلال توارث القصص من جيل إلى آخر تطورت تلك القصص، بينما تم استحداث قصص أخرى ترتبط بالأولى. ومع مرور الزمن، طوى النسيان القصص الأصلية القديمة. لذلك نقول إن الوقائع التاريخية تتعرض للمبالغة فتتحول إلى أساطير وخرافات، بينما تُنقّى بعض الأساطير والخرافات وتتخلص من العنصر الغيبي فتتحول إلى وقائع تاريخية؛ فنجد أن بعض القوى المنسوبة إلى آلهة الطبيعة التي تتحكم بمصائر البشر تنتقل إلى الأبطال الموتى الذين أصبحوا خالدين. وهكذا، تتحول قصص الآلهة إلى قصص للخالدين، ويتحول البشر إلى آلهة، والآلهة إلى بشر.

فُسِّرت الأساطير القديمة بطرائق مختلفة. ومن خلال تفاعل الروايات المختلفة لهذه الأساطير أصبح محتواها أكثر غنى وثراء، وصورها أكثر امتلاءً وجمالاً، حتى إن مواضيعها مرت ببعض التغيير. ويرتبط تنوع الأساطير الصينية وثراؤها بهذه الحقيقة.

في التاريخ الصيني، يعتبر «فو شي» أباً لجميع البشر، وقد عاش في عصر كانت البربرية فيه تتطور باتجاه الحضارة. لكن في أساطير أخرى حول أسلاف البشر، يعتبر فو شي ونيوي وا إلهين عظيمين، وقد تغيّرت صورهما التي تعكس زواجهما كأخ وأخته عبر مرور الزمن.

في كتاب تم تأليفه في حقبة سلالة هان ويدعى «قصص العادات»، توجد قصة حول قيام نيوي وا بخلق البشر من طين أصفر. ومع مرور الوقت، تحولت هذه القصة إلى كيفية تزاوج نيوي وا مع أخيها ليتولد البشر من هذا التزاوج. ففي المراحل الأولى من التاريخ البشري، لم يكن التزاوج بين الأقرباء المباشرين يحمل الحرمة التي يحملها اليوم. ولما كانت نيوي وا تحتاج إلى زوج كان أخوها الخيار الأمثل، لذا تزوجته. ويظهر رسم منقوش في حجر يعود إلى حقبة سلالة هان زوجين لهما رأس إنسان وجسم أفعى (الصورة 1-15)، وهذا رسم لفو شي ونيوي وا، ويرمز تزاوجهما إلى عملية الإنجاب والتناسل عند الإنسان.

يعتقد بعض العلماء أن أسطورة فو شي ونيوي وا تعود إلى أساطير تناقلها شعب





الصورة 1-15 «صورة فو شي ونيوي وا»، رسم منقوش على حجر يعود إلى حقبة سلالة هان الشرقية، تم العثور عليه في شينيه، مقاطعة خهنان (تصوير نيه مينغ)

يلبس الشخصان اللذان يمثلهما هذا النقش ثياباً من الطراز السائد في حقبة سلالة هان، ولكل منهما رأس إنسان وجسم أفعى. ويعكس هذا الرسم أسطورة فو شي ونيوي وا وخلقهما للجنس البشري، وتظهر في الرسم ظلة فوق رأس كل منهما، بينما تلتف سلحفاة برية كبيرة حول أعضائهما التناسلية.

مياو، ويعتقد بعضهم أن آلهة ين ويانغ التي ذكرها «تشو بو شو جيا بيان» تشير إلى فو شي ونيوي وا؛ حيث يجسد الإلهان طاقتي الين واليانغ. ففي الرسوم الجدارية التي تعود إلى حقبة سلالة هان، يحمل فو شي الشمس أو ساعة شمسية ويمثل اليانغ، أما نيوي وا فتحمل القمر أو مربع القمر وتمثل الين، وبعد تزاوجهما أنجبا أربعة أولاد، وبعد ذلك أنجبا الأشياء على الأرض، فكانت هذه بداية إحداث الين واليانغ لجميع الأشياء على الأرض. تزاوجت نيوي وا مع فو شي لتخلق الجنس البشري، أما الساعة الشمسية ومربع القمر فيمثلان قوانين المجتمعات الإنسانية وعاداتها؛ الزواج والأخلاق. (الصورة 1-16)

ما لا شك فيه هو أن فو شي لم يكن أخا نيوي وا في الروايات المبكرة لهذه الأسطورة. فبحسب كتاب «دو يي تشي» الذي تم تأليفه في حقبة سلالة تانغ، لم يكن هناك إلا شخصان بشريان على جبال كونلون عند خلق الكون؛ وهما نيوي وا

وأخوها، لكن كتاب «لو يي جي» الذي تم تأليفه أثناء حقبة السلالات الخمس يدوِّن لنا أنه يوجد معبد لنيوي وا وفو شي في تشن تشو؛ ما يعني أن اسم «فو شي» إنما أُطلِق على أخ نيوي وا أثناء تلك الحقبة. أما نحن فنرجِّح أن فو شي الذي تزوج نيوي وا ليس أبا البشرية فو شي نفسه، بل هما يحملان الاسم نفسه فحسب.

ويصف كتاب «دو يي تشي» الذي تم تأليفه في حقبة سلالة تانغ كلاً من فو شي ونيوي وا بأنهما شخصان عاديان؛ ومثل آدم وحواء (الصورة 1-17) كانا الشخصين الوحيدين عند بداية العالم، وكانا يعلمان أن التزاوج بين الأخ وأخته خاطئ وشعرا بالخجل، فأشعلا نارين طالبين الهداية من الإله، فإذا امتزج الدخان المنبعث من النارين فسيعتبران أن ذلك يعني أن الإله يريد منهما التزاوج. ولما كانت النتيجة امتزاج الدخان، تزوجا بحسب مشيئة الإله.



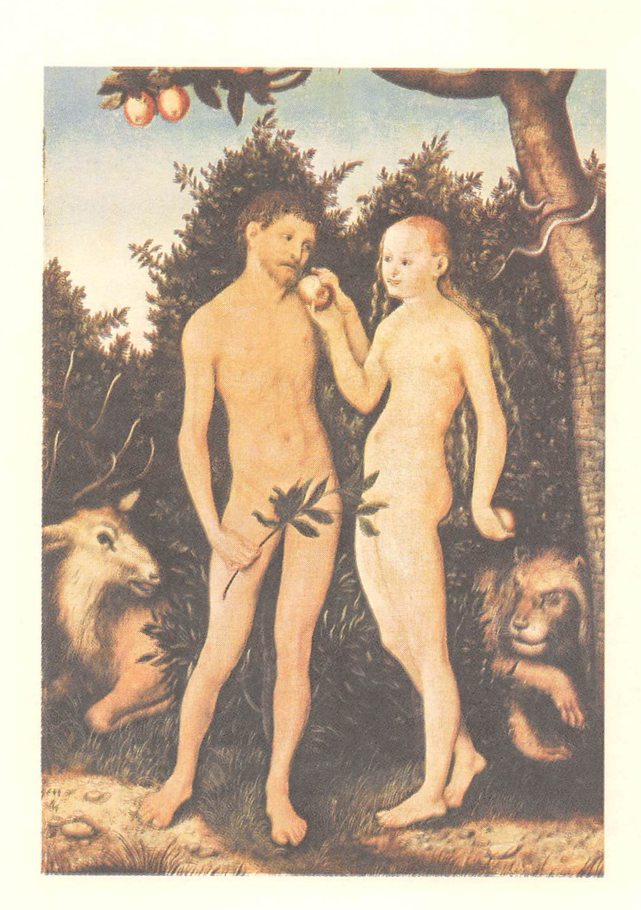
الصورة 1-16 «فو شي ونيوي وا»، رسم على ورق الحرير يعود إلى حقبة سلالة تانغ

في هذا الرسم، يرتدي فو شي ونيوي وا ثياباً من الطراز السائد في حقبة سلالة تانغ، ويمكن التمييز بينهما من خلال الساعة الشمسية ومربع القمر اللذين يحملانهما. ويُظهِر الرسم أيضاً القمر والنجوم وتصاعد الغيوم ليمثل عظمة الخلق.



في وقت لاحق، تغيرت هذه القصة بعض الشيء لتتحول وتصبح على الشكل التالي: أثناء طوفان، نجا كل من فو شي ونيوي وا بمساعدة سلحفاة خارقة، وبما أنهما الشخصان الوحيدان المتبقيان من البشرية تزوجا بهداية الآلهة وأنجبا أطفالاً، ولا يمكن هنا أن نخطئ التشابه بين هذه القصة وبين قصة نوح وسفينته.

لعل هذه التغيرات في قصة فو شي ونيوي وا تعود إلى تزايد وعي المجتمع بالحدود المرسومة على الزواج، وإدراكه للأخلاقيات التي تحكم سلوك الإنسان. ففي الروايات الأولى، كانت القصة بسيطة وجريئة وسحرية، والشخصيات فيها أقرب إلى كونها آلهة. أما الأجيال التالية فقد كيّفت القصة بحسب الحس الأخلاقي المتنامي لديها. وبعد أن مرت القصة بجميع هذه التحولات، أصبحت متكاملة ومروية بلغة بليغة،



الصورة 1-17 «آدم وحواء» رسم للفنان الألماني لوكاس كراناش، متحف برلين الوطني، ألمانيا

يظهر الرسم إغواء الأفعى لآدم وحواء كي يأكلا من الثمرة المحرمة. آدم أول إنسان خلقه الله، ثم خلق حواء من ضلعه؛ وهما والدا البشرية حسب ما ذكره الكتاب المقدس. إذاً، تتجلى القرابة بين آدم وحواء بكونها خلقت من ضلعه، أما وجه القرابة بين فو شي ونيوي وا فهو أنهما أخ وأخته. ويعكس هذا الأمر العادة التي كانت موجودة في المجتمع الإنساني البدائي؛ ألا وهي الزواج بين الإخوة.

وصارت شخصياتها أقرب إلى البشر منهم إلى الآلهة؛ أي أصبحت أكثر منطقية وعقلانية. فمن مزايا الأساطير والخرافات الصينية أنها تتجه إلى الأدب والعقل مع تطورها.

ومن الأمثلة الأخرى على تطور الصور في الأساطير الصينية أسطورة الملكة الأم الغربية، إذ يمثل ذلك التطور الاندماج بين الآلهة والخالدين.

ظهرت الملكة الأم الغربية للمرة الأولى في «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار» (الصورة 1-18)، وتعتبر من الآلهة المرعبة؛ حيث إنها تمتلك ذيلاً كذيل الفهد وأسناناً كأسنان النمر وشعراً خشناً وتعتمر قبعة غريبة وتزأر. وهي الموكلة بالمصائب والطواعين والعقوبات؛ فكأنها إلهة الطالع المشؤوم، ولا أحد يعرف جنسها تحديداً. وترافق الجوارح هذه الإلهة الغامضة التي تعيش في مكان في غاية الخطورة.

في كتاب «سيرة حياة الإمبراطور مو» (من سلالة تشو الغربية) تحولت الملكة الأم الغربية إلى سيدة لطيفة، فقد استضافت الإمبراطور الزائر، وأقامت مأدبة للترحيب به عند بركة الجاد، وغنت له أغنية جميلة. وكذلك نجدها في كتاب «هواينانتسي» الذي أُلِّف في حقبة سلالة هان، وقد أعطت هو يي إكسيراً وتحولت إلى إلهة للطالع السعيد، ولكنها في هذا الكتاب تظهر وكأنها من الخالدين وليست من الآلهة. شهدت الملكة الأم الغربية تحولاً



الصورة 1-18 «الملكة الأم الغربية»، من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب حول شي تسي سان» (نسخة وانغ) (نسخ تسنغ شو تسونغ)

تظهر الصورة الأصلية للملكة الأم الغربية في «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار» وهي تعتمر قبعة غريبة وترتدي ثياباً فضفاضة. ومع أنها تبدو وكأنها عجوز، إلا أن أنيابها وقدمها التي تشبه قدم النمر تجعلها تبدو شرسة ومخيفة أيضاً.

آخر في الروايات التي تم تأليفها في حقبتَي سلالتَي هان ووي حول الإمبراطور وو من سلالة هان؛ فقد أصبحت في تلك الروايات سيدة جميلة وأنيقة في العقد الثالث من عمرها، تنزل في بلاط الإمبراطور وو حيث تعطيه خوخة الخلود، وتعلّمه كيف يصبح خالداً.

لكن مع حلول ذلك الوقت، كان الكثير من قصص الآلهة قد تحوّل إلى قصص حول الخالدين تحت تأثير الطاوية؛ فنالت الملكة الأم الغربية الكثير من الشعبية، وأصبحت تعتبر قائدة الخالدين.

لقد دمج هذا التصور بين الملكة الأم الغربية وبين عدة معتقدات ووظائف غيبية، مُحوِّلاً إياها إلى إلهة كلية الإرادة، فتثبتت صورتها كإحدى أكثر الآلهة شعبية وكالملكة الأم السماوية (الصورة 1-19). حين تتحول قصص الآلهة إلى قصص حول الخالدين، فإن حبكتها تصبح أشد إثارة للانتباه، ومحتواها أكثر ثراء. لكن الأفكار البدائية والإنسانية والروح القومية والقيم الجمالية في هذه القصص سرعان ما شهدت ضعفاً إن لم نقل زوالاً نتيجة تحوّل روح الطاوية إلى التركيز على اللذة، وإهمالها للنزعة الإنسانية خلال حقبتَي سلالتَي وي وجين.

ظهرت الحبكة الأساسية لقصة «طيران تشانغه إلى القمر» في أوائل السنوات الأولى من حقبة الممالك المتحاربة. وفي البداية، كانت هذه قصة مستقلة عن قيام هو يي برمي سهامه على الشمس. وفي هذه الرواية الأصلية، أخذت تشانغه الإكسير وطارت إلى القمر. لكن في كتب الأجيال اللاحقة، مرت هذه القصة بتغيرات كثيرة، فأصبحت تشانغه زوجة لهو يي، وتحول الإكسير إلى هدية قدمتها الملكة الأم الغربية إلى هو يي؛ فما كان من تشانغه إلا أن سرقت الإكسير من زوجها وتركته لتطير إلى القمر، حيث تحولت إلى علجوم في قصر القمر. (الصورة 1-20)

لكن الناس المتعاطفين مع هذه السيدة الجميلة أضافوا شخصية أخرى إلى القصة، وهي شخصية فنغ منغ؛ تلميذ هو يي. فقد حاول فنغ منغ أن ينتزع الإكسير حين أدرك أن هو يي ليس في منزله، فحاولت تشانغه بدورها أن توقفه، ولم يكن أمامها أي خيار إلا تناول الإكسير، وعندها طارت إلى القمر حيث شعرت بالوحدة والحزن. وحين أدرك هو يي أن تشانغه قد طارت إلى القمر شعر بحزن شديد أيضاً، ووجد أن الحياة لا تستحق



الصورة 1-19 «صورة لمسكن الخالدين والموسيقى السماوية»، رسم لتشانغ وو من حقبة سلالة يوان

آلهة الخلود الأربعة ينتظرون ليرحبوا بالملكة الأم الغربية. تقف الخادمات جانباً وهن يحملن صحوناً من خوخ الخلود. تحوّلت الملكة الأم الغربية في هذا الرسم إلى امرأة جميلة وأنيقة. ومع حلول ذلك الوقت، كانت الملكة الأم الغربية قد أصبحت إحدى صور نسق الخالدين.



الصورة 1-20 «قطعة من الآجر تعود إلى حقبة سلالة هان الغربية، وتحمل شكلَي علجوم وأرنب»، تم العثور عليها في موقع قصر قانتشوان، مقاطعة شانشي (تصوير لي جون تشاو)

إن قطعة الآجر هذه أثر حضاري صيني من الطراز الأول. يوجد أعلاها شكل أرنب مجنح وأسفلها علجوم. ويقال إن تشانغه بعد طيرانها إلى القمر أصبحت جنية على شكل علجوم.

الاستمرار بها. وعندما عرفت الملكة الأم الغربية بمعاناتهما سمحت لهما بالالتقاء عند اكتمال القمر، ولا يزال الكثير من الناس حتى اليوم يسمعون همسات ذينك العاشقيْن عندما يكون القمر بدراً. (الصورة 1-21)

شهدت صورة هو يي أيضاً تغيرات خاصة بها؛ فتحول الإله «يي» إلى رامي سهام يدعى «هو يي». في الواقع، إنّ يي وهو يي شخصان مختلفان؛ فرامي السهام هو يي هو ملك قبيلة شرق الصين التي تدعى «يو تشيونغ». ولكن خلال تناقل الأساطير، تمازجت شخصية رامي السهام هذا مع الإله يي المشهور بقدرته على رمي السهام أيضاً، فلم يعد بمقدور الناس التمييز بينهما.

تمازجت قصص وصور مختلفة خلال عملية التناقل والتحول تلك، فتحوّلت الأساطير والخرافات الصينية من كونها قصصاً مستقلة ومتشرذمة إلى نظام موحد. وعملية الدمج التي رأيناها في قصص تشانغه وهو يي والملكة الأم الغربية أمثلة على هذه العملية. ومن الأمثلة الأخرى، أسطورة الحكام السماويين الخمسة؛ الإمبراطور هوانغ هو الحاكم الرئيس الذي يحظى بالمكانة العليا بينهم، بينما يساعده الحاكم الشرقي تاي هوا، والحاكم الجنوبي الإمبراطور، والحاكم الغربي شاو هاو، والحاكم الشمالي تشوان شو على إدارة شؤون البلاد. يحاول هذا الدمج أن يبني نسقاً موحداً من الأساطير.



الصورة 1-21 «تشانغه»، رسم من أعمال وو يو رو من حقبة سلالة تشينغ (نسخ تسنغ شو تسونغ)

بعد أن تناولت تشانغه الإكسير، أصبح جسمها أخف من الهواء، فطارت إلى القمر. وبعد أن فارقت هو يي أصبحت تشعر بالوحدة، ولذلك يعتبر القمر رمزاً للحزن والحنين إلى الوطن في الحضارة الصينية.

يمكننا أن نصل إلى نتيجة مفادها أن العصور الهمجية في الصين القديمة كانت تشمل أنظمة موحدة من الأساطير، ولكن تلك الأنظمة أصبحت طي النسيان تدريجياً مع تحضر المجتمع الإنساني. لذلك، يمكننا اعتبار عملية مزج الأساطير التي جرت في وثائق الأزمنة اللاحقة محاولة لإعادة نظام تام وموحد حول الحكام السماويين في الأساطير الصينية. وبالطبع، لا يمكننا أن نكون متيقنين من هذه النتيجة، ولا أن نستبعد إمكانية أنها لا تعدو عن كونها مجرد خيال تشوبه الأماني.

ساهمت الكثير من العوامل الأخرى في تغيير الأساطير والخرافات الصينية أثناء تناقلها. ولكن يمكننا القول إن هذا الإبداع الدائم والمستمر هو ما يمنح الأساطير الصينية حيويتها ويحفظها لها.



نزعة إنسانية دافقة

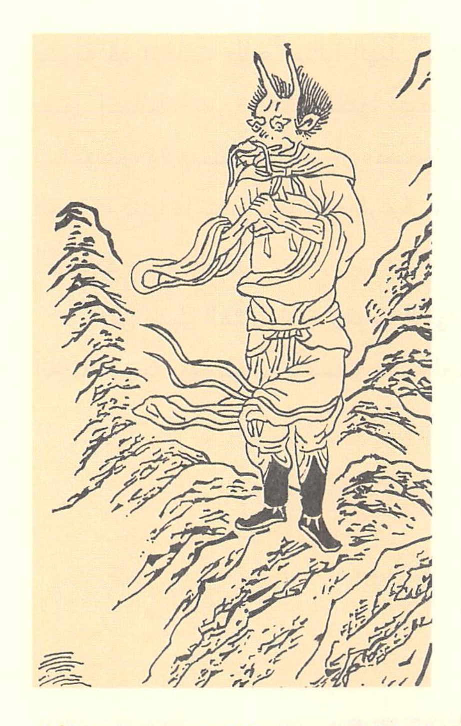
ما هي النزعة الإنسانية؟ بحسب مفهوم الحضارة الصينية التقليدية، ثمة تفسير قديم لمعنى النزعة الإنسانية في «كتاب التغيرات»، فإذا قلنا إن علم الفلك الصيني القديم تجليات لطاقتَي الين واليانغ وتغيراتهما في الطبيعة، فإن النزعة الإنسانية هي السعي إلى الحضارة من خلال اتباع طريقة القديسين في تعليم الناس. يمكننا أن نرجع بهذا التعريف للنزعة الإنسانية إلى الأساطير الصينية القديمة.

بحسب ما ورد عن الخلق في العهد القديم، استعملت كلمة الله عند الحديث عن خلق السماوات والأرض والبشر (الصورة 1-22). أما في الأساطير الصينية، فقد تم خلق العالم على يدَي بان قو، وبعد جهد جهيد. كانت ولادة بان قو ونموه بشريين للغاية؛ ما يعكس حيوية الكائنات البشرية عموماً. أما ما يُقال عن أن قواه الخارقة ومختلف أعضاء



الصورة 1-22 «خلق الشمس والقمر والنجوم»

بحسب ما ورد في العهد القديم: «وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل. وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين. وتكون أنواراً في جلد السماء لتنير على الارض. وكان كذلك. فعمل الله النورين العظيمين: النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم. وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة. ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان مساء وكان صباح يوماً رابعاً».



الصورة 1-23 «جي منغ»، «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب تشونغ تسي با» (نسخة وانغ) (نسخ تسنغ شو تسونغ)

جي منغ برأس تنين وجسم إنسان ومخالب طير، وهو إله جبل قوانغ والمطر، ولديه القدرة على خلق المطر والضباب. تجمع صورة جي منغ بين خصائص الكثير من الحيوانات، وتندمج مع الطبيعة. ولعل صورة الملك التنين التي وردت في أساطير لاحقة مقتبسة من صورة جي منغ.

جسمه قد تحولت إلى أشياء في العالم فيمكننا أن نراه كتفسير للطبيعة قام به الشعب الصيني القديم، حيث كانوا يقارنون أنفسهم مع الطبيعة.

ومع قيام الصينيين بالنظر إلى العالم بحسب ارتباطه بهم، تمكنوا من دمج الطبيعة الإنسانية مع الطبيعة نفسها ليشكل ذلك رؤية للإنسان كجزء لا يتجزأ من الطبيعة. وتحت تأثير هذا الوعي، لم ينظروا إلى الطبيعة كشيء محض حسي فيزيائي، بل اعتبروها مترابطة ومندمجة مع حياة البشر. وفي الخرافات والأساطير الصينية، لم تكن صور الآلهة بشرية بشكل بحت كما هو الحال في الأساطير اليونانية القديمة، بل كانت مزيجاً من البشر والحيوانات (الصورة 1-23). إن هذه الظاهرة هي نتيجة كون الصينيين قد دمجوا بين الإنسان والطبيعة، بينما قام اليونانيون القدامى برسم حدود واضحة بينهما.

يقدس الشعب الصيني الطبيعة، وهي بالنسبة إليه ليست عديمة الرحمة أو العطف على الإنسان، بل هي كريمة وعطوف. ويرى الصينيون أنه يجب على المجتمع الإنساني والنزعة الإنسانية أن يؤسسا بحسب قوانين الطبيعة، فلا يجب أن يكون الإنسان متوحشاً أو فظ الأخلاق، بل عليه أن يكون متحضراً ومتحلياً بالفضائل. لذلك، وبما أن النزعة الإنسانية هي الحد الفاصل بين الهمجية والحضارة، فهي قوة ترتكز على الناس، وقد تولّدت هذه الروحية لدى الناس في عصر الأساطير. ففي الأساطير الصينية، تمتاز الآلهة القوية بكونها شخصيات نبيلة تساعد البشر، بل هي أقرب إلى أن تكون شخصيات



بشرية قد اتخذت طابعاً مثالياً إلهياً. أما في الأساطير اليونانية القديمة، فتظهر الآلهة بصور إنسانية (الصورة 1-24) ولكنها تهيمن على الناس وتستبد بمصائرهم من دون أن تساعدهم، ولا يستطيع الناس أن يصبحوا آلهة أبداً. كما أن الآلهة في الأساطير اليونانية القديمة كثيراً ما تتصرف بدوافع الرغبات، وتخدع البشر، بل وتحوّل النزاعات في ما بينها إلى حروب بين البشر.

على سبيل المثال، أدت رغبات الآلهة اليونانية الأنانية إلى مأساة بروميثيوس، كما أثارت تضحية بروميثيوس بنفسه ومحبته لجميع البشر تعاطف الأجيال التالية. وبالمقابل،

الصورة 1-24 «زيوس وهيرا على جبل إيدا»

يظهر الإلهان اليونانيان القديمان زيوس وهيرا بصورة إنسانية، ويبدو جسداهما مكتنزين، ويرافقهما في هذه الصورة ملاكان. يتّبع هذا الرسم الميول الجمالية المعتمدة في القرن الثامن عشر. ويرمز النسر الأسود في الخلفية إلى سلطة زيوس؛ إله الرعد والبرق عند اليونانيين القدماء.



إن الكثير من الآلهة في الأساطير الصينية تكرس نفسها لمصلحة البشر، وبالمقارنة مع إسهامات نيوي وا وهو يي ويوي العظيم، فإن إنجازات جيويه بو تظل مغمورة نسبياً.

لعل «ترويض» النار أهم حدث في تاريخ الحضارة الإنسانية. ويحفظ لنا كتاب «هانفيتسي» أسطورة عن قيام سوي رن بصنع النار من خلال القدح في الخشب. كما يتضمن كتاب «حوليات الربيع والخريف» أساطير حول قيام إيبو، ابن الإمبراطور دي كو، بسرقة نار السماء لطهي الطعام. إيبو إله أرسله إله السماء لحكم منطقة تدعى شانغتشيوي، وكان أيضاً يتولى أمر نجم شانغ. حين أتى إيبو إلى الأرض وجد الناس يأكلون اللحم النيء ويشربون الدم، وعندما يحل الليل كانوا يزحفون في الظلام. لذلك قرر إيبو أن يسرق نار السماء، فحصل عليها، ولكنه لم يتمكن من السيطرة عليها ولا من إخفاء لهيبها، فقام بجلب حبل من القش من الأرض وأشعل به نار السماء، ثم بعد ذلك أطفأ النار المشتعلة في السماء فيما ترك النار مشتعلة على الحبل، وأخفى الحبل في ملابسه، وجلب النار مصدر النور والدفء في الأرض. عندئذ، بدأ الناس باستخدام نار الفحم النباتي، وبدأوا بتناول الطعام المطهي، والاستمتاع بدفء المشاعل ونورها في الليل.

تشبه هذه الأسطورة أسطورة بروميثيوس في بعض جوانبها، ولكن حين سرق بروميثيوس النار غضب عليه زيوس وقيده على جرف في جبال القوقاز. وفي كل يوم، قام نسر بالتهام كبده قبل أن ينمو كبد جديد مكانه، ولم يتخلص من هذا العذاب إلا بعد آلاف السنين؛ حين أنقذه هرقل وأصاب النسر بسهامه (الصورة 1-25). تعرض إيبو أيضاً لعقوبة الآلهة نتيجة سرقته لنار السماء، فأرسلت طوفاناً عارماً دمر القرى وقتل الناس، وأطفأت الكثير من النيران. ولكن لينقذ إيبو آخر شعلة، ظل على منصة أقيمت لعبادة نجم شانغ. وحين انحسر الطوفان، أتى الناس إلى المنصة فوجدوا إيبو ميتاً والشعلة الأخيرة تتوهج بين ذراعيه. تم بناء منصة إيبو في شانغتشيوي، خهنان، لتخليد ذكرى البطل العظيم الذي ضحّى بنفسه لجلب النور والدفء للناس.

ثمة قصة مشابهة عن قون، البطل العظيم الذي روّض الأنهار. فبحسب ما ذكره كل من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار» و«هواينانتسي» و«تيانون» و«الكتاب المرجعي في التاريخ» وكتاب «منشيوس»، كانت الطوفانات أثناء حكم شون مدمرة، فاستخدم قون تربة سحرية من السماء لإيقاف الماء، ولكن من دون أن يحصل على إذن



(في الأعلى) الصورة 1-25 «هرقل يحرر بروميثيوس»، لوحة تزيينية على علبة من البرونز، إتروريا، القرن الخامس قبل الميلاد

بروميثيوس واحد من الآلهة العمالقة الأربعة، ويعني اسمه: «الرؤية التنبؤية». إن عادة إشعال النار في الألعاب الأولمبية مصدرها أسطورة قيام بروميثيوس بسرقة النار المقدسة. وفي الأزمنة الحديثة، لا تزال هذه العادة مستمرة عبر تتابع حمل الشعلة الأولمبية.

(إلى اليسار) الصورة 1-26 تمثال «سرقة التربة المقدسة»، حديقة يوي العظيم في ووهان، مقاطعة هوبي (تصوير فنغ شياو لي)

طلب الإمبراطور شون من قون أن يسيطرُ على طوفان عارم وقوي، فحاول قون عبثاً إيقاف الطوفان باستعمال التراب، إلى أن اقترحت عليه سلحفاة وبومة أن يسرق التربة المقدسة من الإله ليتمكن من السيطرة على الطوفان. يُظهِر النحت قون- البطل المأساوي- وهو يسرق التربة ويحملها إلى موقع الطوفان.

من الإله (الصورة 1-26). كانت تلك التربة تنمو بنفسها، والقليل منها بإمكانه أن يتحول إلى سد عظيم يوقف الطوفان. بعد ذلك، طلب الإله من تشو رونغ أن يقتل قون في يويجياو، ولكن قبل ذلك كان قون قد أنجب يوي، فطلب الإله من يوي أن يسيطر على الطوفان بالتربة السماوية. كان يوي مخلصاً في عمله، لدرجة أنه لم يكن يذهب إلى منزله حتى لو مر بجانبه، وعندما كان عليه فتح مسار في جبل شوانيوان تحول إلى دب، فرأته زوجته في هذه الصورة وشعرت بالإهانة إلى درجة أنها تحولت إلى حجر، ثم انفلق الحجر وخرج منه شيا تشي. في نهاية الأمر، سيطر يوي على الطوفان من خلال شق الأنهار. ونحن اليوم نعلم طبعاً أن محاولة السيطرة على طوفان من خلال بناء سد طيني يمكن أن تكون أمراً مدمراً. وقد قتل الإله قون نتيجة خطئه الفادح هذا. لكن مقتل



قون وهو يواجه الطوفان وتضحيته بنفسه جعلاه ينال الكثير من التعاطف من الناس في الأجيال التالية.

لقد أُنقِذَ بروميثيوس في نهاية الأمر، أما الآلهة الصينية التي كانت تسرق لمصلحة الإنسان فقد كانت تعاقب بالموت. ويمكننا من خلال هذا تكوين فكرة عن فهم الشعب الصيني القديم لمبدأ العدالة؛ وهي أن الرغبة في مساعدة الناس والطرائق التي تعتمد لتقديم تلك المساعدة ينبغي أن تتوافق مع مبدأ العدالة. إن التركيز على الفضيلة والعدالة هو رمزُ الثقافة الأخلاقية الصينية؛ بخلاف الثقافة اليونانية القديمة التي ركزت على التوسع والهيمنة على الطبيعة والحكمة، حتى لو كان ذلك على حساب الفضيلة. لقد حولت ثقافة الصين الأخلاقية مراسيم الآلهة إلى وعي أخلاقي يروّج لقيم العدالة، وبذلك وجد الصينيون القدامى وسيلة للسمو الباطني؛ إن روح النزعة الإنسانية السائدة في الأساطير والخرافات الصينية تلهم قارئيها والمستمعين إليها للتحلي بقيم الإيثار والإحساس بالمسؤولية الفردية عن القيم الكلية الكونية.



الأساطير والخرافات الصينية

الفصل الثاني

استكشاف الرغبة اللامتناهية
– أساطير الانفصال بين السماء والأرض والإحيائية

| أساطير الانفصال بين السماء والأرض

تفسر الفيزياء الحديثة بداية الكون بنظرية الانفجار الكبير، ويسمي العلماء ما سبق الانفجار الكبير بحالة من التفرد (Singularity) لا يمكننا إدراكها بالحواس، ولا توجد إلا بشكل نظري. أما الصينيون القدامى فقد أطلقوا على الشيء الذي كان قبل أصل الكون اسم «هوندون»، وشبهوه بجيب من دون ثقب ولا شيء فيه؛ لا السماء ولا الأرض ولا النور ولا الظلمة، ولكنه يحتوي على جميع الأشياء، أي أنه يشبه في خصائصه ما سمته الفيزياء الحديثة «بحالة التفرد».

توجد قصة عن هوندون سجّلها لنا كتاب تشوانغ تسي. كان هوندون هو الإمبراطور السماوي الأساسي (الصورة 2-1)، وكان بدون فتحات الجسم السبع (العينان والمنخران والأذنان والفم)، فكان غريب المظهر بالفعل. كان لهوندون صديقان عزيزان: شو الإمبراطور السماوي على البحر الجنوبي، وهو الإمبراطور السماوي على البحر الشمالي. وكثيراً ما كان شو وهو يزوران هوندون الذي كان يستقبلهما بكرم ضيافة وذوق



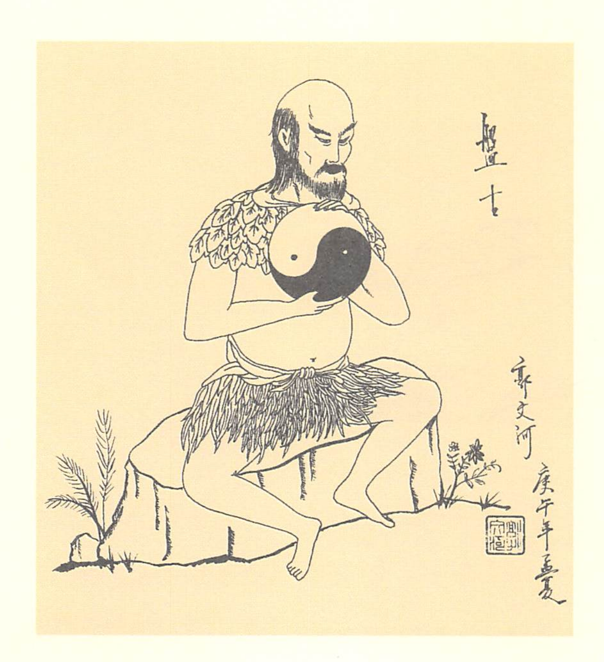
الصورة 2-1 «دي جيانغ، أو إله الفوضى»، من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب شي تسي سان» (نسخة جيانغ)

بحسب «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار»، دي جيانغ طائر خالد على شكل كيس أحمر، ليست له عينان ولا أذنان ولا فم ولا منخر، ولكن لديه ست أقدام وأربعة أجنحة، ويعرف كيف يغني ويرقص. وبحسب كتاب «تشوانغ تسي: يينغ دي وانغ»، لم يعد دي جيانغ طائراً خالداً، بل أصبح إله الفوضى، ولديه مشاعر إنسانية ولكن ليس له شكل إنساني.

رفيع، فشعر الإمبراطوران بالامتنان إلى درجة أنهما قررا أن يفعلا شيئاً ما ليردا الجميل لمضيفهما، واتفقا سراً على مساعدته على فتح ثقوب جسمه السبعة، حيث يصبح مثل الجميع. وحين عرضا الفكرة على هوندون، سرعان ما وافق. استغرق فتح هذه الثقوب السبعة سبعة أيام، ولكن هوندون مات نتيجة لذلك.

لا شك في أن هوندون مفهوم متعالٍ على الواقع استحدثه القدامى كي يقرّبوا كيفية نشأة الكون إلى مخيلاتهم، فموت هوندون كان يعني أن الكون أصبح على وشك أن يولد. وبالفعل، تستمر الأسطورة لتقول إنه بعد وفاة هوندون، نشأ إله يدعى بان قو (الصورة 2-2) داخله، وأصبح هو بطل أسطورة فصل السماء عن الأرض في التراث الصيني القديم.

في كتاب «سان وو لي جي» الذي جمعه شو تشنغ في حقبة الممالك الثلاث، شُبِّه هوندون ببيضة ضخمة في ظلمة تامة لا رأس لها ولا قعر، ولا شمس فيها ولا قمر ولا نجوم. لم يكن بان قو يأكل أو يشرب وهو في بطن هوندون، بل كان نائماً على الدوام فقط. فجأة، وبعد ذلك بثمانية عشر ألف سنة، استيقظ بان قو فوجد نفسه في ظلمة

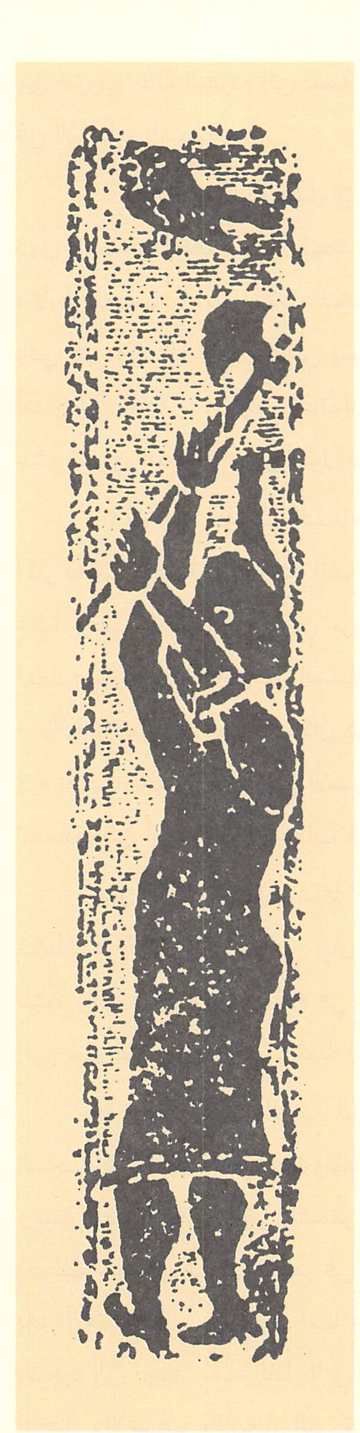


الصورة 2-2 «بان قو»، رسم قوه ون خه

بان قو عملاق ولد أثناء عملية خلق السماء والأرض، وقد أزال الفوضى وحوّلها إلى السماء والأرض، فتحولت أعضاء جسمه إلى جميع الأشياء على الأرض، أو ما يسمى «تاي تشي». وينقسم «تاي تشي» بدوره إلى الين واليانغ، ويدور الين واليانغ في دائرة تتسبب في تعاقب الفصول الأربعة. تظهر هذه الصورة بان قو وهو يحمل «تاي تشي»؛ وهو رمز يظهر كثيراً في الصور، ويتداول الصينيون مثلاً قديماً يقول: «يدخل تاي تشي في حيز الوجود حين يحمل بان قو السمكة».

تامة. أراد أن يتمدد، ولكنه لم يتمكن من الحركة، فشعر بالإحباط ثم بالغضب الشديد، وما كان منه إلا أن حمل فأساً خرج بها من لا مكان (الصورة 2-3) ثم ضرب بقوة في الظلمات، فتبع ذلك صوت مثل انهيار الجبال وتشقق الأرض. لقد تصدعت البيضة العملاقة وتفتحت على النور، وسرت أنفاس من الهواء النقي من البيضة، وتصاعدت لتتحول إلى السماء. أما الأشياء القاتمة فترسبت وتحوّلت إلى الأرض، وشعر بان قو بنور أقوى وأشد سطوعاً أمام عينيه؛ لقد ذاب هوندون واندمج في السماء والأرض؛ وهكذا وُلِد الكون.

لا شك في أن قصة خلق العالم هذه تختلف عما ورد في سفر التكوين في العهد القديم. ففي العهد القديم يقول الله: «ليكن هناك نور»، أما وفق هذه القصة فقد مر بان قو بعملية صعبة وكبيرة. وبحسب فهم الشعب الصيني، إن النمط الأصلي لخلق الكون ينعكس إلى حد كبير في أسطورة بان قو، حيث تحوّلت صورة هوندون- وهو ضرب



الصورة 2-3 بان قو يخلق العالم، رسم على الورق بالفرك على نقش حجري في نيانيانغ، مقاطعة خهنان

اعتقد الناس أن بان قو ظهر للمرة الأولى في كتابين تم تأليفهما في القرن الثالث الميلادي: «سان وو لي جي» و«وو يون لي نيان جي». ومع تطور مجال علم الآثار الصينية، أشار الباحثون إلى وجود رسوم ونقوش لبان قو في سيتشوان تعود إلى عام 194 م.



من ضروب حالة التفرد- إلى بيضة كونية. ومفهوم البيضة هذا من الصور المتكررة كثيراً في الأساطير الصينية.

بعد قيام بان قو بالفصل بين السماء والأرض باستعمال فأسه العريضة، وليحول دون اندماجهما معاً مجدداً فتعيد الروح في هوندون الأصلي، قام بالفصل بين السماء والأرض بجسمه، حيث كانت السماء البيضاء فوق رأسه والأرض السوداء تحت قدميه. وفي كل يوم، كان الهواء النقي يستمر بالارتفاع إلى الأعلى، فكانت السماء ترتفع عشر أقدام إلى الأعلى، والأرض القاتمة تستمر بالنزول إلى الأسفل فتزداد سماكتها بمقدار عشر أقدام، فيصبح بان قو أطول بعشر أقدام.

بما أن المسافة بين السماء والأرض استمرت بالازدياد، ظل جسم بان قو يطول أكثر فأكثر. وبعد ثمانية عشر ألف سنة بلغ طوله تسعين ألف لي، وامتد جسمه وارتفع عالياً. وأصبحت السماء والأرض عريضتين وعميقتين في تلك اللحظة بسبب دعم بان قو لهما، وصار البناء القائم بين السماء والأرض متيناً إلى درجة أن بان قو لم يعد يقلق من إمكانية اندماجهما معاً. فقد كان هو وحده العمود الذي قام عليه هيكل الكون، وقد نال منه التعب، وصار بحاجة إلى الاستراحة من مهمته الشاقة. وفي نهاية الأمر، انهار جسمه العملاق إلى أسفل الأرض، ومات في نومه.

تحمل بان قو مهمات شاقة طوال حياته، واستمر في نفع العالم حتى بعد مماته. فكما يذكر كتاب «وو يون لي نيان جي» الذي ألّفه شو تشنغ، حين تهاوى جسم بان قو سقط رأسه في الشرق وقدماه في الغرب، فتحول رأسه إلى جبل تاي في الشرق، وقدماه إلى جبل هنغ في الغرب، وبطنه إلى جبل سونغ في الوسط. (الصورة 2-4)

كما تحول النفس الأخير الذي خرج من فمه إلى رياح الفصول الأربعة، وإلى السحب في السماء بجيشانها وطفوها في الهواء. أما صوته فقد تحول إلى الرعد الهادر، وعينه اليسرى تحوّلت إلى الشمس في النهار التي تشع وتتوهج على سطح الأرض، فيما تحوّلت عينه اليمنى إلى القمر في الليل بأشعته المنعشة والمنسكبة لتقشع الظلام على بعد آلاف الأميال. وتحوّلت أسنانه إلى الحجارة والمعادن البرّاقة ذات الضوء الأبيض، وشعره إلى نجوم سماء الليل التي لا تحصى بضوئها الخافت الجميل. وتحول جلده إلى الأزهار والأعشاب والأشجار التي تزين الأرض وتمنح الإنسان السعادة والبهجة. أما دمه



الصورة 2-4 «خريطة الجبال المقدسة الخمسة»، في جبل هوانشان، مقاطعة شانشي (تصوير فنغ شياو لي)

يرجع أصل عبادة الجبال المقدسة الخمسة إلى أسطورة بان قو، وهي مزيج من عبادة آلهة الجبل ومفهوم العناصر الخمسة وتقاليد التتويج. وأعظم الجبال الخمسة هو جبل تايشان- أو القمة الشرقية- ويقع في تايآن، شاندونغ. أما جبل هواشان- أو القمة الغربية- فيقع في هوايين، شانشي. بينما يقع هنغشان- أو القمة الجنوبية- في هونان. ويقع جبل هنغشان- أو القمة الشمالية- في هونيوان، شانشي. أما جبل سونغشان- أو القمة الوسطى- فيقع في دنغفنغ، خهنان. وتستخدم هذه الخريطة من قبل الطاويين كتعويذة لاستجلاب حسن الطالع ودفع المصائب.





الصورة 2-5 راهب من عرق ياو؛ في 13 تشرين الثاني 2008 أقيم مهرجان الصين العاشر لبان قو في ليانشان، مقاطعة قوانغدونغ (تصوير شياو ليانغ هوا)

يحمل مهرجان بان قو أهمية خاصة بالنسبة إلى عرق ياو. في 16 تشرين الأول من التقويم القمري، يرتدي أبناء هذه المجموعة العرقية أفضل ثيابهم، ويرقصون ويغنون معاً للاحتفال بمهرجان بان قو. تُدعى الأغنية التي يغنونها: «أغنية بان قو»، وهم يرقصون في مجموعات بينما يحملون طبولاً يبلغ طول الواحد منها ثمانين سنتمتراً.

فقد أصبح الأنهار والبحيرات والبحار بتموجها الدائم، وعضلاته أصبحت التربة الخصبة الممتدة على مسافة آلاف الأميال حيث تنمو فيها جميع أشكال الحياة البرية. أما عظامه ونخاعها فقد تحوّلت إلى اللؤلؤ والجاد، في حين أن أوتار عضلاته أصبحت طرقات تتقاطع معاً، وتحوّل عرقه إلى المطر والندى المنعش للبذور.

في أساطير شمال أوروبا، يتحول عملاق جليدي إلى العالم بعد موته. فبعد أن قتل الإله أودين عملاق الجليد ذاك، خلق الأرض من لحمه، والمحيطات من دمه وعرقه، والأعشاب والأشجار من شعره. إن هذه الأساطير حول تحوّل أجسام الآلهة والعمالقة إلى جميع الأشياء هي في الواقع تشخيص لخيالات القدامى حول الكون. والفرق الوحيد بين الأسطورتين اللتين رويناهما هو أن عملاق الجليد يمثل الشر، أما بان قو فقد كان يجسد الإخلاص والتفاني في نفع العالم.

انتشرت أسطورة بان قو بشكل كبير، وقد عبد شعب ياو بان قو (الصورة 2-5) بإخلاص شديد، وسمّوه الملك بان، واعتقدوا أن الولادة والموت وطول العمر والفقر بين الناس جميعها أمور يقررها هو. وكانوا يهرعون في أي وقت يحصل فيه جفاف إلى

عبادة الملك بان، حاملين تمثاله بين الحقول لحماية المحاصيل. كما كان شعب مياو يغني أغاني من «كتاب بان» تشبه في مضمونها سفر التكوين في العهد القديم، فتقول تلك الأغاني إن الملك بان هو خالق مختلف الحضارات والأدوات. وكذلك بحسب بعض الأساطير، كان قبر بان قو في البحر الجنوبي يمتد لثلاثمئة لي، وقد استخدم لدفن روحه، أما في بلد بان فقد كان جميع الناس يحملون الاسم العائلي: بان قو. حتى في يومنا هذا، نجد أماكن تُدعى جبل بان قو، ومعبد بان قو في شتى أرجاء الصين. تتضمن الأوبرا الصينية التي تدعى نوه والمنتشرة في مقاطعات آنهوي وجيانغشي وهوبي وخهنان وسيتشوان وقويتشو وشانشي وخهبي على استعراضاً فنياً باسم انفصال السماء والأرض (الصورة 2-6)، وتروي أسطورة بان قو. وهكذا، نرى أن الشعب الصيني لم يتوقف عن عبادة سلفه العظيم بان قو، وأن أسطورة انفصال السماء عن الأرض، مع ما تحمله من مواقف تدل على إخلاصه وعمله الجاد، قد مرت من جيل إلى آخر.



الصورة 2-6 «خلق العالم»، أوبرا نوه (تصوير غوه هونغ)

في هذه الصورة، يرتدي مزارع قناع بان قو، ويحمل فأساً عريضة ليمثل قصة خلق بان قو للعالم. تعود نشأة أوبرا نوه إلى زمن بعيد، ففي الفترة السابقة لحقبة سلالة تشين، كان الناس يغنون أغاني السحرة ويرقصون رقصات نوه. وفي وقت لاحق، امتزجت الطقوس مع الأوبرا الشعبية لتشكل أوبرا نوه. وخلال عهد الإمبراطور كانغ شي من سلالة تشينغ، دخلت أوبرا نوه القسم الجنوبي من مقاطعة هونان، وتطورت بسرعة عبر نهر يانغتسه لتتفرع إلى مدارس وأساليب أداء مختلفة.



أساطير السماء المستديرة والأرض المربعة

تخيّل الصينيون القدامى المساحة المكانية التي يعيشون فيها- أي الكون- بأنها تتألف من سماء مستديرة وأرض مربعة. ويمكننا أن نستخرج بعض أوجه الشبه بين هذا التصور والسلحفاة، فدرع السلحفاة المقوسة العلوية تشبه السماء، أما درعها السفلية المسطحة والعريضة فتشبه الأرض. لعبت السلحفاة في الكثير من الحضارات دوراً مهماً في بيان ماهية المكان. فعلى سبيل المثال، اعتبر الهنود القدامى أن الأرض كانت عبارة عن نصف دائرة ضخمة يحملها أربعة فيلة على ظهورهم، بينما كان الفيلة الأربعة تقف على ظهر سلحفاة عملاقة تسبح في المحيط. في الحقيقة، إن طبيعة السلحفاة البرمائية تربط بين اليابسة والمحيط، ويعتبر الكثير من الناس أن عمرها الطويل يجسد سرمدية الكون.

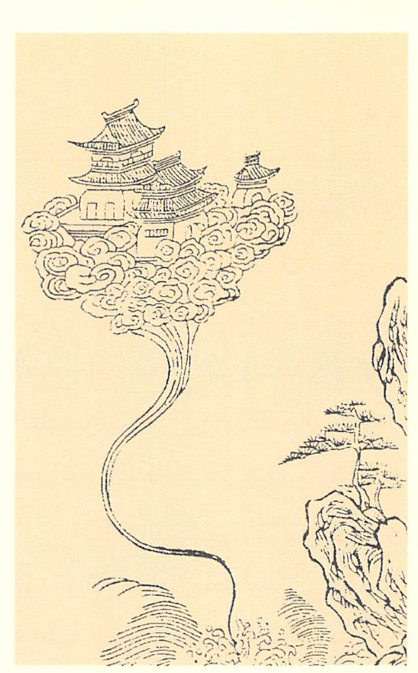


الصورة 2-7 «السلحفاة الخالدة تخرج من البحر»، نحت بارز، رواق خارج القاعة الرئيسة في معبد كونفوشيوس في منطقة جيا، مقاطعة خهنان (تصوير نيه مينغ)

للسلحفاة في هذا النحت البارز رأس تنين وذيل أفعى، ودرع ذات أشكال نجوم فيها. عادة، يُطلَق اسم «شوانوو» على هذه السلحفاة، وهي مخلوق سحري يجمع بين صفات السلاحف والأفاعي. وتعني كلمة «شوان»: الأسود، بينما كان الحرف «وو» يلفظ على أنه «مينغ» في العصور القديمة، والذي يعني: الين. وبما أن السلاحف تطفو على سطح البحر، ودرعها تشبه اليابسة، يُقارن الكثير من الناس بين اليابسة والسلاحف، ويستخدمون رمز السلاحف لتفسير الظواهر المكانية.

ابتكر سكان الصين القديمة أساطير رومانطيقية، مستخدمين خيالهم الخصب وتفكيرهم التناظري، ومن الأمثلة على ذلك: أسطورة السلحفاة التي تحمل جبلاً مقدساً، أو حتى الأرض نفسها. ويمكننا أن نرى هذه الصورة تتكرر في الكثير من الحضارات، حتى إن الباحثين في هذا المجال يسمونها «الأرض على ظهر سلحفاة». (الصورة 2-7)

كذلك سجّل كتاب «ليه تسي: أسئلة تانغ» أسطورة السلحفاة التي تحمل الجبل. أما «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار» فقد اعتبر أن الأرض مجموعة من المربعات متحدة المركز، ويوجد المحيط خارج الأرض، كما توجد خمسة جبال مقدسة تطفو على سطح البحر الشرقي وتشمل دايو ويوانتشياو وفانغتشانغ ويينغتشو وبنغلاي (الصورة 2-8) حيث يعيش الخالدون في الأساطير والخرافات الصينية. كما قيل إن طول الواحد من هذه الجبال ثلاثين ألف لي، ويعيش فيها الخالدون، وإن لكل واحد من الخالدين أجنحة مثل الملائكة في الأساطير الغربية؛ حيث يطير كل منهم ذهاباً وإياباً بين مختلف الجبال والجزر، وكذلك تحتوي هذه الجبال المقدسة على أشجار لؤلؤ براقة وأشجار مقدسة تطرح ثمار الخلود، أما منازل الخالدين فمصنوعة من الذهب الخالص.

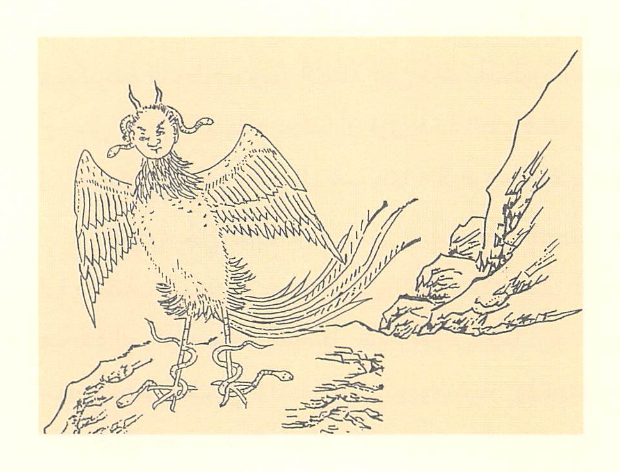


الصورة 2-8 «جبل بنغلاي»، «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب حول شمال البلاد (نسخة جيانغ)

يُقال إن الإمبراطور تشين شي هوانغ وبعد نجاحه في توحيد البلاد ذهب إلى المناطق المجاورة للبحر بحثاً على الإكسير، حيث رأى جزيرة للخالدين عند طرف البحر، وطلب من خيميائي أن يعلمه اسمها. لم يعرف الخيميائي ما يقوله، ولكنه رأى بعض الحشائش الطافية على سطح البحر، فأجاب: بنغلاي، أي الأعشاب. وفي هذا الرسم، تطفو الجزيرة على سطح البحر مثل مكان تحيى الآلهة فيه.

لكن هذه الجبال المقدسة الخمسة- نظراً إلى كونها تطفو على سطح البحر- تتحرك وتهتز بشكل دائم بسبب الرياح والأمواج، وقد أزعج هذا الأمر الخالدين كثيراً، لذا طلب إمبراطور السماء من يوي جيانغ (الصورة 2-9)، إله البحر الشمالي، أن يرسل خمس عشرة سلحفاة عملاقة لتشكل دعامات للجبال





الصورة 2-9 «يوي جيانغ»، من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب حول شمال داهوانغ» (نسخة جيانغ) (نسخ تسنغ شو تسونغ) *******(ملاحظة لمركب الكتاب: سميت الصورة 2-8 خطأ لذا يرجى تصحيحها وحذف الملاحظة المظللة بالأصفر)******

يوي جيانغ إله البحر الشمالي، وابن يوي قوه إله البحر الشرقي. كان له وجه إنسان وجسم طائر وقد تعلقت حيّتان زرقاوان بأذنيه، كما أنه يقف على حيّتين أخريين. يُقال إنّ الرياح الشمالية الغربية تهب من يوي جيانغ ويمكنها أن تنشر الطاعون، لذا يُطلق الصينيون القدامى على هذه الرياح أيضاً اسم «الرياح العاصفة».

المقدسة الخمسة. وقسّمت السلاحف نفسها إلى مجموعات، تحمل إحداها الجبل بينما تقف اثنتان بجانبها، حيث تتبادل الأدوار كل ستين ألف سنة.

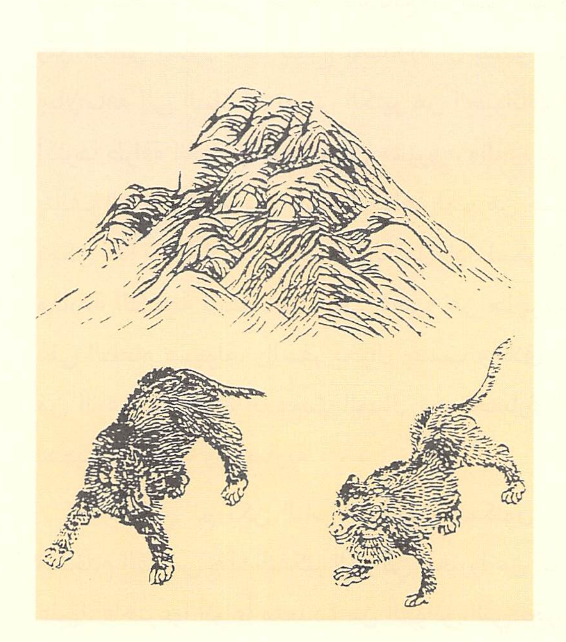
في وقت لاحق، أمسك عملاق من بلاد لونغبو بالسلاحف الست الموجودة تحت جبلَي دايوي ويوانتشياو، وحرق صدفتيهما من أجل القيام بطقوس تنجيم، فتحرك الجبلان المقدسان نحو القطب الشمالي وغرقا في المحيط، واضطر مئات الملايين من الخالدين القاطنين فيهما إلى الانتقال إلى الجبال الثلاثة الأخرى. وقد أدّى هذا العمل إلى غضب إمبراطور السماء، فلعَن شعب لونغبو، وما عادوا قادرين على اصطياد السلحفاة العملاقة.

اعتقد الصينيون القدامى أن الأرض مربعة، واعتبروا أن جهات الأرض الأربع هي في الواقع أبعاد أربعة لهذا المربع، بل وأطلقوا اسماً مختلفاً على كل من هذه الأبعاد. فالجهة الشمالية الشرقية تدعى باوده، أما الجنوبية الشرقية فتدعى تشانغيانغ، في حين أن الجنوبية الغربية تدعى بيبانغ، أما الشمالية الغربية فتدعى تيتونغ. وفي كل من هذه الجهات، توجد جبال تربط الأرض بالسماء، وسُمِّيت جبال الأرض الشاهقة الثمانية بأعمدة السماء؛ أي أنها تحفظ السماء من السقوط على الأرض. ولكننا اليوم لا نعرف من أسماء الجبال الثمانية إلا جبل بوتشو (الصورة 2-10) وجبل كونلون.

وبحسب ما روته الأساطير، شعر قونغ قونغ بالغضب بسبب إخفاقاته في حربه ضد زعيم القبيلة تشوان شو، فضرب جبل بوتشو برأسه. ولأنه كان بطلاً ذا قوة خارقة فقد

تحطم الجبل، ونظراً إلى أن ذلك الجبل كان من بين الحبال التي تربط السماء بالأرض فقد مالت السماء في الناحية الشمالية الغربية، فتحركت الشمس والقمر والنجوم في السماء إلى الناحية الشمالية الشرقية كما تتحرك قطرات المطر على سطح المظلة. لقد انهار طرف تشانغيانغ بسبب الجبل المنكسر، فانحدرت الأنهار والمياه والرمال التي كانت تتدفق في الأصل على الأرض المتوازنة والمسطحة الشبيهة بلوح الشطرنج إلى الجهة الجنوبية الشرقية، واندفعت الأنهار إلى البحر من الجهة الجنوبية الشرقية ليلاً ونهاراً، ولكن مستوى البحر لم يرتفع بسبب وجود وادٍ متصدع يدعى قويشو قد ظهر في طرف البحر الشرقي خلال هذه التغيرات العظمى بين السماء والأرض. تدفّق البحر إلى ذلك الوادي وتلاشى هناك، لذا بقي منسوب مياه البحر في مستواه الطبيعي.

إن أسطورة قيام قونغ قونغ بضرب جبل بوتشو من الأمثلة الكلاسيكية على استخدام الخرافة في تفسير الظواهر الجغرافية في السهول الوسطى في الصين القديمة. إذ تتميز تضاريس الصين بجانب شمالي غربي عالٍ وجنوبي شرقي منخفض، فتتدفق الأنهار من الغرب إلى الشرق. ولا شك في أن قصة قيام قونغ قونغ بالتسبب باضطراب التوازن الأصلي القائم بين السماء والأرض تُقدِّم تفسيراً أسطورياً لهذه الملحوظات الجغرافية.



الصورة 2-10 «جبل بوتشو ووحشان أصفران»، من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب غرب داهوانغ» (نسخة وانغ)

في الطرف الآخر من البحر الشمالي الغربي، ثمة جبل فيه فتحة كبيرة ويدعى بوتشو. يحمي الجبل وحشان أصفران. الكلمة «تشو» تعني «تام»، أما بوتشو فهي عكسها، أي تعني: غير تام. ويمثل هذا الجبل عدم الاكتمال والمصائب.



لكن لم يكن من الممكن للسماء والأرض أن يستمرا في الانحدار. لذا، إن أسطورة قيام نيوي وا بإصلاح السماء تقدِّم لنا قصة حول استعادة السماء والأرض لتوازنهما بعد جهد شاق.

بعد أن استكملت نيوي وا مهمتها الكبرى في إصلاح السماء، عادت لتنضم إلى عالم الآلهة- جبل كونلون (الصفحة 2-11)، وهو أحد أعمدة السماء التي ذكرناها. إن التبجيل الذي يحظى به جبل كونلون في الأساطير الصينية يماثل ما كان يحظى به جبل الأولمب في الأساطير اليونانية؛ فجبل كونلون هو مسكن الخالدين، كما هو الحال في الجبال المقدسة الخمسة الطافية على سطح البحر. وقد احتل جبل كونلون مكانة عالية في تاريخ الحضارة الصينية نظراً إلى كونه «أبا جميع الجبال»، وكذلك كان الصينيون القدامى يعتبرونه «نبض السلف التنين»، حتى إن ماو تسي دونغ الذي لم يكن مؤمناً بالغيبيات كتب قصيدة في مدح هذا الجبل: «يرسم كونلون السماء، ويأتي مثل تنانين الثلج».

اعتبرت هذه الأساطير أن علو جبل كونلون يصل إلى آلاف الأميال، وهو يحتوي على قصر للآلهة تم بناؤه هناك. أما النباتات رائعة الجمال التي تمتد عليه فتشمل نباتات سحرية تدعى إحداها «شاتانغ»، وتشبه ثمارها ثمار الخوخ ولكن بدون بذور. وأي شخص يتناول منها يصبح بمقدوره أن يطفو على سطح الماء ويسير على البحار. وبالإضافة إلى النباتات، تعيش الكثير من الحيوانات التي يمكن أكلها على الجبل. ومن أكثرها طرافة الحيوان الذي يدعى «شيرو»، والذي لم تكن لديه أي أطراف أو عظام، ولا يتألف إلا من اللحم؛ وإذا قطعت قطعة لحم من جسمه فسوف تعود لتنمو مجدداً، ولا يمكن أبداً استهلاك هذا الحيوان بالكامل. إذاً، تمكّن الصينيون القدامى الذين كان عليهم مقارعة الطبيعة للبقاء أحياء من التعبير عن حاجاتهم الإنسانية البسيطة مثل الحصول على الطعام بسهولة، والسفر بخيال خصب وخلاق بسهولة أيضاً. وخلال هذه المرحلة من الوعي الخرافي، اندمجت الجبال مع الحضارة الإنسانية لتصبح مقدسة من حيث أهميتها الثقافية والحضارية. (الصورة 2-12)

بالطبع، لم يكن الناس العاديون يتمكنون من التسلق إلى جبل كونلون، وقد استخدم القدامى هذا التفكير الخرافي ليعبّروا عن هذه الجغرافية التي يستحيل الوصول عليها، فاخترعوا أنواعاً متعددة من العوائق التي تحرس الجبل بجلاله المهيب، وابتدعوا

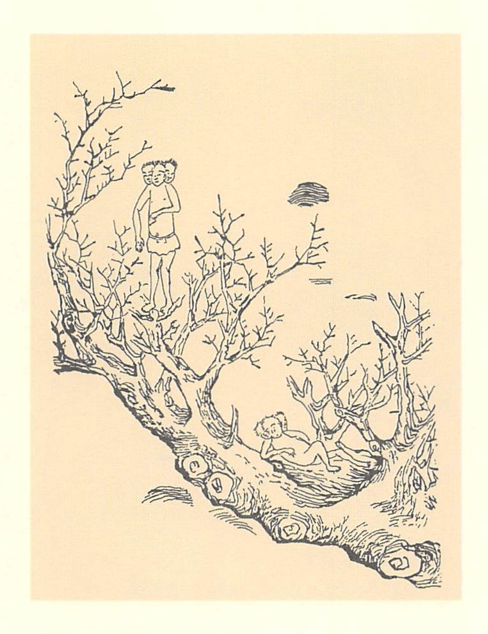


الصورة 2-11 جبل كونلون

جبل كونلون هو أكثر جبال الصين قداسة. وبحسب الأساطير، إنه موطن الملكة الأم الغربية والآلهة الأخرى. وثمة نظامان للأساطير الصينية: نظام كونلون ونظام بنغلاي. ويعتبر جبل كونلون مقدساً في الصين مثلما كان جبل الأولمب مقدساً في اليونان القديمة.

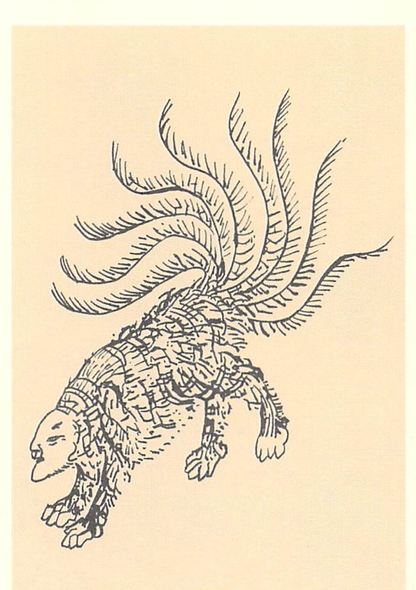


مثلاً بركاناً يتفجر مُصدِراً الكثير من الحمم، حيث يُغلِق الطريق المؤدي إلى جبل كونلون، وخلفه توجد هاوية ضخمة وتدعى روه شوي. لم يكن من الممكن لأي شيء أن يطفو في هذه الهاوية، فحتى أخف حبة غبار ستغرق في أسفل قعر تلك الهاوية إن وقعت فيها. وبالإضافة إلى هذين العائقين الطبيعيين يوجد إله يدعى لو وو (الصورة 2-13) ويعمل خادماً لدى الآلهة في الجبل. لهذا الإله وجه إنسان وجسم نمر ومخالب، بالإضافة إلى تسعة ذيول، وسيلتهم أي إنسان دخيل على الفور. لذا، لم يكن من الممكن إلا لساحر عظيم نال إذن الآلهة أن يدخل جبل كونلون.



الصورة 2-12 «شجرة لانغان والرجل ذو الرؤوس الثلاثة»، من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب حول غرب البلاد» (نسخة جيانغ) (نسخ تسنغ شو تسونغ)

يُقال إنه ثمة شجرة لانغان على جبل كونلون تنمو عليها حجارة مثل اللؤلؤ، ويحرسها رجال ذوو ثلاثة رؤوس وست عيون؛ حيث يتمكنون من النظر في جميع الاتجاهات وحماية هذه الحجارة من السرقة.



الصورة 2-13 «لو وو»، الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب شيتسيسان (نسخة وانغ) (تصوير تسنغ شو تسونغ)

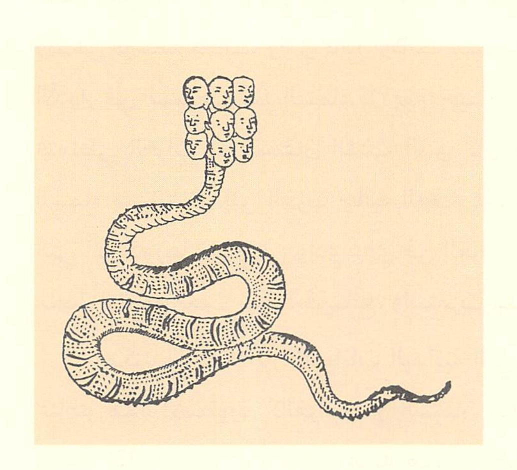
كان لو وو هو الإله الذي يحمي عاصمة الإمبراطور هوانغ على جبل كونلون. ويُقال إن مجموعة من الجن كانوا يعيشون حول لو وو، وكذلك مجموعة من الوحوش الخالدة والتي تدعى توليوي وتشبه الخراف ولكن لها أربعة قرون، كما أنها لم تكن عاشبة بل تلتهم البشر. وكانت هناك أيضاً طيور خالدة تدعى تشينيوان وتلدغ البشر مثل النحل، ولكن الواحدة منها كانت بحجم بطة ماندارين، فإذا لدغت أي كائن حي فسيموت فوراً.

| أساطير حول علم الفلك وعلم الأنساب

يمر الوقت مرور البرق، وتتغير الأشياء مع مروره. ولم تكن محاولة فهم القوانين التي تحكم سير الكون في الصين القديمة مجرد وسيلة مهمة في حفاظ البشر على حياتهم وتحسينها، بل كانت غاية في حد ذاتها. فحين نظر الناس إلى السماء، بدا لهم أن فهم الأسرار الكامنة في الجانب الآخر من تلك القبة الشاسعة الممتدة فوق رؤوسهم أمراً في غاية الصعوبة، فدغدغ ذلك الامتداد الكوني اللامتناهي مخيلاتهم، وأضفوا أهمية حضارية على الأرض التي يطأونها، وقسّموا السماوات إلى مناطق، وحاولوا استخراج معانٍ أكثر عمقاً للظواهر الفلكية والفصول الأربعة والزمن نفسه عبر الأساطير.

توجد أربعة تنانين مقدسة في الأساطير الصينية وهي: كوي وييبنغ وتشو وشيانغليو (الصورة 2-14) كما سجّل ذلك «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار». وتُقيم تلك التنانين في الجهات الأربع بين السماء والأرض. وبحسب التقويم الصيني الأصلي المبني على نظام نجم التنين، إن مواقع التنانين الأربعة تتماهى مع مواقع نجم التنين في كل فصل من فصول السنة. وهكذا، وجد الصينيون القدامى روابط سرية بين تغيّر الأبراج السماوية وفصول السنة الأرضية، ولكن بالطبع تظل هذا الروابط مبنية على الأساطير والخرافات.

في الوقت ذاته، قام الصينيون بتقسيم السماء المرئية لهم إلى تسع مناطق بهدف رصد الظواهر الكونية بسهولة أكبر، وأطلقوا على المنطقة الوسطى



الصورة 2-14 «شيانغليو»، الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب ما وراء البحار الشمالية (نسخة هو) (نسخ تسنغ شو تسونغ)

يدعى هذا الكائن أيضاً «شيانغليو»، وهو وزير قونغ قونغ. وكما هو ظاهر في الصورة، إنه وحش ذو تسعة رؤوس، ولكل من تلك الرؤوس وجه إنسان، وهي تلتقي جميعها في جسم أفعى. حينما يذهب هذا الكائن إلى أي مكان فإن الأرض تنهار أسفله، وتتشكل بدلاً منها أنهار وأراضٍ سبخة. بعد أن لاقى هذا المخلوق مصرعه على يدَي يوي العظيم، تدفقت دماؤه عبر التربة فأصبحت جدباء. عندها، حاول يوي العظيم أن يملأ الأرض بتربة جديدة ولكنها ظلت تنهار، فقام يوي العظيم بتحويل المنطقة إلى بركة، وبنى حولها منصة طويلة لحبس الشياطين هناك.

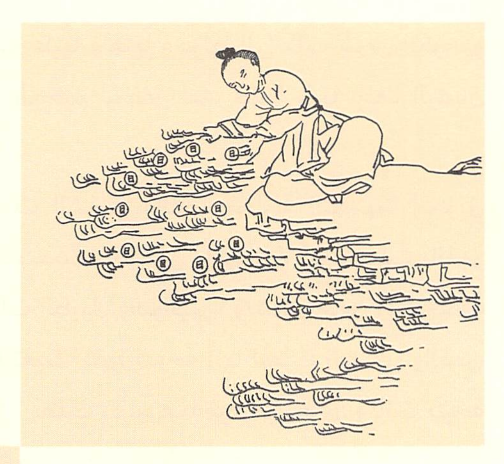


اسم جونتيان؛ والشرقية اسم تسانغتيان، والجنوبية اسم يانتيان، والغربية اسم هاوتيان، والشمالية اسم شوانتيان. وهناك أيضاً منطقة بيانتيان في الشمال الشرقي، ويانغتيان في الجنوب الشرقي، وتشوتيان في الجنوب الغربي، ويوتيان في الشمال الغربي. وبهذه الطريقة تعرّف القدامى على الأجسام السماوية من خلال تقسيم السماء، وانطلقوا في رحلة فيها عبر مخيلاتهم.

لا شك في أن الشمس هي أكثر الأجسام إنارة وإشراقاً في قبة السماء وفق ما تراه أعيننا المجردة. وقد قيل إن شي خه، زوجة الإله دي جون، هي التي أنجبت الشمس. في الواقع، لقد أنجبت شي خه عشر شموس إلى العالم في المياه الحلوة في البحر الشرقي، وقد عشقت أولادها كثيراً لدرجة أنها كانت تساعدهم على الاستحمام كل يوم (الصورة 2-15). كانت الشموس العشر ساخنة للغاية، فظلت تسبح في مرح في المياه التي كانت تغلي كلها وتتبخر بفعل الحرارة حتى اختفت آخر قطرة منها، وأعطى الناس المكان الذي كانت تقع فيه اسم وادي تانغ. كانت هناك شجرة باسقة يصل طولها إلى آلاف الأمتار وتدعى فوسانغ بجانب وادي تانغ، وكانت الشموس ترتاح هناك بعد استحمامها، وتتبادل الأدوار في السير في كبد السماء كل يوم؛ حيث تبدأ كل واحدة دورها من شجرة فوسانغ، فتمتطي الغراب ذا السيقان الثلاث الذي كان ينتظرها في أعلى الشجرة، وتطير في السماء من الشرق إلى الغرب جالبة الدفء للناس. وعند ساعة الغروب، كانت الشمس التي أتى دورها تجثم في وادي يوي في الغرب ثم تعود إلى وادي تانغ، فتغتسل غسلاً منعشاً وترتاح تحت شجرة فوسانغ، واستمرت الدورة بهذا الشكل.

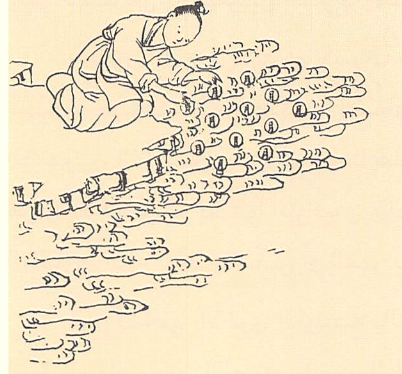
يمكننا أن نجد آثاراً للديانات البدائية التي تشمل عبادة طواطم الطيور في بعض عناصر هذه الأسطورة، كالغراب ذي السيقان الثلاث الحارس للسماء. هذا، وقد تحولت وسيلة نقل الشمس هذه إلى عربة مهولة الجمال في كتاب «هواينانتسي» الذي تم تأليفه في حقبة سلالة هان، حيث تقود شي خه، أم الشموس، العربة ناقلة أبناءها. ولا شك في أن هذه الصورة المستحدثة تحمل أوجه شبه مع صورة عربة إله الشمس أبولو في الأساطير اليونانية. والفرق هو أن عربة أبولو تسوقها أربعة خيول تنفث النار.

بالمقارنة مع هذه الأساطير الغنية والمفصلة حول حركة الشمس، لا نجد أساطير كافية عن القمر. وبحسب ما ذكره «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار»، أنجب الإله دي جون من زوجة أخرى له تدعى تشانغ شي اثنَي عشر قمراً. وكما هو الحال مع شي



الصورة 2-15 «شي خه تساعد الشموس على الاستحمام»، من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب حول جنوب داهوانغ» (نسخة وانغ) (نسخ تسنغ شو تسونغ)

بحسب الأساطير القديمة، كانت شي خه زوجة سيد السماء والإلهة التي أنجبت الشمس. لكن طرائق اللفظ المختلفة لاسمها جعلته يتحول أيضاً إلى إيهوانغ وتشانغشي، وسرعان ما أصبحت هذه الأسماء تدل على شخصيتين أخريين: فإيهوانغ أصبحت زوجة شون، وتشانغشي هي الإلهة التي أنجبت الأقمار وزوجة يي. وفي وقت لاحق، جعل الخيال الخصب الذي ولّد الأساطير تشانغ شي تطير إلى القمر لتتحول إلى تشانغه. وحتى إن شي خه نفسها تحولت من الإلهة التي أنجبت الشمس إلى الشمس نفسها، ثم إلى سائقة العربة التي تحمل الشمس والشخص الذي يُحدِّد التقويم.



الصورة 2-16 «تشانغ شي تغسل القمر»، من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب حول غرب داهوانغ» (نسخة وانغ) (نسخ تسنغ شو تسونغ)

تدعى تشانغ شي «نيوي خه»، و«أم القمر» في «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار»؛ فقد أنجبت اثنَي عشر قمراً ولهذا أُطلِق عليها الاس: «أم القمر». أما اسم «نيوي خه» فقد أُطلِق عليها لأنها من يوازن بين الين واليانغ. يشير التقويم الصيني التقليدي إلى قوانين عمل الشمس والقمر، وتشانغ شي هي المسؤولة عن التوازن بين الأشهر القمرية والأشهر الشمسية.

خه، قامت أم الأقمار بغسل أولادها (الصورة 2-16). أما بالنسبة إلى كيفية سفر الأقمار في السماء، فلم تذكر المصادر القديمة هذا الأمر، باستثناء كتاب هواينانتسي الذي ذكر أن الإلهة وانغشو، وتدعى أيضاً شيانآ، كانت تقودها. ولما لم تأت المصادر القديمة إلا على ذكر جزء من الأساطير المتعلقة بالقمر، فليست لدينا صورة كاملة حولها، ولكن الموروث الشعبي المتداول بين الناس يحفظ لنا قصصاً عن «الكلب السماوي الذي أكل القمر»، وترجع أصول هذه الأسطورة إلى الديانة البوذية بعد أن دخلت الصين عبر الهند. كان الكلب السماوي تجسيداً لأم شاب يدعى مو ليان. ومع أن مو ليان كان بوذياً طيب القلب إلا أن أمه كانت ذات طبع مشاكس، فصنعت 360 كعكة محشوة بلحم الكلاب تشبه الكعك النباتي، وأخذتها إلى المعبد لتخدع الرهبان النباتيين الذين لا يأكلون اللحم.



وعندما علم الإله السماوي بذلك غضب عليها ولعنها وحوّلها إلى كلب شرس، لكن مو ليان كان ابناً بارّاً، فذهب بنفسه إلى الجحيم ليخلص أمه، فاتحاً بابها بعصا الرهبان البوذيين (الخاكخاره). (الصورة 2-17)

بعد هرب أمه المتوحشة، طاردت الشمس والقمر محاولة التهامهما لتحويل السماء والأرض إلى عالمَين مظلمَين، فأمسكت بالشمس والتهمتها، ثم أمسكت بالقمر وابتلعته أيضاً. لكنها كانت تخشى أصوات الطبول والنواقيس، وبشكل خاص المفرقعات النارية. وحين سمعت هذه الأصوات ارتعبت كثيراً لدرجة أنها لفظت الشمس والقمر. ولكنها لم تكن لترضى بالهزيمة والفشل، فظلت تطاردهما مرة تلو أخرى، وكانت نتيجة ذلك الظاهرتين الطبيعيتين: كسوف الشمس وخسوف القمر.

يُسمّي الناس في الصين كسوف الشمس «الكلب السماوي يأكل الشمس»، كما يُسمّون خسوف القمر «الكلب السماوي يأكل القمر» كتفسيرين أسطوريين لهاتين الظاهرتين الفلكيتين. حتى في يومنا هذا، حين تحصل أي من هاتين الظاهرتين، لا تزال من عادة الناس أن يقرعوا النواقيس والطبول ويطلقوا المفرقعات النارية لإخافة الكلب السماوي حتى يلفظ الشمس أو القمر بسرعة. (الصورة 2-18)

من الأساطير الأخرى المرتبطة بالنجوم أسطورة راعي البقر والفتاة النساجة، وقد اشتق اسماهما من اسم نجم النسر الطائر في الشمال الشرقي ونسر النجم الواقع في الشمال. وبحسب ما تظهر الكوكبات في الخريف، فإن نجم النسر الواقع هو أكثر النجوم ضياء في كوكبة القيثارة، أما أكثر النجوم ضياء في كوكبة العقاب المشابهة لنير الحمالين



الصورة 2-17 «مو ليان ينقذ أمه من ياما (الجحيم)»، لوحة جدارية من عهد سلالة سونغ

ظهرت هذه القصة للمرة الأولى في سوترا (الاسم الذي يُطلق على كل سفر بوذي مقدس) خلال عهد سلالة هان الشرقية. وتدعى هذه السوترا: يوي لان بن سوترا. وإن هذه القصة هي أصل احتفال يوي لان بن، وغيره من المناسبات المتعلقة بالموت والأشباح. وفي معظم أرجاء الصين، يقدم الناس أضحيات إلى أرواح أسلافهم في الخامس عشر من تموز. وفي فوتشو، تطوّر حدث خاص يدعى احتفال أوجيو. في صباح التاسع والعشرين من كانون الأول في التقويم القمري، يصنع الناس عصيدة خاصة كأضحية لأسلافهم أو كهدية للأقارب والأصدقاء.



الصورة 2-18 «كسوف شمسي»، رسم يدوي

قام رجل غربي جاء إلى الصين قبل زمن بعيد برسم هذه الصورة. حين يحدث كسوف الشمس يقوم مسؤولو الدولة بوضع مذابح، بينما يقوم موظفو القاضي المحلي بقرع الطبول والنواقيس لإبعاد كلب السماء كي لا يلتهم الشمس.

فهو نجم النسر الطائر. وتقع مجرتنا، مجرة درب التبانة، بين نجمَي النسر الطائر والنسر الواقع، وتدعوها الأساطير الصينية النهر السماوي. كانت الفتاة النساجة (الصورة 2-19) ابنة إله السماء القاطن شرق النهر السماوي، وكانت فتاة ذكية تستطيع أن تنسج خيط حرير أدق من السحاب. أما راعي البقر فقد كان من عالم البشر، وقد تقابلا حين نزلت الفتاة النساجة إلى الأرض، وتعاهدا على الزواج. لاحقاً، أنجبت الفتاة ولدَين، واستخدم راعي البقر نيراً ليحمل سلتين، حيث وضع طفلاً في كل سلة. وهذا بدوره تفسير خرافي لشكل كوكبة العقاب المشابهة للنير، والمؤلفة من ثلاثة نجوم.

بعد أن اشتهر اللقاء الغرامي في السماء، استشاطت إلهة السماء غضباً، وأجبرت الفتاة النساجة على العودة، فشعر راعي البقر بحزن شديد حين رأى زوجته تعود إلى السماء. لكن ثوره العجوز وقبل وفاته بقليل طلب منه أن يرتدي جلده. لذا، بعد أن دفن الراعي ثوره، أخذ جلده وارتداه، فوجد نفسه يطير ويقترب من الفتاة النساجة. ولكن، حين كاد الحبيبان يلتقيان، تدخلت إلهة السماء فجأة، فأخرجت دبوس شعرها وكشطت



الصورة 2-19 «الفتاة النساجة»، رسم من أعمال وو يو رو من عهد سلالة تشينغ

يُظهِر الرسم راعي البقر والفتاة النساجة وقد اجتمعا مجدداً بفضل جسر صنعه سرب من طيور العقعق. هذه القصة قديمة ولها شعبية كبيرة في الصين، كما لها أثر عميق في الحضارة الصينية.

السماء بينهما، فلم يتمكن أي منهما من العبور إلى حيث يتواجد الآخر.

صرخت العائلات في كل مِن ضفتَي النهر بجنون، وكان الأمر مأساوياً، لدرجة أن الجنيات والآلهة التي تخدم إلهة السماء شعرت بالأسى على العاشقين. وحين رأت إلهة السماء كل ذلك الحزن أشفقت بدورها على الحبيبين، وسمحت لراعي البقر والطفلين بأن يظلوا في السماء. وهكذا، صار من الممكن أن تجتمع العائلة مرة في السنة يوم السابع من تموز، حيث يشكل سرب من طيور العقعق جسراً لها، فيلتقي الحبيبان أخيراً في ذلك اليوم. وهكذا، أصبح تعبير «تشيويه تشياو» (جسر طيور العقعق) مرادفاً للحب والزواج في الحضارة الصينية، وأصبح يوم السابع من تموز يوم احتفال تشي شي في الصين (الصورة 2-20)، وهو مهرجان مخصص للفتيات اللواتي يتضرّعن في ذلك اليوم للحصول على عبقرية الفتاة النساجة، وكي يحظين بحب جميل وزواج سعيد كالذي حظيت به.

الكون والطبيعة كيانان موضوعيان مستقلان عن إدراك الإنسان وإرادته، وليست لهما بطبيعة الحال مشاعر إنسانية. ولكن المعالجة التجسيمية المقتضية لإضفاء صفات إنسانية على الكون والطبيعة كانت جزءاً لا يتجزأ من وعي الناس في الصين القديمة،

وقد رأبت إلى حد كبير الهوة النفسية والعاطفية التي يشعر بها الإنسان أمام هذين الكيانين. فمن الملاحظ أن القدامى استحدثوا قصصاً ذات مشاعر إنسانية لتفسير وجود الشمس والقمر والنجوم؛ سواء أكان ذلك في قصة شي خه أم في قصة الفتاة النساجة وراعي البقر. وإن كان هذا يدل على شيء فهو يدل على النزعة الإنسانية البارزة في الصينيين القدامى، حيث دفعتهم هذه النزعة إلى الشعور بالقرب وحتى الوحدة مع الطبيعة ومع الكون نفسه.



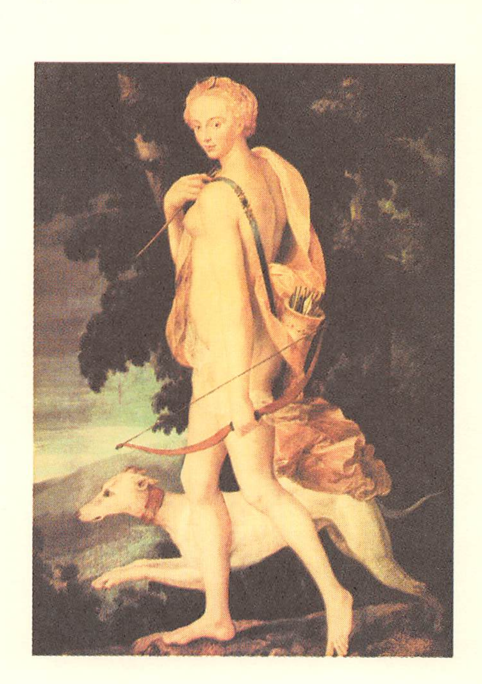
الصورة 2-20 «اليوم السابع المزدوج»، صورة من رسم ياو ون هان من عهد سلالة تشينغ

للرسم جزءان؛ يصوِّر القسم الأعلى عودة راعي البقر والفتاة النساجة إلى بعضهما فوق جسر من طيور العقعق، ويرتبط بالقسم الأسفل عبر السحب والأبراج. أما القسم الأسفل فيُظهر فتيات وأطفالاً يستمتعن باليوم السابع المزدوج في عالم البشر الفانين.

| أساطير الإحيائية

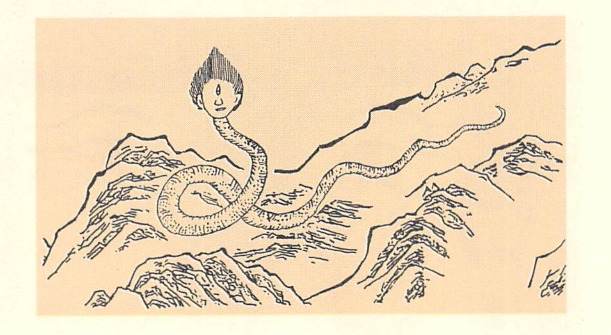
تقص معظم أساطير العالم روايات عن آلهة يتخصص كل منها في مجال ضيق من التأثير على الطبيعة ضمن نسق تجسيمي إنساني النزعة. ففي أساطير اليونان القديمة على سبيل المثال، كان زيوس هو الإله الأبوي ذا السلطة الكبرى والنفوذ الأعظم، بينما نرى الإلهة أرتيمس (الصورة 2-21) لا يتجاوز نفوذها مجالات القمر والغابة والصيد. وفي كتاب الفيدا في الهند القديمة، نجد أن آغني هو الأقوى من بين الآلهة الثمانية التي أنجبها براهما. أما في مصر القديمة، فقد كانت تفنوت إلهة المطر، في حين كان شو إله الرياح. وبالطريقة ذاتها، تروي الأساطير الصينية قصصاً عن آلهة كثيرة للطبيعة، حيث كانت الآلهة تسيطر معاً على جميع الأشياء.

يوجد تنين مقدس يدعى تشو يين (الصورة 2-22) كما ورد في «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار»، وكان يقطن في جبل تشونغ. وكان لهذا التنين وجه بشري وجسم أحمر، كما كانت عيناه تتموضعان عمودياً في وجهه، العين الأصلية هي السفلى، أما العين العليا فيطلق عليها اسم عين يين؛ وقيل إن في هذه العين زيت يمكن أن تُصنَع منه شموع للإنارة، ولكن لم يحاول أحد قط أن يفعل ذلك، إذ إن نظرة واحدة من هذه العين كانت كفيلة بتحويل الإنسان الواقف أمامها إلى وحش له رأس إنسان وجسم أفعى. تمثل عين التنين الأصلية الشمس، أما عين يين فتمثل القمر، وحين يفتح التنين عينه الأصلية يشرق العالم، أما حين يفتح عين يين فيصبح العالم مظلماً، بينما



الصورة 2-21 «إلهة الصيد ديانا»، رسم زيتي

الإلهة أرتيمس اليونانية التي أطلق عليها الرومان اسم ديانا هي ابنة زيوس من ليتو. وحين ولد أبولو جلب معه إلهة تحمل قمراً بين عينيها وقوساً في يدها، وهي ديانا.



الصورة 2-22 «تنين الشمع»، من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب حول شمال داهوانغ»، (نسخة جيانغ) (نسخ تسنغ شو تسونغ)

في الأساطير الصينية، يعتبر تنين الشمع (ويطلق عليه اسم تشو يين أيضاً) الإله الذي خلق العالم وإله جبل تشونغشان. وهو قوي جداً لدرجة أن ضوء شمعته كفيل بإضاءة العالم السفلي بكامله. يحمل التنين شمعة في فمه تضيء البوابة المظلمة للقصر السماوي. ومن الجدير بالذكر أن «تنين الشمع» هو الاسم الذي كان الصينيون القدامى يطلقونه على الشفق القطبي.

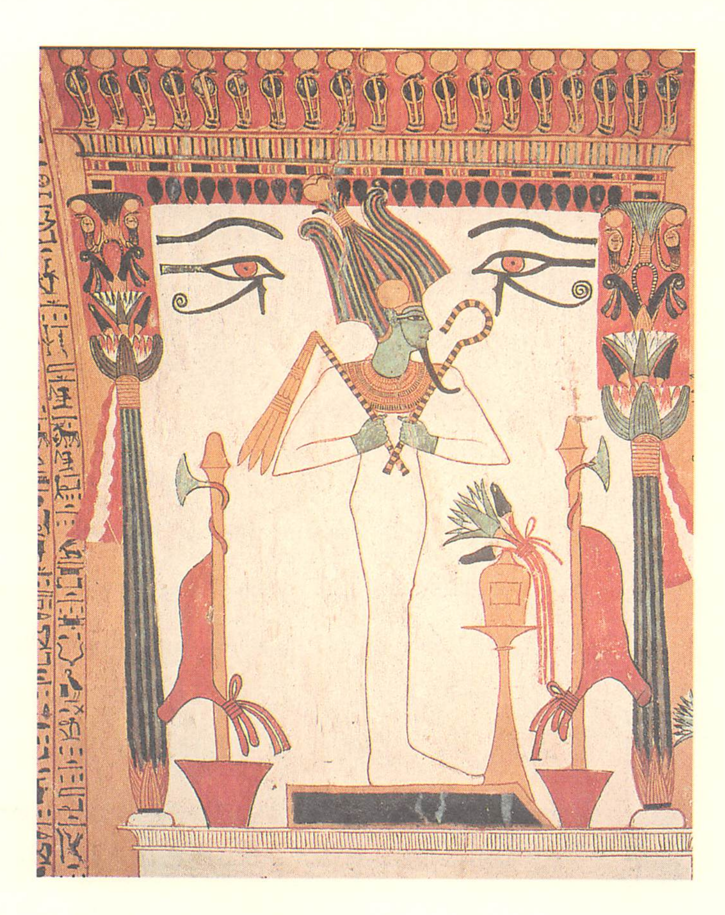
إذا فتح العينين في الوقت ذاته فستحترق الأرض بفعل حرارتهما.

اقتبس كتاب «تاي بينغ يوي لان» الوصف الوارد في كتاب «شوان تشونغ جي»- الذي ألفه قوه بو من عهد سلالة سونغ الشمالية- لعينَي تشو يين؛ حيث قال إنهما عموديتان، وإن اليسرى هي الشمس واليمنى هي القمر. وتشبه الصورة التي رسمها الكتاب صورة عين حورس (الصورة 2-23) في الأساطير المصرية القديمة، والفرق الوحيد هو أن عينَي حورس عكس عينَي تشو يين: فعين حورس اليمنى هي الشمس واليسرى هي القمر. لكن الأسطورتين تتماهيان من حيث كونهما تعكسان بطريقة متطابقة الفهم التجسيمي القديم للعلاقة بين النور والبصر.

وبحسب الأساطير الصينية، إن عينَي تشو يين هما مصدر النور في العالم، وأنفاسه هي الرياح في الطبيعة. وحين ينفث نفثة حادة، فهذه النفثة هي هدير رياح الشتاء والزمهرير، وإذا نفث نفثة لطيفة فهي نسمات الصيف الناعمة. إذاً، إن أنفاس تشو يين هي سبب تبدل الفصول بحسب هذه الأساطير.

في ليان (الصورة 2-24) إله آخر قادر على بث الرياح، وتصفه الأساطير بأن له رأس طائر وجسم غزال وقرنين وذيلاً كذيل الأفعى. وهو يعتبر جد شعب تشين، وتجمع الصورة المأثورة عنه بين طوطم الطائر الذي كان شعب تشين يعبده وطوطم الغزال الذي كانت الشعوب الرحالة الغربية تعبده. ما يعنيه الحرف الأصلي المشير إلى كلمة تشين هو: الشجيرة الصغيرة، وقد اشتهر شعب تشين بتربية الخيول؛ ولعل سبب هذا





(إلى اليمين) الصورة 2-23 «أوزيريس يضع تاج مصر»، جدارية من قبر، مصر القديمة، القرن الرابع عشر قبل الميلاد

تحيط عين حورس بكل من طرفي التاج، وقد تم الاستيلاء على العين اليسرى أثناء القتال مع ست؛ الإله الذي قتل والده أوزيريس. وقد ساعد خونسو- إله القمر- حورس في التغلب على ست واستعادة عينه، فكرّس حورس عينه هذه منذ ذلك الوقت لأبيه أوزيريس، وتعتبر تعويذة تميز بين الخير والشر وتساعد في جلب الصحة والطالع السعيد.

(إلى اليسار) الصورة 2-24 «تنين كايمينغ وفي ليان، إله الرياح»، لوحة جدارية من كهف ألف بوذا في دونهوانغ، مقاطعة قانسو

تتواجد صورة في ليان في وسط اللوحة الجدارية، حيث يشبه الغزال في شكله، ويجري كالرياح في سرعته، حيث تم رسم رمزين للرياح المتحركة حوله. وبالطبع، إن أي جسم يسير بسرعة عالية يثير الرياح خلفه. ويوحي هذا الرسم بأن في ليان عداء ممتاز، حيث يمكنه أن يبث الرياح خلفه.

الفرق بين مدلول الكلمة وواقع حال شعب تشين هو أن أفراد ذلك الشعب الذين تقوم حياتهم على الزراعة قد هاجروا من الشرق إلى الغرب وأصبحوا شبه رحالة. أما طريقة لفظ كلمة «في لان» فتشبه لفظ الكلمة التي تعني «الرياح» في اللغة الآلتائية التي كان الرحالة يتكلمونها. وهذا دليل جيد على اندماج الأمم من خلال الهجرة، والعلاقة الوطيدة بين الآلهة التي يعبدونها والخصائص التي تميز كل أمة منها.

يختلف في ليان من ناحية أخرى عن الآلهة اليونانية، فالآلهة اليونانية تولد ومعها سلطتها على الطبيعة، أما في ليان فقد حصل على قدرته على الرياح من خلال التعلم المستمر؛ فقد كان تلميذاً لتشي يو، وتدرّب على جبل تشي، وكان هناك حجر هائل الحجم يواجه الجبل، ومن أعاجيب ذلك الحجر أنه كان يطير مثل السنونو حينما





يكون الطقس ماطراً والرياح شديدة، ولكن إذا كان الطقس صاحياً كان ذلك الحجر يظل في مكانه. وقد شعر في ليان بالفضول إزاء هذه الظاهرة الغريبة، فاختبأ قرب الحجر ليشاهد ما يحصل. وفي منتصف إحدى الليالي، بدأ الحجر الضخم يتحرك، وفجأة تحول إلى مخلوق حي يشبه الكيس ولا قوائم له، تنفس المخلوق نفساً عميقاً وانطلق إلى السماء، فهبت الرياح الجامحة فوراً وهي تذر الرمل في الجو وتبعثر الحجارة. دار الكيس بسرعة كبيرة وسط الرياح وكأنه طائر سنونو، فما كان من في ليان إلا أن قفز ببراعة وأمسك بالكيس، فإذا به أم الرياح التي تتولى أمر تغيير المناخ وهبوب الرياح.

ولعل الصورة التي ترسمها هذه الأسطورة تعبر عن ظاهرة كان القدامى يشاهدونها في حياتهم اليومية، وهي أن أم الرياح- أي الكيس- يمكنها أن تصدر الريح إذا تعرضت للضغط، أو إذا تحركت بسرعة (الصورة 2-25)، فاعتقدوا أن الرياح تصدر عن كيس عملاق خارج السماء.

تعلم في ليان كيفية بث الرياح وإيقافها من «أم الرياح»، وعمل لدى تشي يو. وبعد هزيمة تشي يو على يدَي تشو لو، استسلم في ليان بدوره للإمبراطور هوانغ، وأصبح الإله المسؤول عن الرياح. وفي كل وقت، كان إله السماء (الإمبراطور هوانغ)

الصورة 2-25 «رسم لإله الرياح وإله الرعد»، رسم بالحبر على ورق ذهبي من عهد إيدو، مجموعة معبد كينينجي في كيوتو، اليابان

يمثل الجانب الأيسر من الرسم صورة إله الرعد، أما الجانب الأيمن فيمثل إله الرياح المضاهي لفي ليان، وهو يحمل كيس الرياح. تأثرت الأساطير اليابانية بنظيرتها الصينية، ومن تجليات هذا التأثر صورة كيس الرياح التي تفسر تكوُّن الرياح.







الصورة 2-26 «تشو رونغ» من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب حول ما وراء البحار الجنوبية» (نسخة جيانغ) (نسخ تسنغ شو تسونغ)

تشو رونغ شخصية خرافية في الصين، ويُطلَق عليه أيضاً اسم الإمبراطور الأحمر أو إله النار. كانت القبائل التي قادها تشو رونغ أسلافَ الناس ذوي أسماء العائلات الثمانية.

يُجري إحدى جولاته، وكان إله الرعد يمهِّد له الطريق، وإله المطر يغسلها بالماء، أما إله الرياح فيقوم بتنظيف الطريق.

لكن نهاية في ليان كانت مأساوية، فقد تم الإمساك به وقطع رأسه، وقد دُوِّنت هذه النهاية في كتاب «قو شي تشن جي» كما يدل على ذلك ما نُقِش على إحدى حجارة الأيل؛ وهي حجارة تتواجد بشكل كبير في مناطق مثل هولون بوير في منغوليا الداخلية، والهضبة المنغولية، وتوفا في روسيا، وسيبيريا الجنوبية، وصولاً إلى منطقة شينجيانغ الألتائية في الصين. عادة، تكون هذه الحجارة ألواحاً حجرية تحمل كتابة بحروف تشبه أشكال غزلان لها فم مثل المنقار؛ ما يذكرنا بشكل في ليان. كما تحتوي بعض هذه الألواح مشاهد غريبة لغزلان من دون رؤوس أو من دون أجسام؛ ربما في إشارة إلى قطع رأس في ليان بأمر من الإمبراطور هوانغ بعد الحرب في تشو لو.

بعد أن نجح الإمبراطور هوانغ في هزيمة تشي يو، أضفى ألقاباً على مسؤولي دولته، وكان من بين أولئك المسؤولين خبير في السيطرة على النيران اسمه لي. فمنحه الإمبراطور لقب تشو رونغ، الذي أصبح إله النار في الأساطير الصينية. إذ تعني كلمة «تشو» الأبدية، أما كلمة «رونغ» فتعني السطوع، وقد ارتبط هذا الاسم مع الأمل بمصير مشرق وطيب. وقد صوَّر «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار» تشو رونغ كرجل يقف على تنينين ناريين وتحيط به ألسنة اللهب، لكنّ هناك أسطورة أخرى تجسده كرجل يركب على تنين ناري واحد (الصورة 2-26)، وقد حسَّن من طريقة سوي رن في ثقب الخشب لإشعال النار، كما أشعل النار باستخدام الصوان والصوفان، وتعتبر هذه من اللحظات الحاسمة في تاريخ الإنسانية، ومن الإبداعات التي وفّرت على الإنسان الكثير من الوقت والجهد.



حمل الإمبراطور هوانغ تقديراً كبيراً لشخص تشو رونغ، وطلب منه أن يحكم على القبائل في الجنوب، فقام تشو رونغ بتحسين بنية المنازل في الجنوب، ونقل عملية إشعال النار إلى داخل المنازل لتصد برد الشتاء وبعوض الصيف؛ فأحبه الناس وبجّلوه بإعطائه لقب الإمبراطور تشي. ولا يزال معبد الإمبراطور تشي الذي شُيِّد تشريفاً لتشو رونغ يجثم في كنف جبل هنغ حتى اليوم.

وهكذا، نرى أن تشو رونغ إنما رُقّي من كونه بطلاً وصار الإمبراطور تشي. وبخلاف إله النار الطبيعية في الأساطير اليونانية والهندية القديمة، لم يكن إله النار في الصين من اخترع النار، بل انحصر دوره في استخدامها ووضعها في خدمة الناس. وبالنسبة إلى الحياة البسيطة التي كان الأقدمون يعيشونها، فإن إلهاً يعينهم على التحكم بالنار حيث تفيدهم وتبني حضارتهم له أهمية أكبر من إله النار الطبيعية.

وبالإضافة إلى تشو رونغ، هناك أيضاً وحش الرعد الذي يُطلَق عليه اسم كوي، والذي لعب دوراً في زيادة هيبة الإمبراطور هوانغ في حرب تشو لو كما سنرى بعد قليل. وفي الصورة التي تُظهِر كوي نجده شبيهاً بالثور، ولكن لم تكن لديه أي قرون، كما لم تكن لديه إلا ساق واحدة، ولكن صوته كان هادراً كالرعد ويستطيع الناس سماعه من على بعد أميال (الصورة 2-27). وبعد أن حصل الإمبراطور هوانغ على هذا المخلوق، قام بتحويل جلده إلى طبل، بينما استخدم عظمة قصبة ساقه للقرع على الطبل، فصار الطبل يصدر أصواتاً هادرة في الهواء، ما رفع معنويات جيش الإمبراطور هوانغ.

بالإضافة إلى وحش الرعد هذا، كان هناك إله للرعد يعيش في ليتسه، وكذلك زعيم للرعد يعيش في السماء. كان لإله الرعد رأس إنسان وجسم تنين، وكان صوت الرعد يصدر حين يحرّك بطنه. أما زعيم الرعد فيبدو مثل عملاق له منقار طير وجناحاه ومخالبه، كما يحمل طبلاً بيده اليسرى ومقرعة بيده اليمنى فيصدر الرعد حين يقرع الطبل بعصاه.

في اليونان القديمة، احتل زيوس، إله الرعد، المكانة العظمى في جبل الأولمب، لكن آلهة الرعد التي ذكرتها الأساطير الصينية (الصورة 2-28) كانت في الغالب خاضعة للإمبراطور هوانغ، إله السماء. وفي رواية «فنغ شن بانغ» التاريخية التي ألفها شو تشونغ لين في عهد سلالة مينغ، نجد صورة لي تشن تسي- المقتبسة من إله الرعد ذي الشكل المشابه للطير- والذي مر بمجموعة من التجارب العجيبة.



الصورة 2-27 «كوي» من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب حول شرق داهوانغ» (نسخة جيانغ) (نسخ تسنغ شو تسونغ)

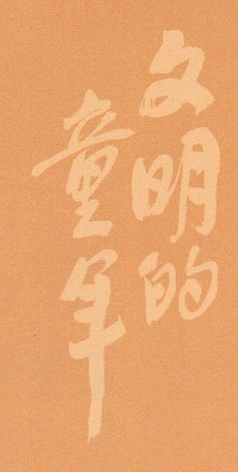
كوي وحش ذو ساق واحدة، وهو يشبه الثور ولكن ليس له قرنان. حين يدخل كوي الماء تتشكل الرياح والأمطار والرعد والضوء. وتصف بعض الوثائق القديمة كوي بأنه وحش له شكل تنين، ويمكننا أن نجد تصاوير له في المصنوعات البرونزية التي ترجع إلى عهدَي سلالتَي شانغ وتشو الغربية، وهو على شكل خط طويل مع فم مفتوح وذيل ملتف وساق واحدة.



الصورة 2-28 «إله الرعد»، من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار»: كتاب حول شرق البلاد» (نسخة جيانغ) (نسخ تسنغ شو تسونغ)

كواحد من آلهة الطبيعة، لإله الرعد رأس إنسان وجسم تنين. ولكن، يشترك إله الرعد كما يصوره هذا الرسم في بعض الخصائص مع صورة إله الرعد التي يتداولها عموم الناس، مثل رأس الطائر. وقد يكون سبب تغير الصورة هذا هو دخول إله الرعد في منظومة الخالدين في العصور التالية.

تصور الأساطير الصينية القديمة كلاً من تشو يين وفي ليان وإله الرعد بأشكال الوحوش، ولكن تشو رونغ احتفظ بشكل إنسان يقف فوق تنينين. وإن كان هذا يدل على شيء فإنه يدل على آثار عبادة الطواطم والنزعة التجسيمية التي سيطرت على تفكير القدامى؛ فقد عكسوا قوى الطبيعة في صفات بعض الحيوانات، فأضفوا عليها مسحة من الألوهية، واعتقدوا أنها تمتلك قوى خارقة. لقد كان أولئك القدامى يعبّرون عن دهشتهم أمام الطبيعة التي نشأوا فيها ونالوا منها حياتهم واستغلوا خيراتها لتحسين معيشتهم من ناحية، كما عبّروا عن هيبتهم من سورات غضبها التي كانت تدمر كل شيء حين تتفجر من ناحية أخرى.



الأساطير والخرافات الصينية

الفصل الثالث

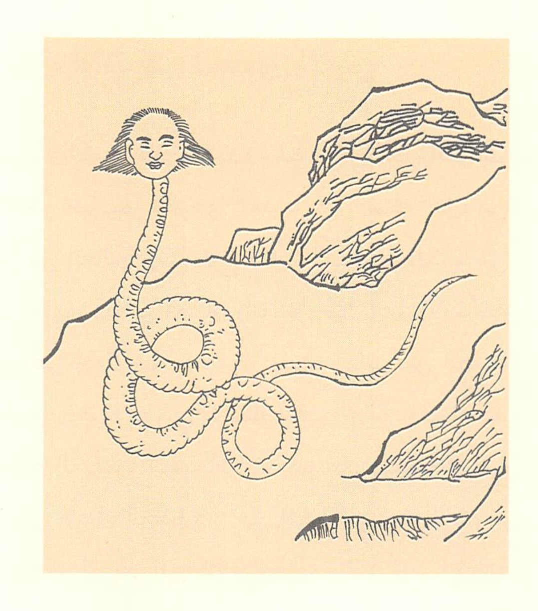
أحلام حول الخير والجمال

– أساطير أصل الإنسان ونشأة الاختراعات

| وثائق تتعلق بالأساطير والخرافات في العصور الأولى

حين بدأ الناس بالتنبه إلى الطبيعة والكون، كانت لديهم رغبة جامحة في اكتشاف الأسرار الكامنة خلف الظواهر التي تحكم حياتهم، فطرحوا العديد من الأسئلة مثل: من أين أتى البشر؟ وكيف جاء أول إنسان في العالم؟ وقد خرج الناس القدامى بالكثير من الخيالات لدى بحثهم عن إجابات لتساؤلاتهم. وتوجد قصتان رائجتان حول أصل الإنسانية في الأساطير الصينية القديمة: الأولى هي حول قيام نيوي وا بصنع الناس من الطين، والأخرى هي حول إنجاب كل من نيوي وا وأخيها فو شي للإنسانية في العالم. وقد اعتقد الصينيون القدامى أن فو شي هو صانع الحضارة الصينية؛ لأنه هو من صنع ما سمي «بباقوا»، أو الأشكال الثمانية التي تعتبر «أصل الحضارة»؛ في إشارة إلى بدء البشرية بالتحول من تدوين الأحداث من خلال عقد الحبال إلى كتابة الحروف. لقد قامت ثقافة يي على أساس الباقوا، وسرعان ما أصبحت مركزاً للثقافة الصينية ككل. أما شعب مياو فيعتبر أن فو شي جدّهم، ولعل هذا يكون مرد الأسطورة القائلة إن فو شي ونيوي وا قاما معاً بإنجاب البشرية. إذاً، ارتبط تصور الصينيين القدامى لأصل الإنسان مباشرة مع هاتين الشخصيتين الأسطوريتين.

تعتبر نيوي وا أول شخصية أنثوية قيادية في الأساطير والخرافات الصينية (الصورة 3-1)، وقد ظهرت في مخيلة الناس حتى قبل الإمبراطورين يان وهوانغ. وهي أيضاً أول إلهة قالت عنها الأساطير إنها أسدت للبشرية الكثير من الإسهامات المفيدة. إذ تذكر الأساطير أنه لم يكن ثمة بشر حين انفصلت الأرض عن السماء. وبينما كانت نيوي وا تسير في الحقول الشاسعة وتنظر حولها، شعرت بالوحدة وبأن العالم يفتقد إلى الحياة، فخرجت بفكرة خلق الإنسان، فاستخرجت تربة صفراء من الأرض ومزجتها مع الماء لتتحول إلى صلصال، ثم شكلت الصلصال على شكل الإنسان من خلال عكس شكلها هي، ثم أضفت الحياة على التماثيل التي صنعتها. لكنها سرعان ما وجدت أن صنع البشر فرداً فرداً مهمة صعبة ومضنية، فاخترعت وسيلة مريحة بشكل أكبر؛ إذ حركت الصلصال حتى تحول إلى طين، ثم غمست فيه حبلاً وضربت الأرض بالحبل، فتحول الطين إلى بشر فوراً؛ وهكذا صار بإمكانها أن تصنع البشر بالجملة. وخلال فترة قصيرة، عجت الأرض بعشرات الآلاف من البشر، وكان الناس المخلوقين بهذه الطريقة أقل شرفاً بما لا يقاس



الصورة 3-1 «نيوي وا»، من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب حول غرب داهوانغ» (نسخة جيانغ) (نسخ تستغ شو تسونغ).

نيوي وا هي والدة البشر وخالقتهم في الأساطير الصينية، ولديها رأس إنسان وجسم أفعى. وبما أنها أخت فو شي فهي من عائلة فنغ. الجانب الإنساني الوحيد لدى نيوي وا في هذا الرسم هو رأسها، وهي صورة أكثر بدائية من تصاوير الأجيال التالية لها التي تعكس عملية أنسنة الشخصيات الأسطورية عبر تعاقب الأجيال.

من الناس المصنوعين باليد مباشرة، ومن هنا بدأ التمايز في المجتمع الإنساني بين الشريف والوضيع.

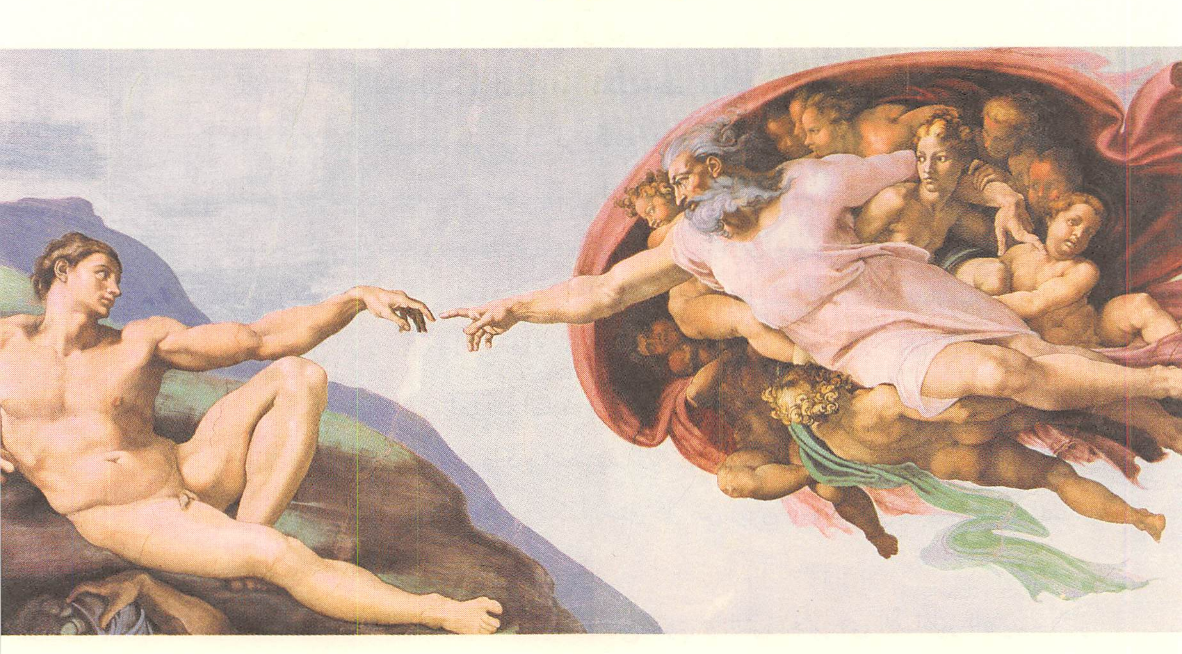
وبما أن نيوي وا صنعت الإنسان من الطين الأصفر، فقد امتاز الشعب الصيني بلون جلده الأصفر. وبينما كان مرد الغنى والفقر، والشرف والوضاعة، وغيرها من الأضداد التي تحكم المجتمع الإنساني هو أنها خلقت البشر بطرائق مختلفة؛ ولعل هذا التفسير قد برز بعد نشأة التمايز الطبقي في المجتمع، وهو يعكس بعض الشيء النزعات الجبرية والحتمية التي تسود المجتمعات الاستبدادية. أما كون الإنسان قد نشأ من التراب، وكونه يعود إلى التراب، فيعكس بدوره إحدى سلوكيات الإنسان وتفاعلاته مع فكرة الموت.

لكنّ الأساطير الصينية ليست الوحيدة التي تعتبر أن الإنسان قد خُلِق من صلصال أو طين، بل إن هذه الفكرة سائدة بين الكثير من الحضارات الأخرى. ففي الحضارة اليونانية مثلاً، قام بروميثيوس بمزج الطين في النهر وصنع البشر على صورة الإله. أما ما يذكره العهد القديم العبراني، فهو أن الإله يهوه خلق آدم من التراب (الصورة 3-2). وبالطبع، ثمة فرق جوهري في الأساطير الصينية، وهو أنها تقول إن نيوي وا إلهة، بخلاف التصور الذكوري للخالق السائدة بين الإغريق.

ما يعكسه هذا التصور الأنثوي للخلق هو المركز المهم الذي كانت النساء تحتله في المجتمعات البدائية كمانحات للحياة؛ فأسطورة نيوي وا في الواقع من مخلفات المجتمعات الأمومية الأنثوية المبكرة، حيث لم يكن الأولاد يعرفون آباءهم، ولكنهم يعرفون أمهاتهم فقط، وحيث كانت قوة الخصوبة الأنثوية موضع عبادة من الناس، وحيث كانت النساء يتمتعن بمركز اجتماعي أعلى بكثير من الرجال. ولم تبرز المجتمعات الأبوية الذكورية إلا بعد تلك المجتمعات الأمومية، فكانت الآلهة العظيمة الأولى إناثاً، وبرز بعدها تصوّر الآلهة الذكورية المتعددة، ثم فاقت تلك الأولى الآلهة الأنثوية تدريجياً في مكانتها عند الناس. على سبيل المثال، لقد برزت أسطورة نيوي وا في الصين قبل أي من الآلهة الكثيرة التي برزت في الغرب.

الصورة 3-2 «خلق آدم»، رسم جداري لمايكل آنجيلو بوناروتي (إيطالي)، مجموعة متحف الفاتيكان

في كل من التصورات الصينية والغربية، يرجع خلق الإنسان إلى التراب. ففي سفر التكوين في العهد القديم، خلق يهوه آدم من التراب، ونفخ فيه الروح من منخريه. ويعكس هذا الرسم آدم مستلقياً وهو يمد إحدى يديه للإله، وكأنه يتواصل معه من خلال اللمس بالأصابع.





تعود الأعمال المرجعية الأولى التي سجلت أسطورة نيوي وا إلى حقبة الممالك المتحاربة وحقبتَي سلالتَي تشين وهان، وتشمل هذه الأعمال: «تشو تسي: تيانون» و«لي جي: مينغ تانغ وي» و«الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب حول غرب داهوانغ»، ونعرف منها أن نيوي وا كانت تتمتع بمركز وسلطة إلهية كبرى، وأنها كانت تعتبر أماً للجنس البشري. لكنّ هذا المركز تراجع، ولا محالة، مع بروز الآلهة الذكور، ومن بينها فو شي (الصورة 3-3) الذي أدّى إلى التحول الأكبر لتصور الناس لنيوي وا كأم للبشر؛ حيث أصبح فو شي في بعض الأساطير المتأخرة يحمل نصف فضل خلق البشرية، ولكن حتى في ذلك الحين ظل الفضل مشتركاً بين فو شي ونيوي وا.

ويجد المتأمل في قصص الخلق الأولى موضوع الزواج بين الأشقاء كثير التكرار في جميع أرجاء العالم؛ من زيوس وهيرا عند الإغريق، إلى أولاد آدم وحواء في الروايات العبرانية إلى أوزيريس وإيزيس عند المصريين القدامى. أما بالنسبة إلى الصين، فقد كانت هذه الروايات كثيرة ومنتشرة، فبالإضافة إلى شعب هان، توارثت الكثير من الأقليات العرقية قصصاً مشابهة حول تزاوج الأشقاء.

لعل هذه القصص تكون انعكاساً ضبابياً للمجتمع الإنساني البدائي، حيث كانت هذه العلاقات بين الأشقاء مقبولة إن لم تكن حتمية. ولكن تطور المجتمعات وازدياد عدد البشر وتطور التفكير العقلاني كانت جميعها عوامل أدت إلى اشمئزاز الناس من هذه العلاقات، فصار لا بد من تبرير وقائع هذه الأساطير القديمة حتى تظل مقبولة عند الناس؛ فقيل إنه عند بدء خلق الكون لم يكن هناك أي بشر إلا فو شي ونيوي وا، فكان استمرار نوع الإنسان مرهوناً بزواجهما، ولكن حتى في ذلك الحين لم يرغبا في التزاوج إلا إذا كان ذلك يلقى رضى الإله كما مر معنا في ما سبق. وهكذا، صار بإمكان الناس المتأخرين أن يتسامحوا مع هذه الروايات، وتحوّل عمل بغيض إلى فعل أخلاقي عظيم.

يتكرر مفهوم «الملوك الثلاثة» في التاريخ الصيني القديم، وتختلف النظريات حول أصل هذا المفهوم، ولكن النظرية الأوسع انتشاراً هي أنهم يرجعون إلى أساطير نيوي وا وفو شي وشين نونغ؛ وهكذا احتل كل من نيوي وا وفو شي مكانة رفيعة للغاية في الأساطير الصينية. (الصورة 3-4)

ترتبط قصتان حول أصل الإنسان مع نيوي وا والتي تعتبر في الأساطير الصينية أكثر



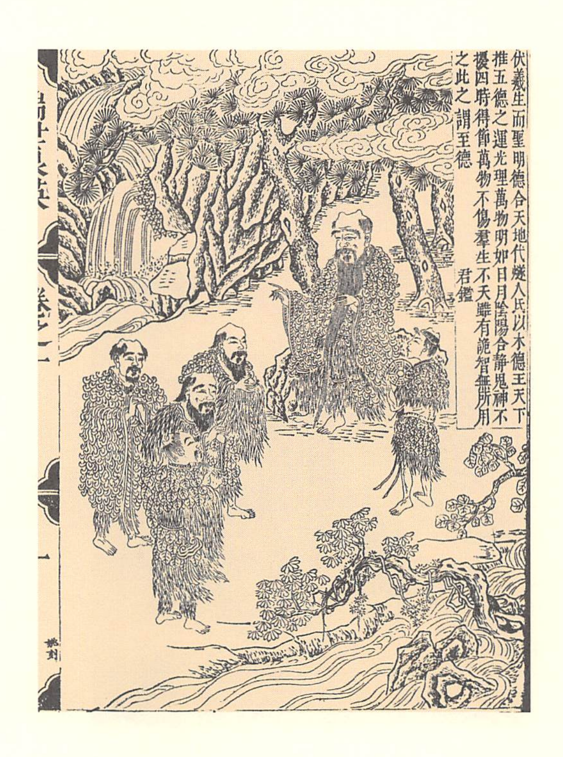
الصورة 3-3 «تصوير لتايهاو فو شي»، من معرض متحف شاندونغ (تصوير إي قوه تشينغ)

فو شي هو أحد أسلاف الشعب الصيني، ويُنسَب إليه اختراع الأشكال الثمانية، وشبكة صيد السمك، وآلة سه الموسيقية ذات الأوتار الخمسة والعشرين. وقد علّم الناس كيفية صيد السمك والحيوانات، وألف أغنية تدعى جيا بيان. جاءت أسطورة اشتراك فو شي ونيوي وا في خلق البشر في وقت لاحق؛ ربما تحت تأثير تحول المجتمعات إلى مجتمعات ذكورية أبوية.

الشخصيات جدارة بلقب «أم الإنسانية»؛ وتحولت صورتها وصفاتها من تلك التي تعكس صفات الأمهات في المجتمعات الأمومية التي سادت في أوائل أيام الحضارة الصينية إلى صور أكثر ملاءمة لمميزات المجتمعات اللاحقة. وهكذا، انعكست هذه العلاقة الوطيدة بين نيوي وا وأصل الإنسانية في ذاكرة الأقدمين الجماعية.

يقال إن نيوي وا بعد إيجادها البشر، ولمساعدتهم في الحفاظ على وجودهم كنوع حي، جعلت الشباب من الذكور والإناث يتزوجون وينجبون، ولهذا أُطلِق عليها اسم إلهة الزواج. وتذكر الأساطير اليونانية القديمة أن الآلهة خلقت أربعة أجيال من البشر، حيث خلقت كل جيل بعد أن مات جميع أهل الجيل السابق له. أما الأساطير الصينية فلا تذكر إلا جيلاً واحداً خلقته الإلهة مباشرة، ومن بعده أسست نيوي وا لنظام زواج بين الناس بحيث يتمكنون من التكاثر بمفردهم.

في الواقع، يعكس الفرق بين الأسطورتين الفرق بين مساري التطور في الحضارتين



(إلى اليمين) الصورة 3-4 «فو شي يخترع الأشكال الثمانية»، مرجع الأباطرة

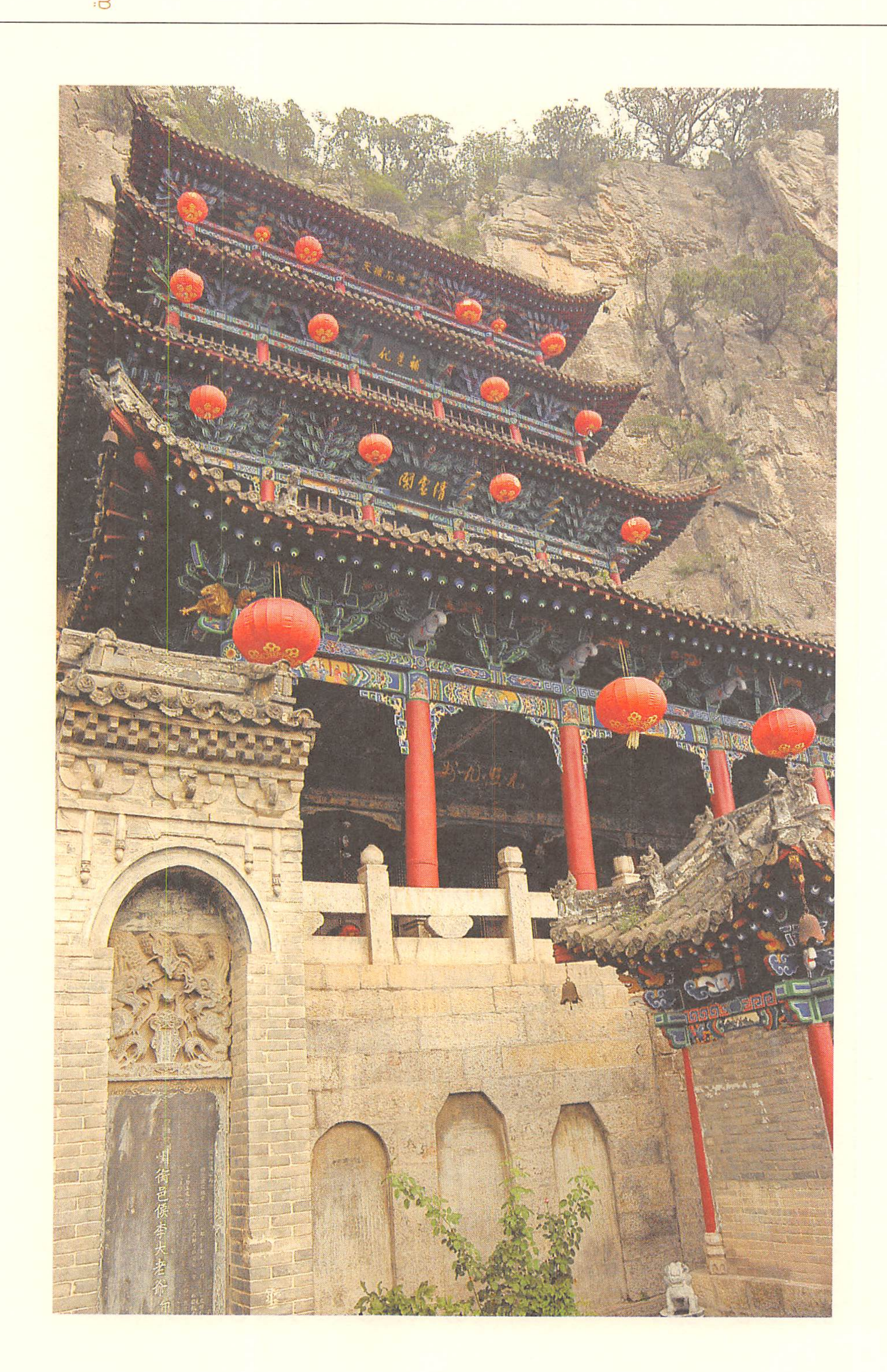
استخدم فو شي رمز «—» للإشارة إلى يانغ، ورمز «- -» للإشارة إلى ين، ويستخدم ثمانية تناويع من رموز ثلاثة كهذه لتتحول إلى الأشكال الثمانية. يرمز كل شكل إلى شيء مختلف، وتستخدم التناويع الأربعة والستون من هذه الأشكال الثمانية لترمز إلى مختلف الظواهر الطبيعية والحضارية. يعتبر «كتاب التغييرات» القائم على هذه الأشكال الثمانية من أعظم الكتب الصينية الكلاسيكية، ويحمل مكانة متميزة في تاريخ الحضارة الصينية.

(إلى اليسار) الصورة 3-5 «قصر نيوي وا ومقصورة نيوي وا»، منطقة شه، مقاطعة خهبي (تصوير نيه مينغ)

شُيِّد هذا المبنى للمرة الأولى في عهد سلالة تشي الشمالية. وهو أكبر المباني المخصصة لنيوي وا في الصين وأقدمها. يواجه المبنى الجهة الغربية، وللمقصورة فيه ثلاثة طوابق. ثمة الكثير من المباني الأخرى الشبيهة بهذا مخصصة لنيوي وا في جميع أرجاء الصين.

الصينية والغربية. ففي البلاد الغربية، لا يتم التطور إلا بالإحلال؛ حيث يحل جيل جديد محل سلفه. أما الحضارة الصينية فلم تشهد انقطاعاً قط، بل ظلت ثابتة ومزدهرة منذ القدم.

أطلق الناس لقب التعظيم الإمبراطورة نيوي وا على نيوي وا، وقد بجّلتها ذريتها أعظم تبجيل (الصورة 3-5). في الصين القديمة، كان الناس يعقدون اجتماعاً كبيراً في قصر مي في الربيع، وما تعنيه كلمة «مي» هو الأضحية المقدمة لأجل الابن، وقصر «مي» هو المكان الذي كانت الأضاحي تُقدَّم فيه، فكان بإمكان الشبان والشابات الاستمتاع هناك واختيار عشاق لهم بحرية. كذلك كان المتزوجون يأتون ليصلّوا لنيوي وا آملين في الحصول على ابن وعلى بركاتها، ولا يزال الناس في الصين يقدمون القرابين إلى نيوي وا حتى يومنا هذا.





| أساطير اتحاد السماء والإنسانية، وأصول القبائل

بعد خلق البشرية، عاش الناس في مناطق مختلفة من الصين، وكوَّنوا قبائل كثيرة ومختلفة؛ فكان لكل قبيلة أسلافها وأساطيرها وخرافاتها. وتشكل أساطير أصول القبائل هذه مصدراً غنياً للمعلومات التاريخية عن الصين القديمة، وقد كان تاريخ الصين القديم هذا تاريخ اتحاد السماء والإنسانية، وقصة اندماج التاريخ مع الأساطير والخرافات. وتعكس أساطير أصول القبائل مفهوم التطور التاريخي في الصين، أي الاتحاد القائم بين السماء والإنسان؛ ففي هذه الأساطير حول أصول القبائل يتم تأليه الأسلاف، وكأنهم يصبحون اتحاداً بين الإنسانية والألوهية، كما تعكس ميل الإنسان القبلي القديم نحو عبادة أسلافه.

ترتبط أسطورة جد قبيلة شيا بالدرجة الأولى مع الأسطورة المشهورة المتعلقة بقيام قون ويوي بالسيطرة على الطوفان. وفي الواقع، كان يوي هو من أسس سلالة شيا، ولكن قبيلة شيا نفسها كانت موجودة قبل يوي. لكن، لا شك في أن قصص ولادة كل من يوي وابنه شيا تشي خرافية بكل معنى الكلمة؛ فقد فشل والد يوي في السيطرة على الطوفان فقتله إله السماء، ولكن جسمه لم يتحلل لثلاث سنوات إلى أن خرج تنين طائر من بطنه، وكان هذا التنين هو يوي، ابن قون. (الصورة 3-6)

تابع يوي جهاد أبيه ضد الطوفان، وفي هذه الأثناء كثيراً ما كان يتحول إلى دب ضخم ليتمكن من الحفر في الجبل. وفي إحدى الأيام، التقى يوي زوجته توشان التي شعرت بالخزي حين رأت زوجها على صورة دب إلى درجة أنها تحولت إلى حجر، ولكنها كانت قد حملت بابن يوي قبل حدوث ذلك، فما كان من يوي إلى أن صرخ في الحجر: «أعيدي إليّ ابني!»، فانشق الحجر من جهة الشمال وقفز منه ولد، وكان ذلك الولد هو شيا تشي. (الصورة 3-7)

ربما كان سبب القول إن يوي قادر على التحول دائماً إلى دب يرجع إلى أن الدب كان طوطم قبيلة شيا، ومع تطور الحضارة لم تتبقَّ من عادات العبادات الطوطمية إلا بقايا ورواسب في عادات الناس. وكما رأينا، إن أصل يوي يرجع إلى جسم أبيه الميت قون، لذا فهو لم يكن يعرف إلا أباه. أما شيا تشي فقد وُلِد من أب وأم بالفعل، ولكن أمه كانت قد تحوّلت إلى حجر متشقق قبل خروجه. إن هذه القصة وغيرها من التفاسير



الصورة 3-6 تمثال «مولد يوي العظيم»، حديقة يوي العظيم في ووهان، مقاطعة هوبي (تصوير فنغ شياو لي)

بعد موت قون لم يتحلل جسمه لثلاث سنوات، فخشي إله السماء أن يرجع قون إلى الحياة، وأرسل إلهاً كي يشق جسمه ويفتحه. وحين فعل ذلك، قفز يوي خارجاً منه وقد اتخذ شكل تنين، وطار بعيداً. في الحضارة الصينية، يمثِّل التنين السلطة والقوة، وكون يوي قد اتخذ شكل تنين يعني أن له موقعاً في غاية الأهمية.

الأسطورية التي ترجع إلى تلك الأزمنة القديمة، وقد استمر تأثير هذه الأفكار الخيالية حتى ضمن الأجيال التالية والأساطير التي استحدثتها؛ مثل أسطورة الملك القرد الذي قفز خارجاً من حجر في «رحلة إلى الغرب»، وهي قصة مشتقة من دون ريب من قصة مولد شيا تشي.

بعد أن تمكن أسلاف قبيلة شيا من التحكم بالطوفان، نال أفراد القبيلة مقداراً كبيراً من الاحترام والهيبة؛ حتى إنهم ملكوا العالم في آخر الأمر، وكوّنوا أول سلالة في تاريخ الصين: سلالة شيا، وقد بدأ معها ما سُمِّي «بالملكية الوراثية»، وكان شيا تشي أول إمبراطور من سلالة شيا. (الصورة 3-8)

كانت شانغ في الأصل قبيلة تحكمها سلالة شيا، لكن ثورة شانغ تانغ لاحقاً أطاحت بالإمبراطور جيه- وهو آخر إمبراطور في سلالة شيا- وأزالت حكمه الاستبدادي. وإثر ذلك، أسس شانغ تانغ سلالة جديدة هي سلالة شانغ. في الواقع، لا يمكننا القول إن أصل





الصورة 3-7 «يوي العظيم يصدم زوجته بتحوله إلى دب». تمثال من حديقة يوي العظيم في ووهان، مقاطعة هوبي (تصوير فنغ شياو لي)

ليتجنب يوي العظيم رؤية زوجته له وهو في صورة دب، وضع طبلاً على أسفل الجبل وطلب منها أن تجلب له وجبات الطعام حين تسمع قرع الطبل. وفي أحد الأيام، كان يوي العظيم يحفر في الجبل وقد اتخذ شكل دب، فسقطت صخرة على الطبل وقرعته، وحينها جاءت زوجته وهي تحمل الطعام. وسرعان ما اكتشفت أن زوجها دب، فشعرت بخجل شديد لدرجة أنها تحولت إلى حجر.

قبيلة شانغ يرجع إلى زمن متأخر عن قبيلة شيا، وذلك لأن قبيلة شانغ كانت تعيش في الشرق، وكانت تعبد طوطم الطير لأن مولد سلفها كان ذا علاقة بالطيور.

جد قبيلة شانغ هو شانغ شيه (الصورة 3-9)، وكانت أمه تدعى جياندي. في أحد الأيام، كانت جياندي وأختها تتناولان طعام العشاء على هضبة عالية، فرأتا طائر سنونو يطير فوقهما ويغرد، فاستخدمتا سلة مصنوعة من الجاد للإمساك به. ومع أن الفتاتين تمكنتا من أسر السنونو باستعمال السلة، إلا أنه سرعان ما هرب ما إن رفعتاها. ولكنهما فوجئتا حين اكتشفتا بيضتين في مكانه. تناولت جياندي إحدى البيضتين وأكلتها، وشعرت للتو بتيار دافئ يتدفق في جسمها، وحملت. وفي وقت لاحق، أنجبت ابناً أطلقت عليه اسم شانغ شيه؛ لقد كان ذلك السنونو مبعوثاً من عند الإله.

خلال المراحل الأولى من الحضارة الإنسانية، كانت نسبة وفيات الأطفال عالية،



(في الأعلى) الصورة 3-8 «شيا تشي يذهب في رحلة»، «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب حول ما وراء البحار غرباً» (نسخة جيانغ) (نسخ تسنغ شو تسونغ)

بعد موت يوي، قتل تشي بو يي الذي كان يوي قد اختاره خليفة له، وأسس نظاماً وراثياً. وبحسب ما ذكره منشيوس، فقد رحب الناس بفعل تشي هذا وتقبلوه.



الصورة 3-9 «شانغ شيه» (نسخ تسنغ شو تسونغ)

شانغ شيه هو جد شعب شانغ، وقد ساعد يوي في إخضاع الطوفان، فعُيِّن بعد ذلك وزيراً للتربية. تقع عزبته في شانغ، وهو أساس تكوين سلالة شانغ.

فكان تعداد السكان هو المصدر الأكبر لثراء الأمم، ويعكس قيام جياندي بأكل بيضة السنونو ثم حملها وولادتها، وبعدها تقديس قبيلة شانغ قدرة الطير على وضع البيض.

كما كانت قبيلة تشو من القبائل القديمة في الغرب أيضاً، وتعكس قصة ولادة سلفها هو جي ذلك الاتحاد بين السماء والإنسانية الذي أشرنا إليه سابقاً. ويقال إن أم هو جي، وتدعى جيانغ يوان، كانت ابنة يو تاي وزوجة



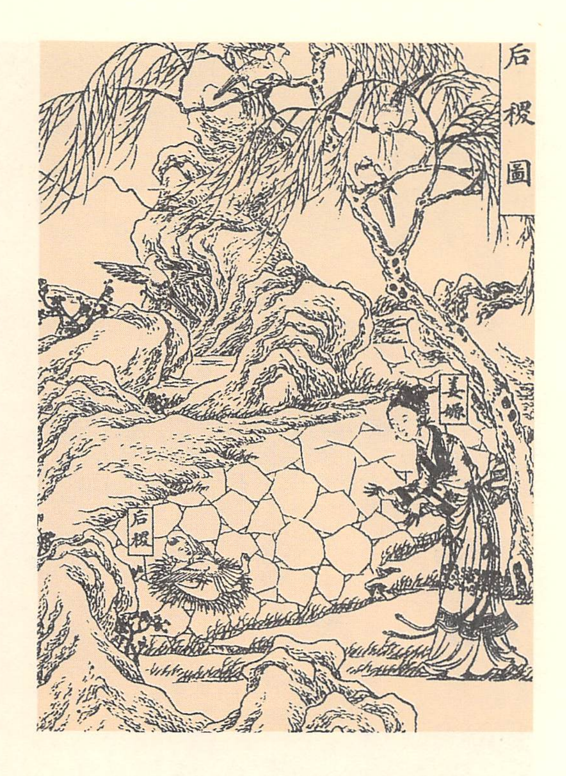
دي كو. وفي أحد الأيام، وبينما كانت تلعب في الحقل، وجدت جيانغ يوان أثر قدم ضخمة، فأثار ذلك فضولها، وحين وضعت قدمها على أثر قدم العملاق تلك ذلك شعرت برعشة في جسمها، وحين عادت إلى منزلها أدركت أنها حامل، وسرعان ما أنجبت هو جي. لقد كان إمبراطور السماء نفسه هو من ترك أثر القدم تلك. (الصورة 3-10)

لا يمكننا إلا وأن نلاحظ التشابه بين ولادة هو جي وشانغ جيه، حيث إن كلاً من الولادتين ارتبطت مع الآلهة السماوية. فقد وُلِد شانغ شيه لأن أمه ابتلعت بيضة سنونو أرسلها الإله، أما هو جي فقد وُلِد لأن أمه جيانغ يوان وضعت قدمها على أثر قدم الإله، فارتبطت كلتاهما مع إلهين سماويين بشكل طبيعي. كان ذلك الربط بين الآلهة والأسلاف من تجليات عبادة الأسلاف في الحضارة القديمة، وبذلك كان يتم تأليه أولئك الأسلاف.

لم تتشكل ثقافة دينية حقيقية في المجتمع الصيني القديم. لذا، إن عبادة الأسلاف كانت لها أهمية دينية إلى حد ما. فمنذ القِدم، ظلت طقوس عبادة الأسلاف من أكثر نشاطات الحياة في الصين هيبة وقداسة. وفي الصين القديمة، كانت التضحية والحرب من أهم عناصر الحياة الحضارية. ومع أنه كان هناك انقسام بين أولئك الأسلاف والسماء، فقد حصل تشارك في اتساق عقلي، وتمتع الأسلاف الملكيون بوضع خاص؛ إذ كانوا يعتبرون تجسيداً لإرادة الإله، فقد كان الأسلاف «يتولون الملك المعطى من الإله بأخلاقية»، فكانت عبادة ذريتهم له تعني احترامهم لإرادة الإله.

كانت «القصائد الغنائية الثلاث» في «كتاب الأغاني» موسيقى دينية تُعنى بعبادة الأسلاف في قبائل شانغ وتشو ولو. وفي تلك القصائد، تغنت الذرية القبلية بمدائح لأفعال أسلافهم وتاريخ قبائلهم، وعبر أفرادها عن تبجيل أسلافهم وتعظيم ذكراهم. وقد نشأت أساطير الأسلاف تلك ضمن قبائل شانغ وتشو كنتيجة لثقافة عبادة الأسلاف وتقديم الأضاحي لهم.

لم تكن أسطورتا ولادة شانغ شيه وهو جي إلا مثالين على أساطير كثيرة مُشابهة حول أصول الأسلاف في الأساطير الصينية. فعلى سبيل المثال، تتشابه أساطير قبيلتَي تشين وتشانغ حول أصل الأسلاف تمام التشابه؛ لأن الأسطورة المرتبطة بميلاد جد قبيلة تشين أيضاً تقول إنه ولد نتيجة ابتلاع أمه لبيضة. ولم تكن تلك الأساطير مجرد قصص



الصورة 3-10 «هو جي، إله الزراعة»، رسم من «الكتاب المصور حول كتاب التاريخ» من عهد سلالة تشينغ (نسخة قوانغ شو)

أنجبت جيانغ يوان ابنها هو جي قبل أن تتزوج، ولذلك اعتبرته طالع نحس ووضعته في طريق ضيق، لكنّ المواشي لم تدس عليه. وحين وضعته في غابة، ظهر فيها الكثير من الناس فلم يمت فيها. وحين تركته في الثلج فشلت محاولتها في التخلص منه أيضاً؛ لأن الطيور دفّأته بأجنحتها. عندها، اعتقدت جيانغ يوان أن هو جي لا بد أن يكون إلهاً فربّته، ولكنها حين أرادت التخلي عنه في بادئ الأمر أطلقت عليه اسم «تشي»، والذي يعني «التخلي».

حول أصول القبائل، بل كانت وسيلة في غاية الأهمية للتأليه. ويمكننا العثور على مقابل لها في الموروث الحضاري الغربي، ولعل أشهرها قصة ولادة السيد المسيح، فقد حبلت السيدة مريم العذراء وولدت السيد المسيح بمجرد إرادة الله دون سبب ظاهر. (الصورة 3-11)

تصف أساطير أصول القبائل بالدرجة الأولى أصول الأسلاف ونظمها الاجتماعية وأصلها الرفيع، فتعكس تذكر الناس لأسلافهم وفخرهم القبلي. ومن الملاحظ أن موضع العبادة في هذه الأساطير كان الأسلاف الذكور عموماً، حيث لم تعترف القبائل المختلفة إلا بأسلافها الذكور. وربما كان ذلك دليلاً على نشأة عبادة الأسلاف بعد نشأة المجتمع الأبوي الذكوري. ويلعب الأسلاف الموتى دوراً مهماً في الحضارة الصينية، وتشكل التجارب والقوانين التي تركها الأسلاف أسساً مهمة لأفعال ذريتهم؛ ولذلك نقول إن الحضارة الصينية كانت دائماً قائمة على صنع المستقبل على أساس الماضي.



الصورة 3-11 «السيد المسيح والقديسة العذراء» لوحة لفيليب دو شامباني (فرنسي)، من مجموعة قصر الفنون الجميلة في ليل

يمثل الرسم السيدة مريم العذراء بعد أن وضعت السيد المسيح. وبحسب ما ورد في العهد الجديد، كانت السيدة مريم عذراء حين أنجبت السيد المسيح، فحملت به ووضعته بمحض إرادة الله ومن دون سبب ظاهر.

أساطير حول التضامن القومي وحروب القبائل

تتضمن الصين قوميات كثيرة، وتاريخها هو تاريخ اندماج هذه القوميات. وقد تأسست الحضارة الصينية على عملية دائمة ومستمرة من اندماج القوميات، وكانت حروب القبائل هي القوة الدافعة خلف تلك العملية؛ وقد انعكست عملية الدمج المبكرة تلك على الأساطير الصينية، حيث ظهرت أساطير الحروب الصينية القديمة خلال عملية الدمج القومي تلك.

لا شك في أن الحرب من أهم الأحداث التي أدت إلى اندماج الشعوب وتطور الأمم. وقد انبثقت عن الحروب في شتى أصقاع العالم أساطير وملاحم شعرية مثل الإلياذة التي ألفها هوميروس في اليونان القديمة، وغلغامش في بابل القديمة، وكل من المهابهارتا والرامايانا في الهند القديمة، وأغنية السيد في إسبانيا القديمة، وغيرها الكثير... أما في الصين، فقد أتت معظم أساطير الحروب القديمة من الأقليات العرقية. فعلى سبيل المثال، لقد تم حفظ الأساطير القديمة التي تداولتها قومية هان حول الحروب القبلية في أعمال كلاسيكية تعود إلى أوائل حقبة سلالة تشين مثل «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار» و«هواينانتسي»، ولكنها لا ترقى إلى درجة أن تكوِّن ملاحم ضخمة حول أبطال الحرب. فعلى سبيل المثال، إن قصص الحرب بين الإمبراطور هوانغ والإمبراطور يان، وكذلك بين الإمبراطور هوانغ وتشي يو ليست ملاحم تامة كما هو الحال في أساطير الحرب الغربية، ولكنها تعكس اندماجاً بين قبائل متعددة.

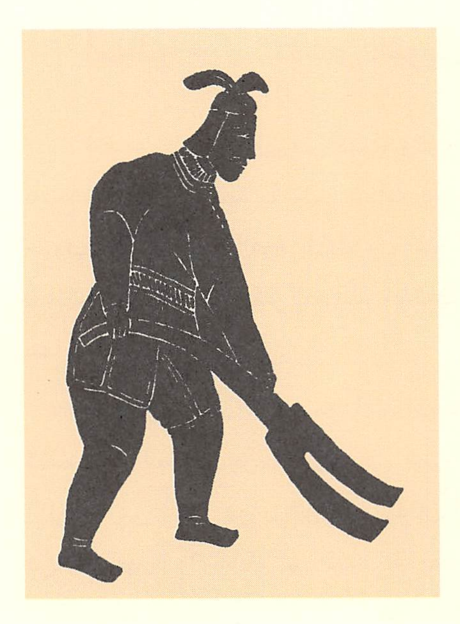
كما كانت السهول الوسطى يوماً ما تردد صدى صرخات الصينيين القدامى المتحاربين على العرش، والذين تركوا آثار خطاهم على كامل مساحة تلك السهول الشاسعة. ولعل رؤساء قبائل مثل الإمبراطور يان (الصورة 3-12) والإمبراطور هوانغ (الصورة 3-13) وتشي يو وقونغ قونغ وشوان شو كانوا قادة حرب أو أبطالاً فيها. وبعد مدة طويلة من النزاع والدمج، تشكلت ثلاث مجموعات قبلية في الصين قادها الإمبراطور هوانغ والإمبراطور يان وتشي يو.

قيل إن الإمبراطور هوانغ ولد لعائلة الزعيم القبلي شاو ديان وزوجته جياو في تلك الأزمنة القديمة، وتبيّن أنه ذكي للغاية حين كبر وبلغ أشده. بينما تقول رواية أخرى إن الرعد والبرق أغويا فتاة تدعى فو باو، فحملت، وبعد خمسة وعشرين شهراً من الحمل



الصورة 3-12 «رسم للإمبراطور يان»

الإمبراطور يان، ويدعى الإمبراطور الأحمر أيضاً، كان زعيماً في قبيلة جيانغ في الماضي البعيد، وكان يُحسِن استخدام النار، لذا أُطلِق عليه اسم «يان»، أي «النار». بدت علامات الذكاء على الإمبراطور يان منذ صغره، فقد تعلم الكلام وعمره لم يتجاوز ثلاثة أيام، كما تعلم المشي وعمره خمسة أيام. وفي الوقت الذي بلغ فيه الثالثة من عمره، كان قد أتقن فن الفلاحة، فكان هو من اخترع علم الفلاحة، بل وأُطلِق عليه اسم إله علم الفلاحة. وبعد أن تعرضت قبيلته للهزيمة على أيدي أفراد قبيلة الإمبراطور هوانغ، اندمجت قبيلته مع تلك الأخيرة. لذا، إن كلاً من الإمبراطور هوانغ والإمبراطور يان هما والدا الشعب الصيني.



الصورة 3-13 «رسم للإمبراطور هوانغ»

عاش الإمبراطور هوانغ- الذي يحمل الاسم العائلي قونغ سون- في جيشوي، وغير اسم عائلته إلى جي، قبل أن ينتقل إلى هضبة شوانيوان. لذا يُطلَق عليه أيضاً اسم شوانيوان. وقد كان هوانغ زعيماً قبلياً، ومن خلال الحروب القبلية وحّد الصين الوسطى، وأسّس للاندماج القومي الذي وُلِدت منه أمة الصين.

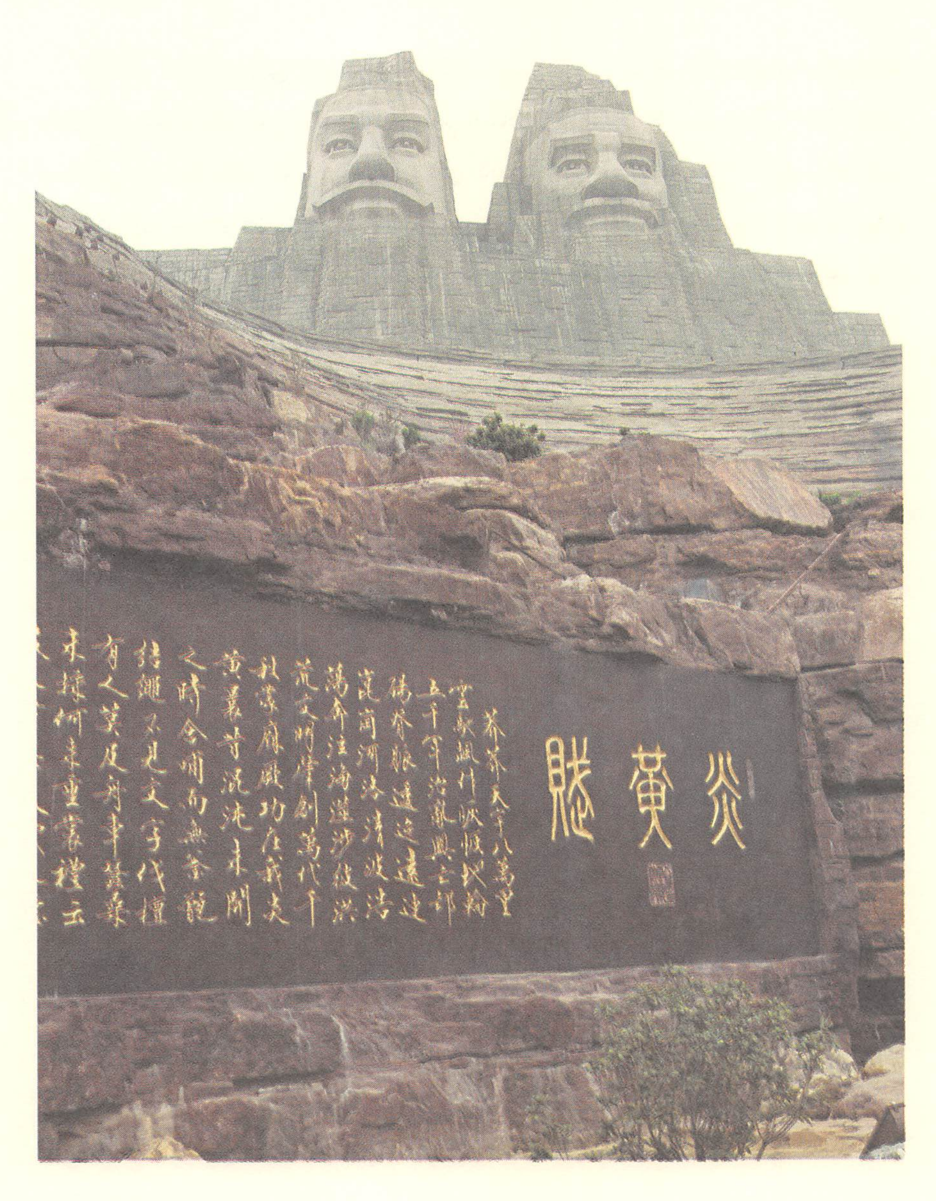
أنجبت الإمبراطور هوانغ. عاش الإمبراطور هوانغ في بادئ الأمر قرب جيشوي (منطقة نهر وي في مقاطعة شانشي الحديثة)، واستقر في تشولو (مناطق تشولو وهوايلاي في مقاطعة خهبي الحديثة). أما الإمبراطور يان فقيل إنه وُلِد لأن نيوي دنغ، إحدى المحظيات الإمبراطوريات لشاوديان، تعرضت للإغواء من قبل تنين مقدس، وحين وُلِد الإمبراطور يان قيل إنه كان لديه رأس ثور وجسم إنسان، وإن تسعة ينابيع انبثقت من الأرض فور ولادته. كانت جيانغشوي في الغرب (والتي تدعى اليوم باوجي في مقاطعة شانشي) في الأصل أراضي الإمبراطور يان.

كانت قبيلة جيولي قبيلة قوية، وكان زعيمها تشي يو قاسياً وعدوانياً بطبيعته، وقيل عنه هو أيضاً إن لديه رأس ثور وجسم إنسان، وإن القرن على رأسه كان حاداً بشكل استثنائي حيث لا يكاد يقهر، أما الشعر على أذنيه فكان حاداً كشفرات السيوف. كما قيل عنه أيضاً إن لديه واحداً وثمانين أخاً لديهم رؤوس بشر وأجسام وحوش، وإن رؤوسهم مصنوعة من النحاس وجباهم من الحديد، وإن طعامهم كان الرمل والحجارة. كما كانوا بارعين للغاية في صناعة الأسلحة، فحققوا انتصارات كثيرة.

لم يكن ثمة مهرب من اصطدام هذه القبائل الثلاث الكبرى. لذا، اندلعت الحرب حين هاجمت قبيلة تشي يو القوية الإمبراطور يان الذي تعرض للهزيمة، فاضطر للخروج من جيويوي التي يعتقد البعض أنها في الواقع جيوتشو. في الواقع، لقد كانت قبيلتا الإمبراطورين يان وتشي يو القبيلتين الأوليين اللتين دخلتا المنطقة الوسطى من النهر الأصفر، أما قبيلة الإمبراطور هوانغ فقد أتت لاحقاً.

وبعد الحرب في جيويوي، تحاربت قبيلة الإمبراطور يان مع قبيلة الإمبراطور هوانغ؛ حيث جرت معركة بانتشوان الشهيرة. ويقال إن الإمبراطور يان كان بارعاً للغاية في الهجوم بالنار، فهاجم الإمبراطور هوانغ بغتة، وحاصره بالنيران التي أصدرت دخاناً كثيفاً خارج مدينة شوانيوان حيث يقطن الإمبراطور هوانغ. عندها، أرسل الإمبراطور هوانغ شخصاً يدعى يينغ لونغ لإطفاء النيران. وبعدها، قاد الإمبراطور هوانغ رايات تحمل طواطم الدب الأسود والدب البني ومخلوقَي بيشيو وتشو الأسطوريين والنمر إلى ساحة المعركة في بانتشوان (ويختلف المؤرخون في ما إذا كانت موجودة اليوم في مقاطعة شانشي أو خهبي) لقتال الإمبراطور يان، وأمر النسر والعقاب بأن يهاجما جنود الإمبراطور يان من الجو، فيما أمر أتباعه بأن يستخدموا عقولهم وشجاعتهم في القتال، وأن يحاولوا عدم المغامرة بحياتهم. وبعد ثلاث معارك متتالية، انتصر الإمبراطور هوانغ على الإمبراطور يان، فما كان من الأخير إلا أن استسلم لخصمه، واندمجت القبيلتان وتحوّلتا إلى الأمة الصينية. (الصورة 3-14)

بعد هذا الاتحاد، كان على قبيلتَي يان وهوانغ أن تواجِها عدواً مشتركاً وهو القبيلة التي يقودها تشي يو، فاندلعت حرب شرسة بين تلك القبائل. وكانت قبيلة تشي يو قوية للغاية، وتعرف تقنية ممتازة لصهر المعادن، كما كانت بارعة في صنع الأسلحة، ولديها نقاط تفوق عديدة في بادئ الأمر. ويُقال إن تشي يو قاد إخوته البالغ عددهم واحداً



الصورة 3-14 «تمثالا الإمبراطورين يان وهوانغ، ونقش لقصيدة يان وهوانغ»، من بقعة ذات مناظر رائعة في جبل مانغشان في تشنغتشو، مقاطعة خهنان (تصوير نيه مينغ)

وثمانين للهجوم على الإمبراطور هوانغ، كما أغرى شياطين ووحوش وشعب مياو في الجنوب للانضمام إليه ومساعدته. أما الإمبراطور هوانغ فقد قاد يينغ لونغ وفنغ هو وكذلك حَمَلة طواطم الدب والذئب والنمر والنسر والتنين والبوم في حربه ضد تشي يو.

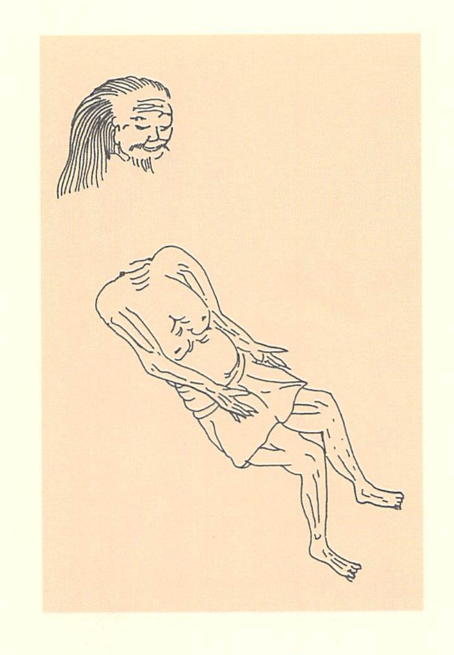
جرت معركة طاحنة في تشو لو، وقد تمكّن تشي يو خلالها من التحكم بالرياح والمطر والدخان والضباب، وكذلك دعا إله المطر كي ينزل المطر، وإله الرياح كي يجري الرياح في صفوف جيش خصمه، فتمكن من إلحاق الهزيمة بالإمبراطور هوانغ تسع مرات متتالية. لكن في وقت لاحق، تمكن أتباع الإمبراطور هوانغ من اختراع العربة ذات البوصلة التي قادت قواته بنجاح للخروج من الضباب الذي جعله تشي يو يحيط بالجيش، كما نفخوا في نفير مصنوع من قرن الثور أخاف وحوش تشي يو وجعلها تذهب بعيداً. كما دعا الإمبراطور ابنته با (الصورة 3-15) التي كان رأسها الأصلع يبث نوراً ساطعاً كي تنضم إلى القتال، فأزالت العاصفة العنيفة فوراً. وأخيراً، قرع الإمبراطور هوانغ على الطبل المصنوع من جلد الوحش كوي، فحطّم صوته المرعد معنويات قوات العدو الذي لاذ بالهرب إلى كل حدب وصوب. وتمكّن الإمبراطور هوانغ من أسر تشي يو وقتله في تشو لو (الصورة 3-16) مُحرِزاً النصر الحاسم أخيراً.



الصورة 3-15 «با»، من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب حول شمال داهوانغ» (نسخة وانغ) (نسخ تسنغ شو تسونغ)

بحسب ما ذكره «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار»، كانت با- التي ترتدي الزي الأزرق- ابنة الإمبراطور هوانغ، وحين قام تشي يو بغزو أراضي قبيلة الإمبراطور هوانغ، طلب الإمبراطور من يينغ لونغ أن يقاتل تشي يو في جيتشو. دعا تشي يو إله المطر وإله الرياح كي يضربا جيش الإمبراطور هوانغ بالرياح والمطر، فعانى جيش الأخير منهما كثيراً. ولكن الإمبراطور هوانغ دعا با كي تفرّق الرياح والمطر. وبعد هزيمة جيش تشي يو، لم تعد با إلى السماء، وصار الجفاف يحلّ في أي مكان تذهب إليه.

تعطينا هذه الأسطورة التي ذكرناها لمحة عن اندماج القبائل وتوحّدها. ولعل قصة إخوة تشي يو البالغ عددهم واحداً وثمانين أخاً تكون رمزاً لإحدى وثمانين قبيلة



الصورة 3-16 «قطع رأس تشي يو على يدّي الإمبراطور هوانغ»، من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب حول شمال داهوانغ» (نسخة وانغ) (نسخ تسنغ شو تسونغ)

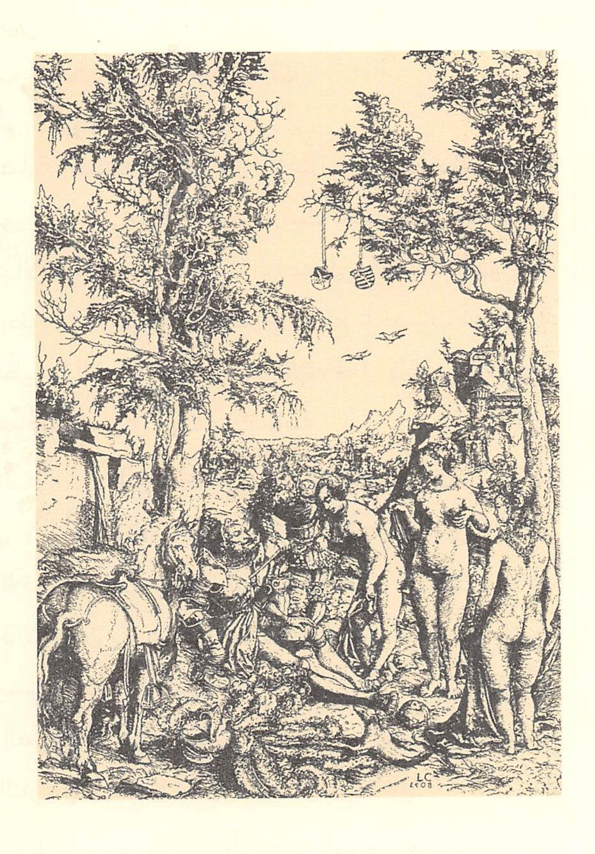
قيل إن تشي يو كان لا يقهر؛ فقد كان بارعاً في استخدام السيف والبلطات والبلطات ذات الخناجر. وبعد مقتله، قطع الإمبراطور هوانغ رأسه ودفنه، فتحول الرأس إلى غابة من شجر القيقب الأحمر كالدم، فجعل الإمبراطور هوانغ من تشي يو إلهاً للحرب، ورسم صورته على أعلام جيشه.

كانت تابعة له. أما طواطم الدب الأسود والدب البني والذئب والنمر والنسر والتنين والبوم التي قدّمها الإمبراطور هوانغ فلعلها بدورها ترمز إلى القبائل التي تستخدم طواطم هذه الحيوانات.

بعد انتصاره على تشي يو، زحف الإمبراطور شرقاً حتى وصل إلى جبل تاي، ولم يعد إلى الغرب إلا بعد أن أجرى «احتفال العبادة في جبل تاي». وفي الوقت ذاته، اختار زعيماً محترماً من قبيلة دونغيي ليقود قوات جيويي، واندمجت قبيلة دونغيي تدريجياً مع الأمة الصينية.

تقول لنا الأساطير اليونانية إن حرب طروادة استمرت لعشر سنوات، وإن سبب الحرب المباشر كان يتعلق بالحب والغرام؛ أي له علاقة بحب امرأة تعتبر آية في الجمال وتدعى هيلين. بل كان السبب الأصلي للنزاع أقل جدارة بالتصديق؛ وهو أن ثلاثة آلهة من الإناث تنازعن فيما بينهن حول أي منهن الأكثر جمالاً (الصورة 3-17)، فدفع البشر ثمن هذا النزاع والغضب بينهن. وتذكر الأسطورة أن سبب الحرب ونتيجتها كانا أولاً وأخيراً نتيجة تحكّم الآلهة، في رواية لا يمكن لمن حللها إلا أن يستنتج أنها كانت حرباً كارثية بالنسبة إلى البشر، ولا لأي سبب إلا رغبات الآلهة الأنانية.

وبالمقارنة مع ما ذكرناه، إن تعامل الأساطير والخرافات الصينية مع الحرب ظل جدياً، كما بقيت أسباب الحروب أخلاقية إن لم تكن مستقيمة ونزيهة؛ فما أدى إلى نزاع الإمبراطور هوانغ مع الإمبراطور يان كان الخلاف حول فلسفة الحكم. أما حربهما مع تشي يو فقد كانت نتيجة قسوة هذا الأخير ووحشيته. كذلك لم يكن إضفاء لقب «إله الحرب» عليه إلا تأليهاً لزعيم القبيلة هذا. إذ إن أولئك الشخصيات الذين يجمعون في



الصورة 3-17 «امتحانات باريس»، رسم للوكاس كراناش (ألماني)

الفارسان في اللوحة هما الأمير الطروادي باريس، وميركوري؛ وهو رسول الآلهة وإله المسافرين في الأساطير اليونانية. وتقف بجانبهما ثلاثة آلهة من الإناث: هيرا وأثينا وأفروديت. وحين أعطى باريس أفروديت التفاحة، كان قد اختارها كأجمل الآلهة. وقد أغضب هذا الفعل الإلهتان الأخريان ودفعهما إلى السعي إلى الانتقام.

أجسامهم بين صفات البشر والحيوانات، وكذلك الآلهة والأبطال وعلى رأسهم الإمبراطور هوانغ جميعهم يعكسون عادات عبادة الحيوانات ذات الأجساد القوية في الأزمنة القديمة. ولكنّ المزج بين صفات الحيوان والإنسان يعكس أيضاً نزعة إنسانية قوية موجّهة نحو أشخاص نالوا احتراماً واسعاً نتيجة مساعدتهم للجنس البشري ككل، كما أنه يعكس الحياة الصعبة التي كان الأقدمون يعانون منها. وبالمقارنة مع هذه الصور، كانت صور الشخصيات الأسطورية في الغرب ممثلة في زيوس تتمتع بأجسام قوية وجميلة تعكس سعي الغربيين خلف الجمال الحسي.



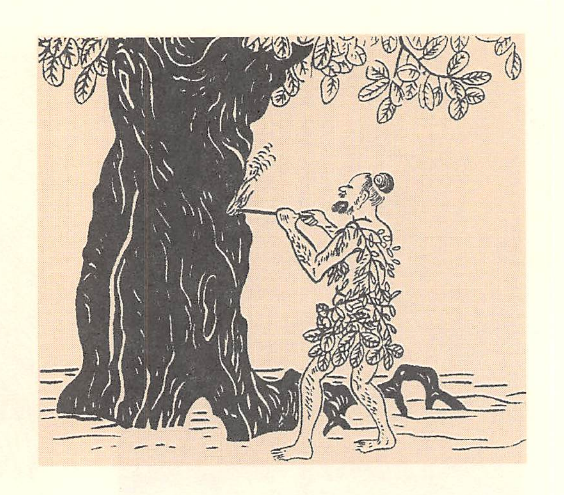
أساطير السعي خلف الحضارة والاختراعات

شهدت عملية تطور الحضارة الصينية الكثير من الاختراعات التي مثّلت تبلور حكمة الأقدمين، وأدّت إلى تطور كبير في حياة الناس، وأرست أسس الحضارة. لذا، ما كان من الناس إلا أن عبدوا هذه الاختراعات التي جلبت الراحة إلى حياتهم، وألّهوا دون وعي عملية الاختراع نفسها، وربطوا عدداً كبيراً من الاختراعات مع شخصيات أسطورية. وإذا قورنت الأساطير الصينية بنظيرتها الغربية التي ترد إلى الإله فعل كل شيء، فسنجد أن الأساطير الصينية تركّز على مبادرة الناس والحكمة الإنسانية.

فقد مكّن ترويض النار الناسَ من طبخ الطعام، والحفاظ على الدفء، وإضاءة الظلمات، والدفاع عن أنفسهم، كما غيّر نظام البشر الغذائي برمته وطرائق عيشهم، وسرّع كثيراً من نمو الحضارة الإنسانية. وقد فهم الناس أهمية النار، بل لطالما قاموا بعبادتها قائلين إن «هذه المادة لا بد أن يكون مصدرها من السماء». لهذا، نرى قصصاً مثل أسطورة بروميثيوس وهو يسرق النار من السماء ويرسلها كهدية إلى البشرية عند الإغريق القدامى، أما الأسطورة الصينية الأوسع انتشاراً بين الصينيين القدامى حول صنع النار فهي قيام سوي رن بصنع النار من خلال ثقب الخشب. (الصورة 3-18)

وبحسب ما ورد في كتاب «شي يي جي» الذي ألّفه وانغ جيا من عهد سلالة جين الشرقية، كان هناك بلد يُدعى سويمينغ في أقصى الغرب، ولم يكن من الممكن العثور على أي نور للشمس أو القمر في ذلك البلد؛ لذا لم يكن الناس قادرين على التمييز بين الليل والنهار، فكيف كان الناس ينيرون حياتهم؟ تبين أنه كانت لديهم شجرة تدعى سويمو، وكانت في غاية الضخامة، حيث إن ظلتها هائلة لدرجة أنها كانت تغطي مساحة 10,000 تشينغ من الأرض. كان عدد كبير من الطيور يعيش على تلك الشجرة، وحين كانت الطيور تنقر خشب ساقها، كانت تصدر شرارات وامضة من النار، فاعتمد الناس عليها لأجل الإنارة. في أحد الأيام، سافر رجل حكيم عبر تلك الأراضي، فرأى طائراً ينقر الشجرة ويُصدِر الضوء، وألهمه ذلك أن يُجرّب ثقب الأغصان بجسم قاسٍ حتى انبعثت الشرارات، ثم عاد لاحقاً إلى الصين حاملاً معه سر صنع النار، وعلّمه للناس الذين خلّدوا ذكراه من خلال تشريفه بإطلاق اسم سوي رن عليه.

قالت الأساطير اليونانية القديمة إن النار جاءت من السماء. فقد تعطف بروميثيوس



الصورة 3-18 «سوي رن يقوم بثقب الخشب لصنع النار»، رسم توضيحي من مجلة تصويرية في عهد سلالة تشينغ

يظهر في الرسم سوي رن وهو يقوم بثقب الخشب لصنع النار، وقد علّم هذه الطريقة للبشر لاحقاً. ومنذ ذلك الوقت وصاعداً تعلم الناس كيفية صنع النار، ودخلوا مرحلة جديدة من الحضارة. ثمة مقولة يتداولها الناس في شانغتشيو في مقاطعة خهنان حول صنع سوي رن للنار من خلال ثقب الخشب: حينما كان سوي رن يصطاد في الغابة، رأى الحجارة التي ألقاها على حيوان تضرب صخور الجبل وتصدر الشرارات، وقد ألهمته هذه الظاهرة، فضرب حجراً بحجر، واستخدم الشرر ليصنع النار.

على البشرية وسرق النار من عجلات اللهب من العربة الشمسية وأعطاها للبشرية. أما الأساطير الصينية فقالت إن النار قد انبثقت عن العالم الإنساني نتيجة المراقبة، واستخدام رجل حكيم لحكمته في الحياة اليومية. إن نار بروميثيوس في الأساس هديةٌ قدمها إنسان، أما أسطورة سوي رن فتعكس قدرة الإنسان على الإبداع.

كما كان اختراع الكتابة أيضاً من الأحداث الكبرى في تاريخ الحضارة الإنسانية. إذ لا يمكننا القول إن الإنسانية قد تحولت بالفعل إلى مجتمع متحضر إلا مع اختراع الكتابة. وتردِّد الأساطير الصينية قصة واسعة الانتشار حول قيام تسانغ جيه باختراع الحروف الصينية.

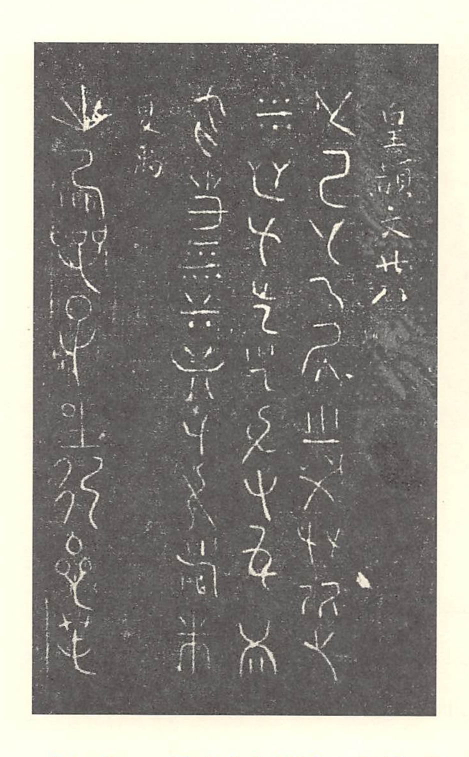
قالت تلك الأساطير إن تسانغ جيه كان من مسؤولي دولة الإمبراطور هوانغ، وكان غريب المظهر؛ إذ كان لديه وجه يشبه وجه التنين، وأربعة عيون لامعة (الصورة 3-19). راقب تسانغ جيه النجوم والأرض والجبال والأشكال على ظهور السلاحف وآثار أقدام الحيوانات والطيور، ومن خلال مراقبته تلك قام باختراع الحروف. وقد صدم اختراعه ذاك الآلهة السماوية وأخاف الأشباح. وتمثّل هذه القصة المحيّرة نشأة الروح العقلانية لدى البشر، وتُظهِر أن المعرفة تقهر الجهل. فبفضل الكتابة، طوّر البشر وعيهم الحضاري، حيث لم تعد الخرافات القديمة تحكمهم.

تطوّرت الكتابة بالحروف الرمزية (الصورة 3-20) عبر عملية طويلة من التلخيص



الصورة 3-19 «تسانغ جيه» (نسخ تسنغ شو تسونغ)

تسانغ جيه هو مخترع حروف الكتابة بالصور. وقد اعتقد الصينيون القدامى أن الأشخاص العظماء كانوا مختلفي الشكل، ولمعان عيون تسانغ جيه الأربع هو من نور الحكمة.



الصورة 3-20 «صورة بالفرك بالورق على نقش حجري للحروف التي اخترعها تسانغ جيه» في روتشو، مقاطعة خهنان (تصوير نيه مينغ)

يوجد في معبد تسانغ جيه الذي شُيِّد في حقبة سلالة هان نصب تذكاري يحتوي على 28 حرفاً غريباً يُقال إن تسانغ جيه كان أول من اخترعها.

والمراكمة، وهي تمثِّل مجموع حكمة الشعب الكاتب باللغة. وقد قام أشخاص كثيرون في التاريخ بمحاولات لتلخيص الحروف وبناء معايير لها، ولعل تسانغ جيه كان أحدهم. ويقوم الناس بتخليد ذكرى تسانغ جيه من خلال عبادته في موسم قويوي جيلاً بعد جيل.

كان اختراع البيوت والإسكان أيضاً من الخطوات المهمة للغاية في توجّه البشرية نحو الحضارة. وفي الأساطير الصينية، يُنسَب هذا الاختراع إلى رجل قديس. ويُقال إن البشر الأوائل كانوا يعيشون مثل الحيوانات في الكهوف، وكانوا يتنازعون مع الحيوانات الأخرى على مساحات العيش. وقد ظل الأمر كذلك حتى ظهر قديس يُدعى يوتشاو لمعت في رأسه فكرة بعد أن رأى عصفوراً يبني عشه، فقلّد العصفور وبنى على الأشجار



الصورة 3-21 «رجال بدائيون يعيشون في مبانٍ تشبه الأعشاش»، رسم من حقبة سلالة تشينغ

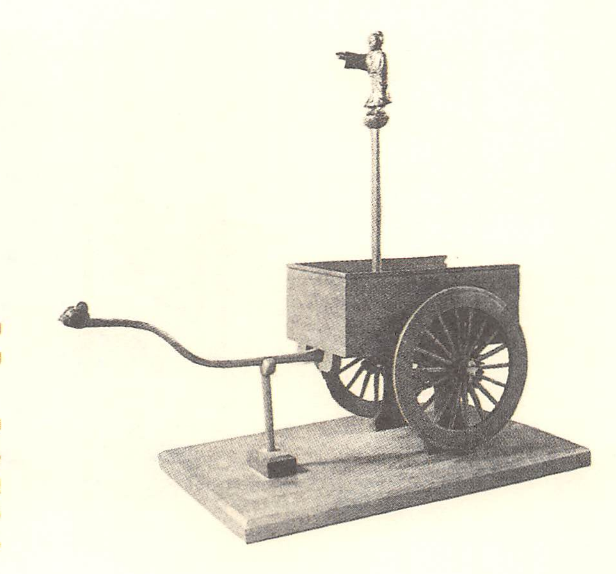
يوتشاو (وهي كلمة تعني «من لديه عشّ») هو مخترع مباني الأعشاش. وبحسب كتاب «هانفيتسي»، كانت الكثير من الوحوش والحشرات والأفاعي تسكن الأرض في الماضي الغابر، وكان الناس يخشون هذه المخلوقات وينزعجون منها. وكان من بين الناس رجل حكيم قادهم إلى بناء منازل لا تستطيع الوحوش والحشرات والأفاعي إيذاءهم فيها. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، عاش الناس حياة آمنة نوعاً ما، وقد بجّل الناس الرجل الحكيم وأطلقوا عليه اسم يوتشاو.

منزلاً يشبه العش، وبدأ البشر في السكن على الأشجار مثل الطيور لتجنب مخاطر الوحوش والرطوبة على الأرض (الصورة 3-21). ومع أن العش في الشجرة من دون ريب أكثر تقدماً من الكهف، إلا أن العيش في الأشجار لم يكن مريحاً. وفي وقت لاحق، اخترع الإمبراطور هوانغ المنازل المبنية على الأرض.

من الجدير بالملاحظة أن الإمبراطور هانغ وأتباعه نالوا الفضل الأكبر في الاختراعات بحسب الأساطير الصينية القديمة. وقد مرّ معنا أن الإمبراطور هوانغ كان يدعى شوانيوان أيضاً، ويُنسَب إليه اختراع العربات. وبناء على اختراعه هذا يُنسَب إلى تابعه فنغ هو اختراع العربة ذات البوصلة (الصورة 3-22) لمساعدة الإمبراطور في تحقيق النصر في الحرب. وبالإضافة إلى ذلك، يُنسَب إلى الإمبراطور هوانغ فضل اختراع المرجل للطبخ والمصيدة للمساعدة في الإمساك بالحيوانات، كما يُنسَب إلى تابعه يونغ فو اختراع الهاون والمدقة لسحق الحبوب، ويُنسَب إلى بو يوي فضل اختراع الثياب التي تحمي الناس من البرد في الشتاء. وكذلك كانت لي تسو- زوجة الإمبراطور هوانغ- هي التي بدأت بتربية دودة القز؛ ما أدى إلى نشأة صناعة الحرير.

كما اخترع الإمبراطور يان أيضاً الكثير من الأشياء، وكان ثاني أهم جد للحضارة الصينية بعد الإمبراطور هوانغ. وأهم أسطورة اختراعات وردت عن الإمبراطور يان كانت





الصورة 3-22 «العربة ذات البوصلة القديمة»، نموذج

يقف على العربة رجل منحوت من الخشب، وهو يشير دائماً إلى الجنوب؛ بغضّ النظر عن الاتجاه الذي تتحرك العربة إليه. ويُقال إن هذه العربة كانت من اختراع فنغ هو، وزير الإمبراطور هوانغ، وتشبه في طريقة عملها البوصلة.

عن اختراعه للزراعة. فحين بدأ الناس بالزراعة، أدى ذلك إلى تطور الحضارة إلى حد كبير. يُعرَف الإمبراطور يان أيضاً باسم شن نونغ، ويُعتبر واحداً من الملوك الثلاثة مع نيوي وا وفو شي.

وكان الإمبراطور يان هو من اخترع تقنية صهر المعادن والفؤوس. ومن خلال استخدامه الفأس لتقطيع الخشب اخترع المجرفة والمحراث للزراعة (الصورة 3-23)، وهما اللذان حسّنا من قدرات الإنتاج الزراعي. كما أُطلِق عليه اسم «إله الطب»، لأن اختراع الطب الصيني القديم نُسِب إليه، وثمة قصة شهيرة في الأساطير الصينية حول «تذوّق شن نونغ لمئة عشبة».

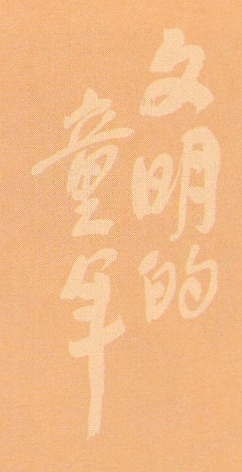
إذاً، يبدو أن الإمبراطور هوانغ والإمبراطور يان نالا كامل الفضل على الاختراعات القديمة. ولكن الحقيقة هي أن الكثير من تلك الاختراعات كان نتاج مراكمة الحكمة والمعرفة جراء تجارب أجيال وأجيال امتدت عبر حقبات طويلة من تاريخ الإنسانية. ولكنّ أحفاد أولئك الشخصيات نسبوا كل شيء لأولئك الأسلاف. ففي عقلية فجر الحضارة، لم يكن بمقدور أحد أن يُحقِّق إنجازات سحرية كتلك إلا إذا كان قديساً أو إلهاً، فمن غير القديسين أو الآلهة يقدر على فعل ذلك؟!



الصورة 3-23 «الثاني من شباط في التقويم القمري»، صورة للسنة الجديدة من حقبة سلالة تشينغ

تُظهر الصورة الإمبراطور وهو يقود وزراءه للقيام بأعمال الزراعة في أوائل الربيع. وتظهر بقرة ذهبية في أسفل الصورة وهي تجر محراثاً خشبياً كالذي اخترعه الإمبراطور يان، وتستخدمه لحراثة الأرض. وبحسب الأساطير الشعبية، في الثاني من شباط في التقويم القمري، يرفع الملك التنين المسؤول عن السحب والأمطار رأسه، فتهطل كميات متزايدة من الأمطار بدءاً من ذلك اليوم؛ وهو أمر جيد للحرث في الربيع. لذلك، إن ذلك اليوم يدعى عيد تشونغخه، أو عيد تنين الربيع. وفي ذلك اليوم، يقوم الأباطرة بممارسة العمل الزراعي بأيديهم لتشجيع الشعب على الزراعة؛ وهي عادة مستمدة من الإمبراطور يان الذي قاد شعبه إلى القيام بالأعمال الزراعية.

لم تكن أساطير الاختراعات المتداولة في الحضارة الصينية خرافية بقدر الأنواع الأخرى من الأساطير. فمعظمها كان وصفاً خرافياً لعملية اختراع واقعية؛ وهكذا تولّدت تلك الأساطير على أساس الممارسة الواقعية. لذا، إن جذورها ضاربة في أرض الواقع، كما أنها مُعبِّرة عن حكمة الناس الجماعية. ومع أن معظم الاختراعات قد نُسِبت إلى شخصيات خرافية، إلا أن أولئك لم يكونوا إلا «نسخاً مؤلهة» لحكماء حقيقيين وُجِدوا في الماضي. وبعبارة أخرى، لقد كانت علاقة تلك الشخصيات مع الجماهير قوية للغاية، ولم يكن اختراعها أمراً منفصلاً عن العمل الشاق الذي يقوم به الناس، بل كان مرتبطاً أشد الارتباط مع حاجات الناس وآمالهم ورغباتهم في تحسين معيشتهم. لذا، إن تلك الأساطير إنسانية إلى أقصى غاية، وتختلف تماماً عن الأساطير الغربية المرتكزة على الآلهة.



الأساطير والخرافات الصينية

الفصل الرابع

لن توقفَ المصاعبُ التقدم
– أساطيرَ حول الأبطال والكوارث

| أساطير تمجِّد العمل الشاق والتفاني

تجسد الأساطير والخرافات روح الصين القومية. إذ مرّ الشعب الصيني بالكثير من المشاقّ والمصاعب في تاريخه، فارتقت الروح القومية والإرادة الشعبية في الصين من خلال الصراع. إن المصائب والكوارث التي تذكرها الأساطير الصينية تعكس في الواقع ذكريات الصينيين القدامى حوال كوارث حقيقية، وتحوّل الأبطال الذين برزوا أثناء تلك الكوارث كأبطال للأساطير.

لقد استنتج دارسو الحضارة اليونانية القديمة أنها في الواقع «حضارة محيطية»، أي أن حقيقة البحر المحيط المتغيرة والحياة المريحة نسبياً التي عاشها اليونانيون القدامى دفعتهم إلى التعرف إلى ضعف الطبيعة البشرية، فبنوا عالماً أسطورياً يشارك فيه الآلهة في نقاط ضعف الإنسان، ويُظهِرون صفات بشرية مثل الأنانية والكسل والطمع (الصورة 4-1). أما الحضارة الصينية فهي حضارة زراعية بامتياز، ولذلك تتميز بالنزعة العقلانية التي تنعكس على صفات مثل النظام والتخطيط والخوف من الكوارث. وبما أن الصينيين القدامى كانوا بحاجة إلى «آلهة تحمل المسؤولية»، لذا نرى أن الأساطير الصينية تصف الآلهة بأنها جادة في عملها، ونزيهة في فضيلتها، وتنزع إلى صالح الناس العام. ونرى هذه الصفات تتكرر لدى جميع الأبطال الذين ذكرتهم تلك الأساطير وكذلك لدى الآلهة مثل بان قو ونيوي وا وفو شي والإمبراطور يان والإمبراطور هوانغ وياو وشون ويوي.

حين خلق بان قو الكون أصبحت أعضاء جسمه أجزاء من العالم. وما صار وجود العالم ممكناً إلا نتيجة تضحيته بنفسه. وإن أساطير الملوك الثلاثة والأباطرة الخمسة أيضاً تشير جميعها إلى قادة عظام، حازوا قلوب الناس من خلال عملهم للصالح العام واتباعهم قوانين الطبيعة، فتلقوا تمجيداً كبيراً من الأجيال التالية واحداً بعد الآخر.

وبعد أن ضرب قونغ قونغ جبل بوتشو، تهاوى العالم نتيجة الأمطار الغزيرة والفيضانات، وهربت الحيوانات إلى كل حدب وصوب، وعانى الناس فقط ليبقوا أحياء. لكنّ أم البشرية نيوي وا تولت مسؤولية إنقاذ البشر؛ إذ قررت إصلاح السماء من خلال صقل الحجارة (الصورة 4-2)، فزارت الجبال والبحار باحثة عن الحجارة الزرقاء والصفراء والحمراء والبيضاء والسوداء التي تحتاج إليها لإصلاح السماء، واستعارت النار من السماء لتذيب الحجارة وتصقلها. وبعد الكثير من العمل الشاق، نجحت في إصلاح السماء





الصورة 4-1 «كائنات الساتير تطارد جنيات ديانا»، رسم زيتي للفنان السويسري آرنولد بوكلين

كانت كائنات الساتير آلهة الغابة، وشكلها مزيج من شكل الإنسان والحصان (وتحولت عند الرومان إلى مزيج من الإنسان والماعز). وقد كانت تلك الآلهة مدمنة على الملذات الجنسية. وفي الواقع، كانت معظم الآلهة اليونانية مليئة بالرغبات والعواطف والشهوات.

وإيقاف المطر. وخلال هذه العملية، أمضت نيوي وا تسعة أيام في جلب 36,501 حجر من الألوان الخمسة المذكورة، وتسعة أيام أخرى وهي تصلح السماء. وفي وقت لاحق، تمكنت من الإمساك بسلحفاة خارقة، وقطعت أرجلها الأربع لدعم أطراف الأرض الأربعة، ثم أحرقت الأعشاب واستخدمت رمادها كي تمتص الطوفان، وأخيراً قتلت الحيوانات التي تؤذي الناس. وبفضل أعمالها الشاقة تلك عاد التناغم إلى السماء والأرض، واستعاد الناس حياتهم وسعادتهم.

كما خلقت نيوي وا البشر من خلال العمل الشاق أيضاً. وحين يواجه البشر المشاقّ والمصاعب، فإنها بحسب الأساطير تتدخل لتنقذهم. ولعل روحية نيوي وا هذه تكون خير تجسيد للروح القومية في الصين القائمة على الاجتهاد والتفاني. فهي بطلة تُصلح السماء، وأول من تمكن من السيطرة على الطوفانات، وتجسد صورتها هذه رغبة الشعب الصيني القديم الباطنة في ترويض الطبيعة، كما تعكس أسطورة إصلاحها للسماء محاولة الناس تفسير الظواهر الطبيعية المعقدة، ومحبتهم للعمل، ورغبتهم في فهم



الصورة 4-2 «نيوي وا تحمل الحجر لتصلح السماء»، من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار» (نسخ تسنغ شو تسونغ)

تبدو نيوي وا في هذه الصورة كما يمثلها نحت حجري يرجع إلى عهد سلالة هان. ويظهر لديها فيها رأس امرأة وجسم أفعى، وهي تحترق بالنار المشتعلة حولها؛ حيث ترمز النار إلى المشاقّ التي تعاني منها فيما هي تصلح السماء.

الكون والطبيعة، بالإضافة إلى أخلاقياتهم النبيلة التي تشدد على العمل الشاق لصالح الإنسانية جمعاء.

كل سنة، يحتفل الناس في مختلف مناطق الصين بعيد تيانتشوان تخليداً لذكرى نيوي وا. وفي ذلك اليوم، يصنع الناس الفطائر ويضعونها على السقوف كرمز لإصلاح نيوي وا للسماء. وفي بعض المناطق، يستخدم الناس دمى الشمس (الصورة 4-3) لإيقاف المطر؛ فحين تمطر باستمرار ويخشى الناس الفيضانات يعلقون دمى تمثل نيوي وا على عصا المكنسة، ويحركونها نحو السماء متضرعين إلى نيوي وا، وآملين أن توقِف المطر.

أما بالنسبة إلى قون ويوي، فقد ذكرنا قصتهما سابقاً؛ وهما الأب وابنه اللذان حاولا ترويض الأنهار. ولا شك في أن هذه القصة ترتبط بصالح الناس العام. ومع أن قون فشل ويوي نجح، إلا أنهما يشتركان في تفانيهما وروح التضحية التي يتسمان بها.

وقد ذهب قون إلى حدّ سرقة تربة مقدسة من الآلهة لإنقاذ البشر، فتعرض للقتل



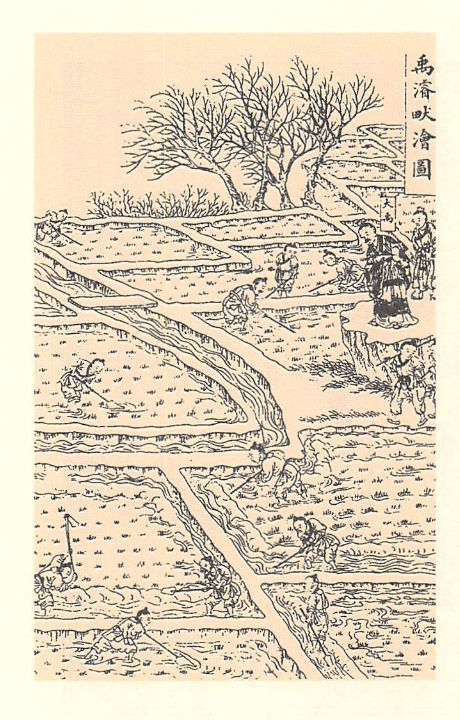
الصورة 4-3 «دمية الشمس»، بحث في الخرافات الصينية في عشرينيات القرن الماضي

حين يكون المطر غزيراً للغاية، يقوم الناس بالتضرع إلى الدمية الشمسية لإيقاف المطر. وقد استخدموا مثال نيوي وا ليصنعوا تلك الدمى على شكلها. فبعد أن أصلحت نيوي وا السماء بزغت الشمس وتوقف المطر. وتعتبر عادة صنع الدمى الشمسية استمراراً لأسطورة نيوي وا وإصلاحها للسماء.

نتيجة عمله هذا، ولكنه لم يندم على فعلته تلك، وشهدت روحه استمرارية في ابنه يوي الذي تابع عمل أبيه. وبعد الكثير من العمل والدراسة، عدّل الطريقة التي استخدمها والده، وحاول حرف مسار الطوفان، بل تحول أيضاً إلى دب ليتمكن من تحطيم الجبال، ولم يعد إلى منزله لمدة ثلاث عشرة سنة سافر خلالها في جميع أرجاء الصين، وأخضع كل الأنهار. وبعد ذلك، قاوم جميع الصعاب، وساعد الناس في العودة إلى حياتهم الطبيعية من خلال توزيع الأراضي عليهم وتعليمهم الزراعة. (الصورة 4-4)

ولأنّ يوي كان يعمل دائماً في الماء، فقد تساقط الشعر عن ساقيه، وتعفّن عقبا قدميه، وصار عليه أن يمشي على عكاز، كما فقد أظافر أصابعه، وبدا نحيلاً مضنّى؛ بخدين متهدّلين، وفم متجعد الأطراف. وثمة عناصر خارقة للطبيعة في هذه الروايات عن السيطرة على الطوفان، ولكن عمله المضني تكلل بالنجاح في آخر الأمر. لقد نال

يوي مكانته الرفيعة كقديس وملك في الموروث الحضاري الصيني عبر عمله الشاق، وليس عبر هدايا الآلهة. (الصورة 4-5)



الصورة 4-4 «يوي العظيم ينشئ نظام ري»، طباعة على كليشيه

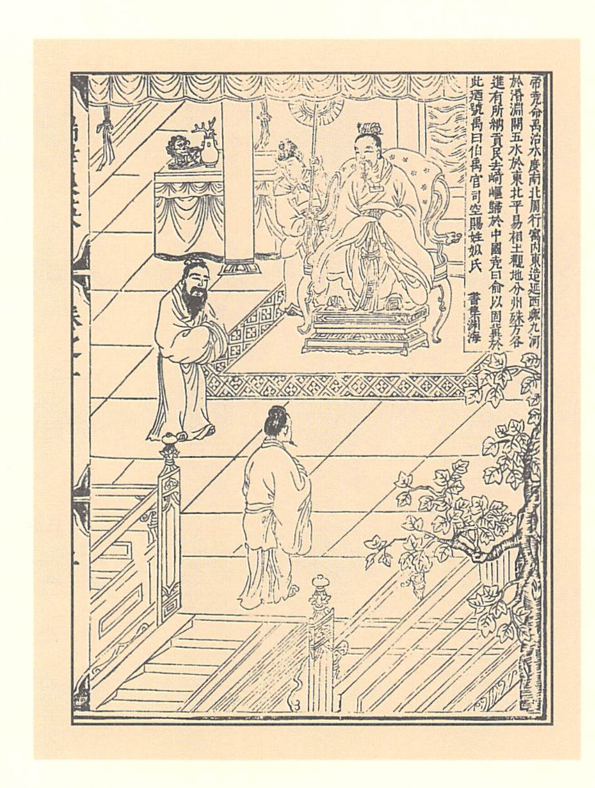
كان يوي العظيم يُري الناس كيف ينشئون نظاماً للري في عمله هذا، وقيل إنه بعد تمكنه من إخضاع الطوفان، طلب من تاي تشانغ وجيان هاي أن يقيسا مساحة الأرض ويقسّماها إلى تسع مناطق، ثم قام هو وهو جي بتعليم الناس كيفية زراعة المحاصيل، وطوّر التجارة كي يتمكن الناس من الحصول على احتياجاتهم المعيشية، وصنع دعامات ذات ثلاث أرجل على أشكال الأشباح والوحوش لتحذير الناس من هذه الأشياء.

توجد قصص عن الطوفان في الروايات اليونانية والعبرانية أيضاً، ولكن الرسالة التي تحملها تلك القصص هي أن الناس إنما هلكوا كعقوبة لهم على ذنوبهم؛ إلا من أطاع الإله. ولكن مضامين تلك القصص ليست فقط عن تفوق الإله ووجوب طاعته، بل أيضاً عن وجوب احترام الناس للطبيعة وسيطرتهم على طمعهم. وبالمقابل، إن الأساطير الصينية لا تذكر مسألة الخطايا وطاعة الإله، بل تركز على كون الناس ضحايا يقوم الأبطال والآلهة بإنقاذهم، ومع أن الآلهة أقوى وأقدر من الناس إلا أن الناس يظلون يلعبون دوراً مهماً في إنقاذ أنفسهم، لذا تظل تلك الأساطير الصينية تعكس روح التفاني والإخلاص والمصلحة العامة حتى بين الآلهة.

على سبيل المثال، قام شن نونغ، أو الإمبراطور يان، بتذوق جميع الأعشاب الطبية حتى يساعد الناس (الصورة 4-6)، وحاول أن يرصد تجاوب جسمه معها جميعها. وكثيراً ما كانت تلك الأعشاب تسممه، حتى إنه كان يضطر إلى المعاناة من العذاب الناجم عن التسمم أكثر من سبعين مرة في اليوم.

راكم شن نونغ تجربة في غاية الغنى عبر حقبة طويلة من الزمن اكتشف بعدها ممرات الطاقة الحيوية الاثني عشر في جسم الإنسان، وألّف حولها كتاباً اسمه: «الكتاب المرجعي في الأعشاب»، ومن خلال ذلك أرسى أسس الطب الصيني التقليدي الذي جلب





الصورة 4-5 «الإمبراطور ياو يكافئ يوي العظيم»

عُيِّن يوي العظيم في منصب سي كونغ، وأُعطِي الاسم العائلي «سي» بعد سيطرته على الطوفانات. وبعد وفاة قون، أوصى شون بتعيين يوي للتحكم بالأنهار، وكانت البلاد تحت حكم الإمبراطور ياو في ذلك الوقت. لكنّ يوي عُيِّن في منصب سي كونغ بعد اعتلاء شون العرش، وقد دُوِّن كل ذلك في «كتاب التاريخ»، حيث ورد: «بعد اعتلاء شون العرش، كافأ الناس الذين قدموا إسهامات عظيمة. وتم تعيين يوي العظيم في منصب رفيع هو سي كونغ بسبب إسهاماته».

النفع للبشرية جمعاء. إن شن نونغ في روحه الإيثارية تلك، وعمله لمصلحة البشرية جمعاء هو إله أقرب إلى صورة الإله اليوناني بروميثيوس. لكن، من بين الفروق بينهما أن بروميثيوس عانى من العذاب من الآلهة الأخرى، أما شن نونغ فقد عانى من العذاب بسبب المهمة التي حملها على عاتقه.

وقد روت لنا الأساطير الصينية القديمة قصص آلهة بطولية تحرس الناس وتضحي بنفسها للحفاظ على سلامتهم. والأعمال الخارقة التي تمارسها تكون عادة نتيجة قواها الخارقة من ناحية، ولكنها أيضاً نتيجة عملها الشاق والجاد من ناحية أخرى. ولا تزال ذكرى تلك الآلهة خالدة في الصين حتى يومنا هذا، ويُظهِر الناس احترامهم وتقديرهم لمساهماتها في حياة البشر.

على العموم، لم تشهد الصين القديمة هيمنة ديانة موحدة عليها. لذا، لم تمرّ



الصورة 4-6 «الإمبراطور يان يجمع الأعشاب الطبية»، من مجموعة محطة أعمال يانبي للآثار الحضارية، مقاطعة شانشي

قيل إن جسم الإمبراطور يان- أو شن نونغ- شفاف، حيث يتمكن الناس من رؤية ودراسة تفاعل جسمه مع شتى الأدوية العشبية. كما تداول الناس قصة عنه، وهي أنه كان يمتلك سوطاً أحمر إذا ضرب به النباتات فإنه سيعرف وظيفتها من خلاله. وبحسب القصص الشعبية المتداولة في شرق سيتشوان، توفي يان بعد أن تذوق نبتة سامة تدعى «العشبة المقطعة للأمعاء».

قصص الآلهة البطولية من جيل إلى آخر ضمن نطاق ديني، بل إن استمرار قصص نيوي وا وشن نونغ وقون ويوي يرجع إلى سببين: الأول هو أن هذه القصص غنية في صورها ومضمونها ومثيرة للاهتمام، والثاني هو أن هذه الآلهة قدمت إسهامات عظيمة للإنسانية.



| الأساطير التي تروج للجهد الدؤوب في سبيل التقدم

إذا سمعت أن شخصاً ما يريد أن يسابق الشمس، فلعل ذلك يدفعك إلى الظن بأنه حالم أو مجنون. وإذا تناهى إليك أن شخصاً ما يريد تحويل الجبال إلى سهول، والسبل الجبلية إلى طرقات معبدة فسوف تعتقد أنه يبالغ في تقدير قدراته. لكن الأساطير الصينية تروي لنا بالفعل قصص أبطال يمتلكون هذه الجرأة؛ مثل قصة كوا فو الذي سابق الشمس، ويوي قونغ الذي أزال الجبال. لقد كان أولئك الأبطال عنيدين ولا يلينون أو يستسلمون، وذوي همة عالية في عملهم، فجسّدوا القدوة التي يسعى الشعب الصيني للاحتذاء بها.

يقال إن كوا فو (الصورة 4-7) كان يعيش في جبل يدعى «تشنغ دو تساي تيان». كان كوا فو طويلاً وقوياً وذا إرادة حديدية. وكثيراً ما كان يمسك بالأفاعي الصفراء الشرسة

الصورة 4-7 «كوا فو يسابق الشمس»، من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب حول ما وراء البحار شمالاً» (نسخة جيانغ) (نسخ تسنغ شو تسونغ)

إن الأفعيين الموجودتين على ذراعي كاو تجعلانه يبدو شجاعاً. ولكن، من النادر أن تكون الشخصيات المرتبطة مع الأفاعي إيجابية في الأساطير الغربية. فعلى سبيل المثال، كانت ميدوسا شخصية مرعبة في الأساطير اليونانية، حيث يتألف شعرها من الأفاعي، وتحوّل نظرة عينيها من تراه إلى حجر.



ويضعها على أذنيه كزينة، أو يلعب بها بيديه. وفي أحد الأيام، كان كوا فو يعمل في الحقول حين رأى الشمس الحمراء تبزغ من الشرق وتتحرك نحو الغرب، فغمره الأمل بأن يتمكن من اللحاق بالشمس، وبدأ بمسابقتها.

تعكس فكرة كوا فو الجريئة إبداع الناس، ومثابرتهم وثقتهم بأنفسهم. ففي الأزمنة القديمة، كان الناس يعون أن الشمس هي مصدر الزمن والحياة في الأرض، ويتداول الصينيون الكثير من الأمثال حول سرعة زوال الحياة الدنيا ووهم مرور الزمن، ويرتبط ذلك مباشرة مع الشمس. وإن محاولة كوا فو للحاق بالشمس والإمساك بها ليست سوى تعبير عن رغبته في العيش إلى الأبد. كما أن سباقه مع الشمس ليس إلا رمزاً لسباقه مع الزمن. وتُظهِر هذه القصة الوعي الذاتي السائد لدى الناس القدامى، وتثمينهم للوقت، وصراعهم مع الطبيعة لتحويلها لصالحهم.

ركض كوا فو من الشرق إلى الغرب الذي تغيب فيه الشمس. ركض تحت الشمس الحارقة من دون توقف، ولمدة طويلة حتى شعر بتعب وعطش شديدين، فشرب كل الماء الموجود في النهر الأصفر ونهر وي، ولكنه ظل يشعر بالعطش، فركض إلى جبل يانمن شمالاً حيث توجد بركة كبيرة تدعى «هانهاي» (ويعني اسمها المحيط الشاسع)، ولكن الإعياء تغلب عليه قبل أن يصل إليها، فسقط ميتاً. وقبل أن يغلق عينيه للمرة الأخيرة، ألقى عصا المشي التي كان يستعين بها، فنمت غابة من شجر الدراق محل سقوطها.

وثمة تفسير آخر لقصة كوا فو، وهو أنه لم يكن يسابق الشمس بل كان يدفعها بعيداً. ونظراً لتشابك الخرافة مع التاريخ، وحيث إن الصينيين كثيراً ما يعتبرون أن الأساطير لها جذور في الحقيقة فإنهم يحاولون تمييز الوقائع التاريخية من الأساطير. وبحسب هذا التفسير الأخير، إن القصة في الواقع تتعلق بجفاف شديد، وتروي محاولة كوا فو لإسعاف الأرض من خلال دفع الشمس بعيداً. أما قيامه بشرب كل مياه النهر الأصفر ونهر وي فيرمز إلى النقص في المياه، في حين أن غابة شجر الدراق التي نمت بعد وقوع عصا سفره فلعلها ترمز إلى شوق القدامى إلى ظلال الأشجار.

إذا كان هذا التفسير صحيحاً، فإن «كوا فو» لا يعود مجرد إله بطولي فردي، بل يصبح رمزاً للبطل القومي الذي يضحّي بنفسه لينقذ الناس من الكوارث. وربما لن نتمكن



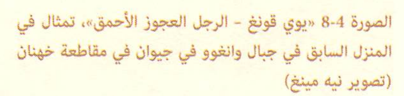
اليوم من معرفة أي من التفسيرين هو الأصح. ولكن بغض النظر عن ذلك، إن الأسطورة ترسم لنا صورة رجل ذي ثقة شديدة بنفسه وحمية بطولية.

يوي قونغ (ويعني اسمه الرجل العجوز الأحمق) (الصورة 4-8) بطل آخر مشابه لكوا فو. لم يكن يوي قونغ إلهاً، بل مجرد رجل عجوز عادي لا يمتلك أي قوى خارقة. ورغم اسمه المضحك، إلا أنه من أكثر الشخصيات احتراماً في الصين. وقف جبلان شاهقان- هما جبل تايهانغ وجبل وانغوو- أمام باب منزل يوي قونغ فحجبا طريقه تماماً، وعندها لم يكن الخروج من المنزل مريحاً له ولعائلته. وفي أحد الأيام، لمعت فكرة في غاية الجرأة في ذهنه؛ وهي أن يحرك الجبال بعيداً.

بعد توصّل يوي قونغ إلى هذه الفكرة أقنع زوجته بها، وبدأ أفراد عائلته كلهم بنقل الجبلين معتمدين على أيديهم وأكتافهم في تعبئة السلال بالتربة والصخور، ونقلها إلى الساحل على بعد آلاف الأميال. بل كان موقع إلقاء التراب بعيداً جداً لدرجة أنهم ما عادوا قادرين إلا على اتمام رحلة واحدة ذهاباً وإياباً إليه في السنة الواحدة. (الصورة 4-9)

لفتت أفعال يوي قونغ انتباه الناس فأيّده بعضهم، ولكن البعض الآخر سخر منه. وقام تشي سو (وهي كلمة تعني الرجل العجوز الذكي) بقيادة حملة السخرية من يوي قونغ، وقد أطلق عليه لقب «الذكي» لأنه كان يعتقد أن يوي قونغ مجرد أحمق بالغ في تقدير مقدرته، فكان يحاول إيقاف يوي قونغ قائلاً له: «أنت غبي للغاية. لقد أصبحت أكبر سناً حتى من أن تنقل شجرة أو حتى بعض الأعشاب، فهل تريد أن تنقل الجبال!؟». فأجابه يوي قونغ: «حين أموت سيتابع أبنائي وأحفادي وذريتهم عملي. ولكن الجبال لن تصبح أعلى، بل ستزول يوماً ما». (الصورة 4-10)

تمثل «حكمة» تشي سو القائلة بالتراجع أمام المستحيل، والتصرف بحسب قدرات المرء نظرةً محض دنيوية تسعى خلف النجاح السريع والمنافع المباشرة؛ وهو أمر يدل على قصر النظر. أما «غباء» يوي لونغ في مبالغته في تقدير قدراته فيمثل الأخلاقيات العملية وبُعد النظر وروح الريادة. لقد واجه يوي قونغ الشكوك والمخالفة، ولكن كانت لديه الشجاعة كي يفك أغلال التقليد ويتحدى نفسه، ويواجه الصعاب بثبات وعزيمة؛ فتحولت مثابرته وروحه الرائدة إلى قدوة تُحتذى بالنسبة إلى الشعب الصيني. وقد أثّرت همة يوي قوانغ في الآلهة فتعاطفت معه وقامت بحمل الجبال بعيداً، كما ألهمت



الصورة 4-8 «يوي قونغ - الرجل العجوز الأحمق»، تمثال في المنزل السابق في جبال وانغوو في جيوان في مقاطعة خهنان (تصوير نيه مينغ)

مع أن هذا الرجل العجوز لم يكن يتمتع بأي قوى خارقة، إلا أن مثابرته ساعدته على نقل جبلين عظيمين. وقد مدحه الزعيم ماو كثيراً، ما جعل قصته شديدة الرواج في الصين الحديثة.

روحه البطولية- ولا تزال تلهم- الناس في مجتمع يتحول بشكل متزايد إلى تقدير النجاح السريع والمنفعة المباشرة.

لقد ضرب يوي قونغ- وهو الرجل العجوز البالغ تسعين عاماً- مثالاً لأفراد عائلته ودفعهم إلى إزالة الجبال، وقد هزت مثابرته تلك مشاعر عائلته ثم جيرانه، وفي نهاية الأمر الآلهة نفسها، فلم يكن مجرد حالمٍ، بل كان رجل أفعال تنطبق عليه الأمثال التي تقول: «رحلة الألف لي تبدأ بخطوة» و«بناء مقصورة من تسعة طوابق يبدأ من أساساتها»؛ بل وتؤكد صحتها. فأصبح رمزاً للتعامل الإيجابي المتفائل مع الحياة، ولرفض التعامل السلبي؛ ما يعكس الصفات التي يتحلى بها الشعب الصيني. وقد كان أولئك الأبطال الأسطوريون مثابرين وواثقين من أنفسهم، وجريئين وعمليين، كما أنهم يتحلون بروح رائدة، ويمثلون خير تمثيل الشعب الصيني القديم الذي كانت لديه الشجاعة والإيمان؛ ما مكنه من تحويل البيئة التي يعيش فيها إلى الأفضل في صراعه مع حتميات تلك البيئة.

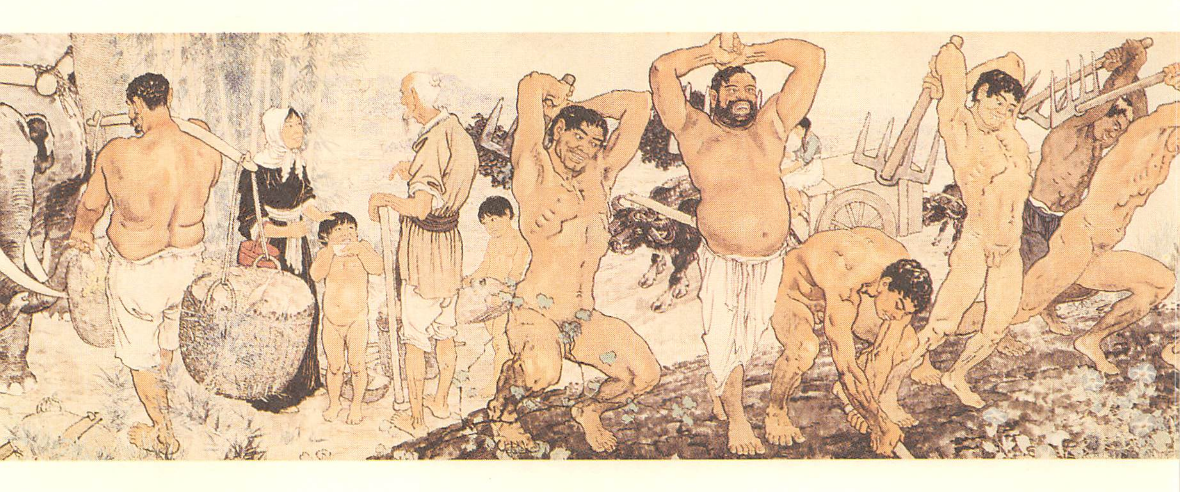


(في الأعلى) الصورة 4-9 «الرجل العجوز الأحمق يزيل الجبال»، رسم منقوش، متحف جيوان، مقاطعة خهنان (تصوير نيه مينغ)

في هذا الرسم يظهر الرجل العجوز وهو يحفر الجبل. لقد تم اختيار هذه الصورة لتعكس روح المثابرة، وتعتبر جيوان موطن الرجل العجوز. يحاول الصينيون إثبات وجود الأشخاص الأسطوريين بالفعل من خلال اختيارهم مدناً معينة كموطن لهم.

(في الأسفل) الصورة 4-10 الرجل العجوز الأحمق يزيل الجبال»، جزء من لوحة زيتية رسمها شو بي هونغ

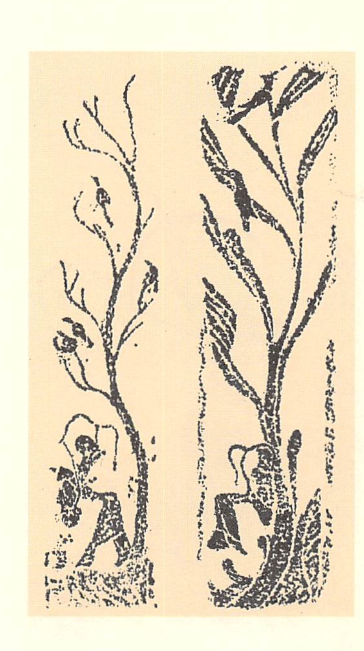
شو بي هونغ (1895-1953) من ييشينغ، مقاطعة جيانغسو. وهو رسام ومعلم فن عظيم، ومن مؤسسي الفن الحديث في الصين. رسم هونغ هذه اللوحة عام 1940 خلال لحظة حاسمة من الحرب ضد اليابان، ومن خلالها حاول تشجيع الشعب الصيني على القتال وصولاً إلى النصر بروح المثابرة نفسها التي تمتع بها الرجل العجوز الأحمق.



| أساطير تدعو إلى الشجاعة في ساحات المعارك

كل من لديه أدنى اطلاع على الأساطير اليونانية يعرف أسطورة البطل العظيم هرقل الذي كان آية في القوة والشجاعة، وخاصة حينما كان عليه أن يكمل مهماته الاثنتي عشرة. كما تروي الأساطير أنه ساعد البطل اليوناني الآخر جايسون في الحصول على الصوف الذهبي، وأنه أنقذ بروميثيوس من العقوبة الشنيعة التي حلت عليه بعد سرقة النار. جميعنا سمعنا بهذه الأعمال البطولية، ولكن الأساطير الصينية بدورها روت لنا قصة بطل يشبه هرقل، ألا وهو: يي.

بدأت قصص يي مع جفاف رهيب دمر الكثير من معالم حضارة الصين الزراعية (الصورة 4-11)، وقد مرّ معنا أن قصة كوا فو ربما كانت بدورها تعكس جفافاً شديداً في الأزمنة القديمة، ولكنه بكل تأكيد لم يكن بشدة الجفاف الذي واجهه يي. فقد تسببت الشموس العشر في السماء بجفاف يي، وقد كانت تلك الشموس أولاد الإمبراطور دي كو من زوجته شي خه، وكان من المفترض أن تكون تحت سيطرة أمها، حيث تتناوب في السفر عبر السماء لتجلب النور والدفء لكل المخلوقات الحية على الأرض. لكن الشموس خطرت على بالها في أحد الأيام فكرة السفر في السماء معاً، وحين لم تكن أمها تنتبه إليها خرجت خلسة. وكانت النتيجة أن الأرض أصبحت حارة مثل الفرن المتقد، فأصيب الناس بالمرض نتيجة الحرارة، وأفلتت الشياطين والوحوش لترتكب جميع أنواع الفظائع في عالم الإنسان.



الصورة 4-11 «هو يي يرمي السهام على الشمس»، رسم على الحجر من عهد سلالة هان (استُنسِخ عن طريق الفرك بالورق)

في هذا الرسم، يظهر هو يي وهو يرمي السهام على الغربان في شجرة. وقد رُوي أن تلك غربان ذهبية، ولها ثلاث سيقان، وتمثل تجسيداً للشمس. ولطالما تداول الناس مقولة أنه ثمة جبال على الشمس، وأن رمي السهام عليها يعني رمي السهام على الشمس. ولعل الأسطورة حول تواجد عشر شموس آنياً تعكس حالة من الجفاف الشديد في الأزمنة السالفة.

كان يي رامي سهام فائق المهارة لا





الصورة 4-12 «هرقل يقتل طائر ستيمفاليا الآكل للحوم البشر»

كان هرقل ابناً غير شرعي لزيوس من ألكميني. وقد أنعمت عليه الآلهة بعطايا عديدة جعلته ينجز ما يعجز عنه الناس العاديون، وأصبح من أعظم أبطال الأساطير اليونانية القديمة.



الصورة 4-13 «هو يي يرمي السهام على الشمس»

نزولاً عند أوامر إمبراطور السماء أصاب هو يي الشموس التسع بسهامه. وتظهر في هذا الرسم ثلاث شموس أسقطها يي بسهامه وقد تحولت إلى غربان. يي وهو يي شخصان مختلفان، ولكن صورتيهما اجتمعتا معاً واندمجتا في شخصية واحدة في مخيلات الناس. ولمّا كانت اللغة الصينية مبنية على الكلمات ذات المقطعين، فقد انتشر اسم هو يي بشكل كبير.

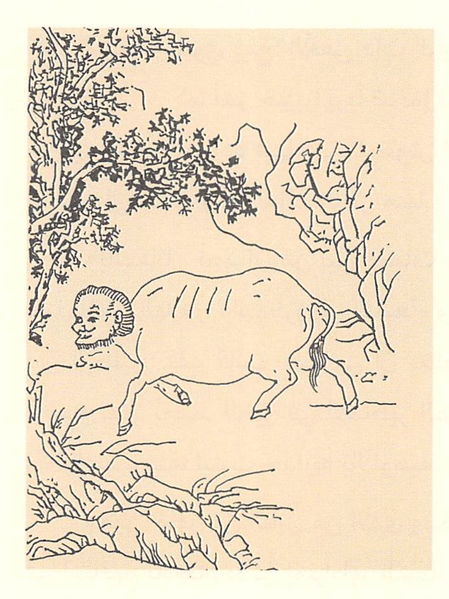
تخطئ أي من رمياته هدفها. وحين وُلِد كانت ذراعه اليسرى أطول من نظيرتها اليمنى، فكان ذلك مثالياً لممارسة الرمي بالقوس. قرر دي كو أن يُرسل يي إلى الأرض ليلقن أولاده درساً، وليعاقب الشياطين والوحوش، فأعطى يي قوساً وكنانة سهام مقدستين، وكانت الكنانة تحتوي على عشرة سهام بيضاء؛ وهي قصة تشبه إعطاء الإله أبولو والإلهة أثينا قوساً وكنانة ذهبيتين لهرقل في الأساطير اليونانية (الصورة 4-12). الفرق بين القصتين هو أن هرقل نال القوس والكنانة كجائزة، أما يي فنال أسلحته ليتم مهمته.

وصل يي إلى جبل ضخم محاذٍ للساحل الشرقي، ورأى الشموس وهي تستمتع في السماء من دون أن تعي مقدار الشقاء الذي تسببت به على الأرض، فاستشاط غضباً، وأطلق سهماً

على الفور، فسقطت شمس متوهجة وتدحرج لهيبها في الهواء وكأنه ريش ذهبي يخفق نازلاً من أعلى جبل. وحينما هبطت على الأرض، تحولت إلى غراب ذي ثلاث سيقان وريش ذهبي. وكان الغراب الذهبي يرمز إلى الشمس في الصين القديمة، وكثيراً ما كان يظهر شكل الغراب ثلاثي السيقان على النقوش على الطوب خلال حقبة سلالة هان. (الصورة 4-13)

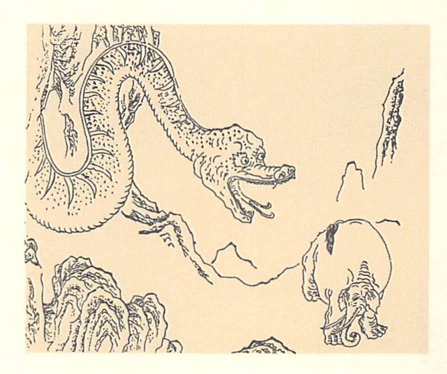
أطلق يي سهامه بدقة لا تعرف الفشل. وبعد أن تهاوت عدة شموس، بدأت الأرض تبرد. وبعد أن رأى الإمبراطور ياو أن يي يُسقِط الشموس بسهامه واحدة تلو الأخرى، أمر أحد أتباعه بسرقة سهم من كنانة يي. وهكذا، لم يتمكن يي إلا من إسقاط تسع شموس وبقيت واحدة في السماء، فانتهى الجفاف وعادت حياة البشر إلى طبيعتها.

بعد أن أتم يي الشق الأول من مهمته، عاد ليقضي على الوحوش واحداً تلو الآخر، فقتل يا يوي (الصورة 4-14)؛ وهو وحش ذو وجه إنساني وجسم بقري وحوافر حصان، كما قتل تساو تشي؛ وهو وحش يبلغ طول كل من أنيابه خمسة تشي (وحدة طول تعادل



الصورة 4-14 «يا يوي»، من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب حول الجبال الشمالية» (الكتاب حول الطيور والوحوش) (نسخ تسنغ شو تسونغ)

كان يا يوي أول وحش قتله هو يي، ويبدو الوحش مثل ثور أحمر، ولكنّ لديه وجه إنسان وحوافر حصان، ويشبه صوته صراخ الطفل الوليد. غير أن يا يوي كان وحشاً شرساً يلتهم الناس.



الصورة 4-15 «الأفعى با»، من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب حول جنوب البلاد» (نسخة جيانغ) (نسخ تسنغ شو تسونغ)

كان للأفعى با رأس أزرق وجسم أسود، وكانت تعيش حول بحيرة دونغتينغ، كما كانت تبتلع الحيوانات التي تمر قربها وتهاجم الناس. ويقال إنها قد ابتلعت فيلاً كاملاً في إحدى المرات ثم لفظت عظامه بعد ثلاث سنوات. وبعد أن قتلها يي تحولت إلى الهضبة المسماة على اسمها: هضبة با.



ثلث المتر)، وجيوي يينغ؛ الأفعى ذات الرؤوس التسعة، والطائر الشرير دا فنغ، والأفعى با (الصورة 4-15) كما أسر خنزيراً برياً ضخماً في السهول الوسطى، وكرّسه لإمبراطور السماء. شنّ يي حرباً لا هوادة فيها على الوحوش التي دمرت حياة الناس بقسوة ووحشية حتى انتصر على الشر، وحرّر عامة الناس منها.

وبالمقابل، نجد أن من بين مهمات هرقل الاثنتي عشرة أنه كان يتوجب عليه أن يقتل أفعى الهايدرا ذات الرؤوس التسعة، وأن يأسر خنزيراً برياً. ولكن، ثمة فرق جوهري بين البطلين؛ فقد كانت غاية يي أن يخلِّص الناس من الضرر، وأن يجلب النفع لهم، فأصبح بطلاً يُجسّد الخير في الأساطير الصينية. أما هرقل فقد قام بمهماته التي بدت وكأنها مستحيلة، ليثبت جدارته بالألوهية. (الصورة 4-16)

وحين خلّص يي الناس من الأذى ومكّنهم من العيش باستقرار، شعروا بدين عميق في أعناقهم تجاهه، ولكن إمبراطور السماء وزوجته لم يكونا سعيدين بهذا؛ لأن يي قتل تسعاً من أولادهما، فحقدا عليه، وحرماه من مكانته كإله، ورفضا السماح له بالعودة إلى السماء؛ فكان عليه أن يعيش في عالم البشر. وهذا ما فرّق في آخر الأمر بين أسطورته



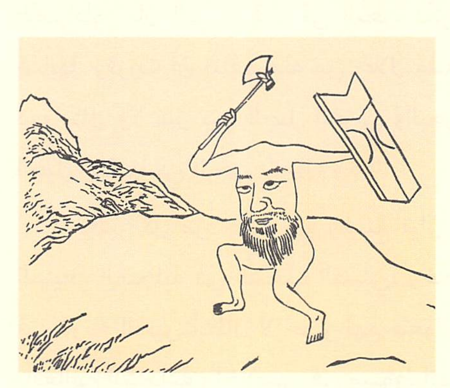
الصورة 4-16 «هرقل يقتل أسداً شرساً»، رسم على إناء، اليونان، القرن الخامس قبل الميلاد

كانت مهمة هرقل الأولى هي أن يقتل أسداً عملاقاً ويسلخ جلده، وكان ذلك الأسد قوياً جداً وشرساً، حيث لم تؤثر به أسلحة البشر. لكنّ هرقل نجح في آخر الأمر بقتله، وسلخ جلده مستخدماً مخالب الأسد نفسه.

وأسطورة هرقل. فبينما ترقى هرقل من مكانته كإنسان إلى إله، انحطّت رتبة يي من الألوهية إلى البشرية. وقد ظلت الأساطير الصينية تؤكد على ما يتمتع به يي من إيثار، أما الأساطير اليونانية فشددت على قوة هرقل وشجاعته؛ ما يعكس الفرق الحضاري بين الصين والغرب. ففي الحضارة الصينية، يعتبر الناس الذين يضحّون لأجل الآخرين أبطالاً. أما في الحضارة الغربية، فإن الصفة الرئيسة للأبطال هي قدراتهم فوق العادية؛ وقد انعكست الخصائص الحضارية في الأسطورتين على الصفات التي جعلت كلاً من يي وهرقل بطلين.

لكن، إذا اعتبرنا أن يي كان جندياً بطولياً وشجاعاً في نزاعاته، حيث لم يخشَ التضحيات التي كان عليه أن يقدمها، فيمكننا اعتبار شينغ تيان بطلاً تراجيدياً تجرأ على المقاومة من دون خوف ولا مساومة.

كان شينغ تيان من مسؤولي بلاط الإمبراطور يان. وبعد الفشل الذريع الذي تعرّض له جيش الأخير في بانتشاون، رفض شينغ تيان فكرة الهزيمة والاستسلام لحكم الإمبراطور هوانغ. وفي آخر المطاف، انطلق شينغ تيان إلى بوابة قصر الإمبراطور هوانغ حاملاً بلطة حادة ودرعاً، ومتحدياً الإمبراطور هوانغ على العرش. وبعد قتال طاحن، فشل شينغ تيان في نهاية الأمر، وقطع الإمبراطور هوانغ رأسه. ولكن، مع أن شينغ تيان فقد رأسه إلا أنه لم يفقد طموحه وتطلعاته، فتحولت حلمتاه إلى عينين، وصرته إلى فم، واستمر في القتال ضد الإمبراطور هوانغ بفأسه ودرعه. (الصورة 4-17)

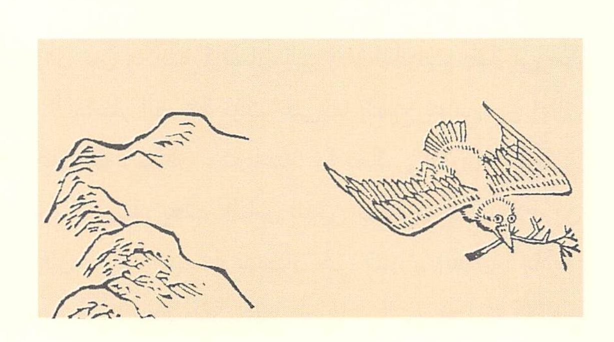


الصورة 4-17 «شينغ تيان»، من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب حول ما وراء البحار غرباً» (نسخة جيانغ) (نسخ تسنغ شو تسونغ)

كان شينغ تيان وزيراً للإمبراطور يان، وكان يحب الموسيقى فألّف الكثير من الألحان والقصائد حول حياة الناس السعيدة. وقد حاول شينغ تيان مقارعة الإمبراطور هوانغ على العرش ففشل، وقام ذلك الأخير بفصل رأسه عن جسده، ودفن رأسه تحت جبل تشانغيانغ، ولكنه ظل يقاتل حيث تحولت حلمتاه إلى عينين وصرته إلى فم!

رغم تعرض شينغ تيان للهزيمة، إلا أن روح المقاومة والشجاعة ظلت تسري فيه، وتلقى مديح ذريته؛ فكتب الشاعر تاو يوان مينغ (من عهد سلالة جين الشرقية) عدة أبيات في «تأملات في 'الكتاب المرجعي في الجبال





الصورة 4-18 «جينغ وي» من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب حول بيتسيسان» (نسخة جيانغ)

يقال إن ابنة الإمبراطور يان الصغرى قد غرقت في البحر الشرقي، وتحولت روحها إلى جينغ وي التي تشبه الغراب، ولكن كان لها منقار أبيض ومخالب حمراء. يحترم الناس جينغ وي بسبب مثابرتها، ويوجد أثر حضاري على ساحل بحر الصين الشرقي يخلد ذكرى جينغ وي.

والأنهار'« ليعبر عن إعجابه العميق بهذا البطل التراجيدي.

وبما أن الشعب الصيني يعتبر من سلالة الإمبراطورين يان وهوانغ، فلطالما مدح شينغ تيان، وذهل من مثابرته، ويمثّل مدحه الصفات الحسنة التي قامت عليها الحضارة الصينية مثل رحمة المستضعفين، والتعاطف مع الأبطال التراجيديين.

ومن القصص القديمة الأخرى التي تعكس الشخصية الصينية المثابرة قصة جينغ وي وهي تحاول ملء البحر بالحصى. لم تكن جينغ وي في الحقيقة إلا روح ابنة الإمبراطور يان التي غرقت في البحر، فكرهت البحر عديم الرحمة الذي حرمها من شبابها، وقررت أن تنتقم منه من خلال ملئه وردمه، فكانت تطير كل يوم ذهاباً وإياباً دون كلل ولا ملل بين الجبل الغربي والبحر الشرقي حاملة غصن شجرة أو حصاة من الجبل لتلقيها في البحر. (الصورة 4-18)

يعتبر كل من جينغ وي وشينغ تيان من الأمثلة النموذجية على الروح الراسخة المنيعة المتجلية في الشعب الصيني، وخاصة في أوقات المصائب القومية. وقد ظهر في تاريخ الصين أبطال لا حصر لهم سعوا دون هوادة وراء رفع الظلم وإحلال العدل بأفعالهم الشجاعة وإخلاصهم في مسؤولياتهم تجاه أوطانهم ومجتمعاتهم، فقوّموا بذلك مسار الأمة. وقد انعكس كل ذلك على الأساطير الصينية التي أصبحت الإرث الحضاري لأرواح أشخاص مثل يي وشينغ تيان وجينغ وي.

| عبادة الأبطال وملاحم الأقليات العرقية

من بين جميع القوميات الست والخمسين الموجودة في الصين، تعتبر جميعها أقليات باستثناء قومية هان، ولكن الجميع أفراد في العائلة الصينية الكبرى، وقد قدمت جميعها إسهامات كبيرة في الحضارة الصينية. ويجد المتتبع لأساطير تلك الأقليات العرقية أنها أكثر تنوعاً وانتظاماً من تلك التي تداولتها قومية هان. إذ يتم تداول معظم الأساطير شفوياً، ولكن تمت كتابة بعضها فتحولت إلى ملحمة تلك القومية.

يعتقد الكثيرون أنه ليست لدى الصين ملحمة قومية، ولكن ما علينا إلا أن نقرأ أساطير الأقليات العرقية حتى ندرك كم هم مخطئون؛ فالصين لديها ملاحمها، بل في الحقيقة لديها عدد كبير منها، ولا يزال بعضها يثير اهتمام الناس ويمتعهم حتى يومنا هذا. وتتألف ملحمة «الملك غسار» التيبتية من أكثر من مئة جزء، فيها أكثر من مليون بيت شعري؛ ما يجعلها أكبر من ملاحم اليونان والهند. وهي في الحقيقة أطول ملحمة في العالم. كما تتألف كل من ملحمة «جانغار» المنغولية و«ماناس» القيرغيزية من أكثر من مئتي ألف بيت، وتعتبر هذه الملاحم الثلاث الأكثر أهمية في الصين. عادة، تعتبر ملاحم الأقليات العرقية تعبيراً عن جذورها وموسوعتها وتاريخ تطور تلك المجموعات، وسرعان ما تتحول إلى الدعامة الروحية للقومية، ويصير لها تأثير عظيم على تماسك المجموعة العرقية والحفاظ على ثقافتها.

عادة، يقسم الناس الملاحم القومية إلى ملاحم خرافية وملاحم بطولية. وتسجل الملاحم الخرافية معتقدات المجموعة العرقية حول أشياء كبرى مثل خلق العالم وما شابه ذلك، أما الملاحم البطولية فتدوّن الانتصارات التي أحرزها أسلاف تلك المجموعات العرقية. لكن، يظل ضباب من الغموض والسحر يغلف كلا نوعي الملاحم. فحتى الملاحم البطولية تضفي عناصر وألوان سحرية خارقة على إنجازات الأبطال التي تدور حولهم.

تعود أصول الملحمة التيبتية «الملك غسار» والتي تُسمى أيضاً: سيرة الملك غسار، إلى حقبة المجتمعات البدائية، ولديها تاريخ يعود إلى أكثر من ألف سنة؛ وهي ملحمة قومية هائلة صنعها شعب التيبت كله، وتروي قصة بطلهم القومي غسار، وتُظهِر عملية توحيد المجتمع التيبتي. (الصورة 4-19)



الصورة 4-19 «الملك غسار في الزي العسكري»، تانغكا تعود إلى حقبة سلالة تشينغ، متحف سيتشوان (تصوير له تشن سي)

التانغكا نوع من أنواع الفنون تفردت به حضارة التيبت، ويُستخدَم فيه الحرير الملون لصناعة الصور. وفي هذا الرسم، يظهر الملك غسار كبيراً وقوياً، ويظهر احترام شعب التيبت لبطلهم القومي.



الصورة 4-20 «منصة استعراض موكب الملك غسار»، في يوشو، مقاطعة تشينغهاي (تصوير ما ياو جيون)

يقال إن الملك غسار كان يستخدم هذه المنصة ليفتش جنوده. ويظهر غسار في الصورة وهو يمتطي حصاناً ويرتدي درعاً لامعة، ويتلقى التبجيل من شخص تيبتي. يعتبر شعب التيبت الملك غسار حامياً له.

تقول الأساطير إن غسار كان الابن الثالث للإله، وقد أرسله العالم لينقذ الناس من الشقاء. ولد غسار في كرة من اللحم، فوقف على رجليه، وبدأ بالتكلم فور قطع الكرة إلى نصفين. وقد عانى لاحقاً من قدر كبير من المصاعب، ولكن ذلك لم يفت في عضده، بل زاد من قوة إرادته ومضي عزيمته. وحين كان غسار في الخامسة عشرة من عمره اعتلى عرش مملكة لينغ بعد سباق خيول، وتزوج تشومو الجميلة. وبعد ذلك، ذهب غسار ليحارب في الشمال، حيث قتل الشيطان لوتسان وأنقذ ميسا التي أصبحت زوجته الثانية. ولكن ميسا أبقت غسار في الشمال لمدة اثنتي عشرة سنة، وذلك من خلال وضع مخدّر في نبيذه لتحتفظ به لنفسها.

في نهاية الأمر، أعادت أغاني حصان تشيتو (الأرنب البري الأحمر) ودموعه غسار إلى صوابه، لكن طريق العودة إلى الوطن لم يكن سهلاً. وحين وصل إلى مملكة لينغ وجد أنها وقعت في أيدي ملك آخر، وأن الملك هور قد أجبر زوجته تشومو على الزواج منه. رسم غسار خطة لاستعادة مملكته وهرع إلى مملكة هور لإنقاذ تشومو (الصورة



الصورة 4-21 «أوبرا تيبتية عن الملك غسار في منطقة سيدا في تسيتشو»، حزيران 2009، في مهرجان تشنغدو الدولي الثاني للتراث الحضاري غير المادي (تصوير وي ده تشي)

هذه الأوبرا مقتبسة من الفن الديني التيبتي في القرن الثامن. وفي القرن السابع عشر، انفصلت الأوبرا عن الطقوس في المعابد، وتوفر «سيرة حياة الملك غسار» مصدراً وفيراً للقصص في الأوبرا التيبتية، حيث يستعيد شعب التيبت بطولات الملك غسار عبر هذا الفن.

4-20)، إذ استخدم السحر للنفاذ من تسعة معابر تحرسها حيوانات وحشية، وقتل هور واجتاح مملكته، وعاد إلى مملكة لينغ مظفراً ومعه تشومو. وفي وقت لاحق، زحف غسار على رأس قواته إلى مملكة جيانغ في الشرق، وحاز على البحر المالح، كما فتح مملكة من في الجنوب وتزوج أميرة منها. وأخيراً، قتل الشياطين شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ووحد كامل البلاد.

بعد ذلك، قام غسار بفتح أربع عشرة منطقة؛ بما في ذلك مملكة داشيتساي، وقطعة أرض الجاد في كاتشي، وقطعة أرض الشاي في هاندي، وقطعة أرض الخيول في منغوليا، وقطعة أرض القانون في الهند. وقتل غسار الشياطين في كل قطعة أرض غزاها، وجلب الراحة إلى الناس، وأخذ معه جميع الثروات والنساء عائداً إلى مملكة لينغ التي تزايدت قوتها يوماً بعد يوم. وفي نهاية الأمر، أنهى الملك غسار مهمته بعد أن جلب النظام إلى العالم، فنزل إلى الجحيم لهزيمة ملكها، وأنقذ 1.8 بليون روح مسجونة فيها ظلماً، وأخذ معه أمه وزوجاته عائداً بهن إلى السماء. (الصورة 4-21)

أما الأسطورة المنغولية جانغار فهي طويلة وبطولية، وتحتوي بدورها على عناصر خارقة وغامضة، وتقع أحداثها ضمن مجتمع من مالكي العبيد في أواخر حقب القبائل، وتدوِّن معارك الخان جانغار الطاحنة ضد أعدائه، وجهوده الساعية لحماية السماء في الشمال والتي تدعى باوموبا. وكقائد لقبيلته، هزم جانغار أنواعاً مختلفة من الشياطين والوحوش ووحد القبائل. كان جانغار من ذرية هالتزر خان، وحين بلغ الثانية من عمره اجتاح عشرة آلاف من وحوش المونغوس مسقط رأسه، وقتل أبوه أثناء المعركة. نجا جانغار بحياته عبر الاختباء في كهف. وبعد ذلك، حين لم يتجاوز جانغار الثالثة من عمره، امتطى حصان تشيجي واخترق معسكر أعدائه، وأخضع عدداً كبيراً من الوحوش العملاقة. لكن حين بلغ الخامسة من عمره أسره مصارع يدعى زيكيزيك، وكان يريد التخلص من جانغار إلى الأبد. ولكن جانغار انتصر مجدداً، وأصبح أقوى وأقوى. وبدءاً من عمر السابعة أخضع جانغار أعداداً لا تحصى من الوحوش، كما أخضع سبعين مملكة على رأس المقاتلين معه، وبنى قصوراً على المروج، مُشيِّداً جنة أطلق عليها اسم باوموبا. خاض جانغار بعد ذلك معارك عنيفة لصد الأعداء وحماية باوموبا.

أما الملحمة القيرغيزية ماناس فتتألف من ثمانية أجزاء، وهي أيضاً ملحمة بطولية تروي قصة ماناس والأجيال الثمانية التالية من عائلته، ولكن قصة ماناس نفسه هي الأكثر غنى. فحين كان ماناس لا يزال في بطن أمه، تعرض للاضطهاد على أيدي حكام كالمارك، وهرب من عائلته حين كان لا يزال مراهقاً. وبعد الكثير من المعاناة والمصاعب، تمكن من جمع أربعين محارباً حوله وتوحيد ستين قبيلة. خرج ماناس بعد ذلك في سبع حملات عسكرية لإخضاع المملكة. (الصورة 4-22)

تتمتع الأقليات العرقية التيبتية والمنغولية والقيرغيزية بتاريخ طويل. وقد قامت جميعها بتطوير هوية قومية قوية حافظت عليها ضمن بيئات في غاية الصعوبة، وكانت بحاجة إلى أبطال كأولئك الذين روت قصَصَهم تلك الملاحم، فنسجت مخيلات أبنائها تلك القصص الملحمية. قد لا تكون القصص المروية في الملاحم البطولية حقيقية، ولكن الأبطال الثلاثة ضمن هذه المجموعات العرقية الثلاث يجسّدون نضالهم في سبيل العدالة وحياة أفضل. لذا ظل أولئك الأبطال أحياء في قلوب تلك القبائل، وسيظلون يلهمون الأجيال القادمة للحصول على السعادة.

تعود الملاحم الخرافية إلى زمن أقدم من الملاحم البطولية. وهي أكثر بدائية،





الصورة 4-22 «ماناس»، رسم توضيحي

إن موضوع ملحمة ماناس هو توحيد شعب مستعبد ضد حكام أجانب، وحربه في سعيه إلى الحصول على الحرية والسعادة.

والعنصر الغامض فيها أكثر هيمنة. وتعكس الملاحم الخرافية رغبة المجموعة العرقية التي تنشأ بينها في معرفة أسرار الكون والطبيعة وغزوها والسيادة عليها. وقد نشأ هذا النوع من الملاحم بالدرجة الأولى في الجنوب الغربي والجنوب الأوسط وغيرهما من المناطق التي تقطنها الأقليات العرقية في الجنوب. ويوجد هناك عدد كبير من القصائد المشهورة مثل «ميقه» ضمن مجموعة يي العرقية، و«الخلق» في مجموعة ناشي، و«موباميبا» ضمن مجموعة لاهو، و«داخل المرتفع الغربي» عند مجموعة وا، و«الأغاني القديمة» في مجموعة مياو (الصورة 4-23)، و«بولوه توه» في مجموعة تشوانغ العرقية»، و«ميلوه توه» في مجموعة ياو العرقية، و«أغنية الملك بان» في مجموعة شه العرقية.

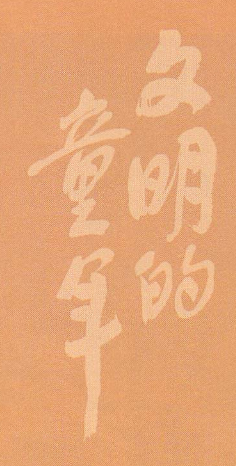
جميع هذه القصائد غنية للغاية في محتواها، وإذا أخذنا «الأغاني القديمة» عند شعب ياو على سبيل المثال، فإنها تشمل ثلاث عشرة أغنية خرافية مثل «خلق العالم» و«ضع العمود لرفع السماء» و«خلق الشمس والقمر» و«العالم المغمور في الطوفان» و«زواج الأخ والأخت» وغيرها... وهي تغطي معظم المواضيع الأسطورية.



الصورة 4-23 ناس من شعب مياو وهم يغنون «الأغاني القديمة» في قرية جيداو، بلدة سانكيشو، مدينة كايلي، مقاطعة قويتشو (تصوير تشن بي ليانغ)

تغطي الأغاني القديمة كل شيء من التاريخ إلى جميع جوانب الحياة. وليست لدى شعب مياو لغة مكتوبة، لذا يتوارثون الأغاني القديمة شفوياً. وفي عام 2006، أدرجت أغاني شعب مياو ضمن التراث الحضاري القومي غير المادي.

لقد تم توارث الكثير من الملاحم الوطنية عير الأجيال، وقد تم إثراء تلك الملاحم مع مرور الوقت، ولا يزال الناس من الأقليات العرقية يُردّدونها حتى يومنا هذا؛ وهي ديوان تطور الحضارة ومتحفها القومي ضمن أي مجموعة عرقية. ومع توحيد الصين، اندمجت جميع تلك الأقليات في العائلة الصينية الكبرى لتصنع بلداً حضارياً موحداً. ولا شك في أن الملاحم الأسطورية التي تتداولها تلك الأقليات تحمل أوجه شبه مع أساطير قومية هان، ولكنها تحمل أيضاً أوجه اختلاف، وتمثل المقارنة بينها حقل دراسة مثيراً للاهتمام، حيث يُشكِّل مجموع هذه الثقافات العالمَ الرائع الذي تعيشه الأمة الصينية.



الأساطير والخرافات الصينية

الفصل الخامس

مجمع الحضارة القومية

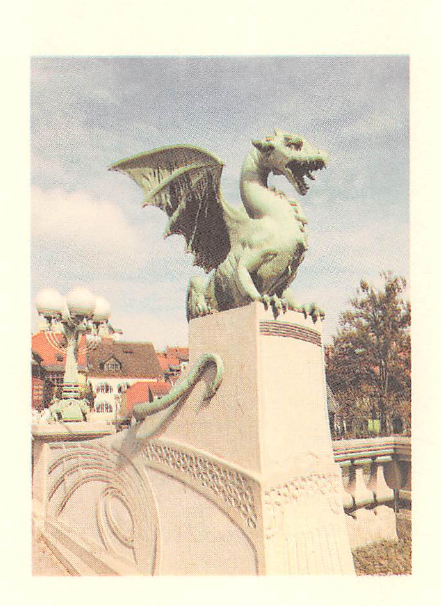
– تأثير الأساطير والخرافات الصينية

نقطة بداية الحضارة الصينية

مع أن الأساطير والخرافات القديمة تعود في جذورها إلى عصور الهمجية والبربرية، إلا أنها في الواقع نقطة بداية الحضارة الإنسانية. وتجتمع الصور الحية المتنوعة مع قصص الحب، والحبكات الغريبة الخيالية مع الفلسفة التي تُعلي من شأن التناغم بين الإنسان والطبيعة في هذه الأساطير التي تستخدم هذه العناصر بشكل مباشر أو غير مباشر لبناء الوحدة الحضارية في الصين، كما أصبحت هذه العناصر مصدراً للحيوية الخلاقة في الحضارة الصينية.

يعتبر التنين شرساً وشريراً في الحضارة الغربية (الصورة 5-1)، ولكنه رمزٌ للشجاعة والقوة والسلطة والنبل والكرامة في الصين. ويزعم الشعب الصيني أنه من ذرية التنانين، ويأمل أي والد ووالدة في الصين بأن يصبح أولادهم «تنانين»، أي أن يتمتعوا بمستقبل أفضل.

يعود أصل التنين إلى عبادة الطواطم في المجتمعات القبلية البدائية. وجسمه مثل جسم الأفعى، أما قوائمه فتشبه قوائم الثدييات، ويشبه شعره شعر الحصان، وذيله كذيل سمكة المنوة، وقرناه مثل قرنَي الغزال، ومخالبه كمخالب النسر، وزعانفه وشواربه كتلك الموجودة لدى الأسماك. إن العملية التي تشكلت فيها ثقافة التنين هي بعينها العملية التي مرت بها الأمة الصينية؛ إذ اندمجت القبائل واستقرت على ضفاف نهر يانغتسه والنهر الأصفر. (الصورة 5-2)



الصورة 5-1 «التنين المجنح على جسر التنين» في ليوبليانا، عاصمة سلوفينيا (تصوير جيسامين)

يعتبر التنين في الغرب من المخلوقات الأسطورية التي ترمز إلى السلطة العظيمة والسحر، وعائلة التنانين فيها لا تقل في كبرها عن نظيرتها الصينية.

تقول الأمة الصينية إنها تنحدر من الإمبراطور يان والإمبراطور هوانغ اللذين يتمتعان بمكانة خاصة وسامية في تاريخ

الحضارة الصينية، ويعتبر الإمبراطور هوانغ أعلى وأسمى من الإمبراطور يان. وبحسب ما ورد في «السجلات التاريخية»، إن الأباطرة الخمسة والملوك الثلاثة من سلالات شيا وشانغ وتشو كانوا على علاقة قربى وطيدة مع الإمبراطور هوانغ وذريته. وبعد انتصار الإمبراطور هوانغ في معركته مع تشي يو صنع دينغ (وهي قدر ذات ثلاث قوائم ترمز إلى حكم سلالة ما في الصين) فوق جبل دينغشان مُستخدِماً النحاس الذي وجده في جبل شوشان. وبحسب «فنغ شان شو» (رسالة حول أضاحي فنغ وشان) في كتاب «السجلات التاريخية»، بعد أن صنع الإمبراطور هوانغ قدر دينغ، ظهر تنين أسطوري بين السحب وقد التف رداء ذهبي حول كتفيه. ظل أسفل جسم التنين وذيله في السحب، ولكن رأسه استقر على قدر دينغ، بينما تهدلت شواربه على الأرض، فعرف الإمبراطور هوانغ أنه قد أتم مهمته في هذا العالم، وأن التنين إنما أُرسل ليرفعه معه، فقفز على ظهر التنين الذي طار به عائداً إلى حضرة الإله. لم يكن الناس راغبين في السماح لشخص فاضل وشريف كالإمبراطور هوانغ بتركهم، لذا أمسكوا بشوارب التنين لمنعه من الطيران. لكن في النهاية، طار التنين والإمبراطور هوانغ في جميع الأحوال، وتساقطت شوارب التنين على الأرض، ثم تحوّلت إلى عشبة سُمِّيت لونغشوتساو.



الصورة 5-2 «التنين»، رسم توضيحي من مجموعة كتب من الحاضر والماضي

إن التنين الصيني عبارة عن مجموعة من طواطم قبائل مختلفة، وهو لم يتواجد في الحقيقة قط. وقد قالت الأساطير الصينية إن التنانين تعيش في الأنهار والبحار، وهي التي تتولى أمر هطول المطر في المنطقة المحلية التي تعيش فيها. لدى جميع مناطق المياه تنينٌ ملك، وقد شُيِّدت عدة معابد للتنين الملك في جميع المناطق في الصين، حيث يقوم الناس بالصلاة لهطول المطر.

جمع الناس في هذه الأسطورة بين الإمبراطور هوانغ- قدوة جميع الأباطرة- والتنين الخرافي. ولهذا أطلق الأباطرة الذين جاءوا لاحقاً لقب «التنين الحقيقي وابن السماء» على أنفسهم، كما تشكّل من هذا نظام حضاري

متكامل ومرتبط مع التنين. إذ يُطلَق على جسم الإمبراطور: «جسم التنين»، وعلى الثياب التي يرتديها: «أردية التنين» (الصورة 5-3)، أما العرش الذي يجلس عليه فيُدعى: «عرش التنين»، كما يُطلَق على وجهه: «وجه التنين»، فتكاد كلمة «التنين» تضاف إلى جميع وجوه حياة الإمبراطور.



الصورة 5-3 «الإمبراطور يونغ تشنغ من سلالة تشينغ»

كان رداء التنين مطرزاً بأشكال التنين؛ وهو الثوب الذي ينبغي للإمبراطور ارتداؤه في البلاط. في الصين القديمة، كان الأباطرة يُعتبَرون أبناء السماء، أو تجسيداً للتنانين، ولم يكن استخدام أي شيء مزين على شكل التنين مسموحاً إلا للأباطرة.

إنّ ارتباط صورة التنين مع سلطة الإمبراطور ترجع إلى زمن عبادة الطواطم؛ إذ لم يكن الناس في الصين القديمة يتبعون ديانة توحيدية تدعو إلى عبادة إله واحد، بل كان لديهم تاريخ طويل من عبادة الطواطم والسحر. ولم تكن الأساطير الصينية حول السلم الصاعد إلى السماء، والتواصل مع الآلهة مريحة مثل الأساطير اليونانية، بل كان ذلك يتم عبر عدة سلالم. كانت المنطقة في وسط السلم تدعى: دوقوانغ، وهي تواجه وسط السماء. وكان هذا الموقع مباركاً، فتنمو فيه المحاصيل وتزدهر طوال السنة، ويقبع طائر العنقاء ويغرد هناك. ربّى إمبراطور الوسط (أي الإمبراطور هوانغ) شجرة ضخمة تدعى جيانمو في وسط دوقوانغ لتلعب دور السلم الذي تستخدمه الآلهة في نزولها إلى عالم الإنسان. وقد بلغ طول جيانمو مئات الأمتار ولم يكن لها أي أغصان، بل فقط الساق الثاقبة للسحب. وتشمل السلالم الأخرى الصاعدة إلى السماء جبل دنغباو وجبل لينغشان، ولكن لا يصعد السلالم إلى السماء إلا الأشخاص المختارون الذين يصبحون سحرة يتواصلون مع الآلهة. ويمكننا أن نجد أساطير حول السلالم المؤدية إلى السماء في العديد من الحضارات الأخرى، ومنها قصة برج بابل (الصورة 5-4) في الكتاب المقدس

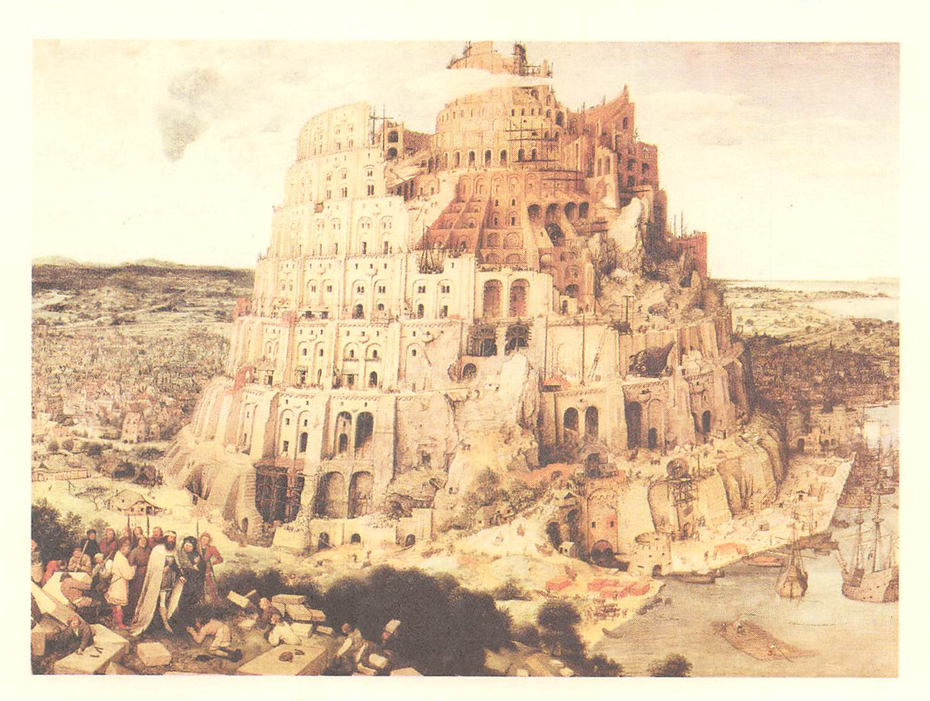


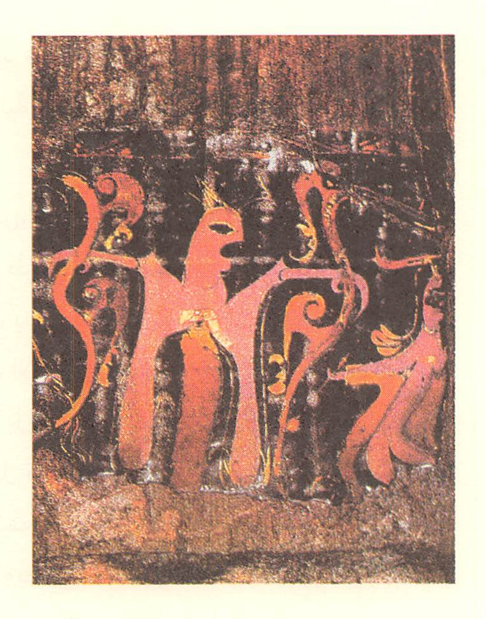
الذي بناه الناس الراغبون في الصعود إلى السماء. كما توجد القصة المشهورة حول حبوب الفاصولياء السحرية في القصة الخرافية: «جاك وشجرة الفاصولياء» حيث نبت من الحبوب نوع من السلم المؤدي إلى السماء.

كان الناس في الأزمنة القديمة يأملون أن يعيشوا لفترات طويلة مُستخدِمين الأغذية والثياب المناسبة للحفاظ على صحتهم. وقد حاولوا حلّ هذه الإشكاليات بأكثر الطرائق بساطة بالنسبة إليهم: بمساعدة الآلهة. وغرست الأساطير المتعلقة بالسلالم المؤدية إلى السماء اعتقاداً راسخاً في قلوب الناس بالجنة ونعيم السماء، لكن حين جلبت تلك السلالم الفوضى إلى الأرض والسماء، أمر إمبراطور السماء بإغلاقها جميعاً؛ ما جعل السلم الحقيقي الوحيد المتبقي هو الساحر (الصورتان 5-5، 5-6) الذي أصبح الوسيط

الصورة 5-4 «برج بابل»، لوحة لبيتر برويغيل (بلجيكي)، مجموعة متحف الفن في فيينا

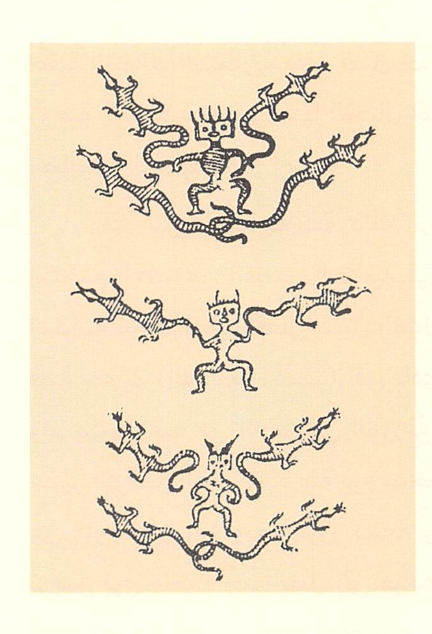
ورد في الكتاب المقدس أن الناس أرادوا مرة أن يبنوا سلماً ليصلوا السماء، فغضب الرب من هذا الصلف الإنساني، وجعل الناس يتكلمون لغات مختلفة، حيث لم يعد بإمكان الناس أن يتواصلوا مع بعضهم. وقد سُمّي هذا البرج: بابل، وتعني هذه الكلمة: المتمرد. إنّ كلاً من بابل وجيانمو في الأساطير الصينية عبارة عن محاولات قام بها الناس للتواصل مع السماء.





الصورة 5-5 «ساحر يمارس السحر باستخدام الأفاعي»، آثار قيثارة ترجع إلى حقبة الربيع والخريف

كان الساحر في الصين القديمة يُعتبر وسيطاً بين الناس والآلهة، وكان السحرة في الأزمنة الغابرة يعتبرون أشخاصاً حكماء وأصحاب معرفة، لذا كانوا يتمتعون بمكانة رفيعة. وكان الكثير من زعماء القبائل يشغلون دور الساحر ضمن القبيلة أيضاً.



الصورة 5-6 «ساحر»، رسم عن طريق الفرك على أوانٍ كانت تُستخدَم في تقديم القرابين، وقد تم العثور عليها في قبر يرجع إلى حقبة الممالك المتحاربة في هوايين، مقاطعة جيانغسو

يظهر في هذه الصورة الساحر وهو يمارس السحر باستخدام أبي بريص. كان الناس عموماً يعتقدون أن السحرة يمتلكون قوى خارقة، وأنهم قادرون على معرفة المستقبل والسيطرة على الطبيعة وتفسير الظواهر المخيفة وشفاء الأمراض. فكان للسحر تأثير على سائر جوانب الحياة.

الوحيد بين الناس والآلهة. وقد نشأت ثقافة السحرة منذ غابر الزمن، ولا تزال موجودة حتى اليوم، فكان لها أثر عميق في توجيه الروح الدينية للناس؛ حيث زرعت فيهم بذور النظرة السحرية إلى العالم التي وجدت تربة خصبة لها في عصور نشأة الأساطير وتداولها بين الناس.

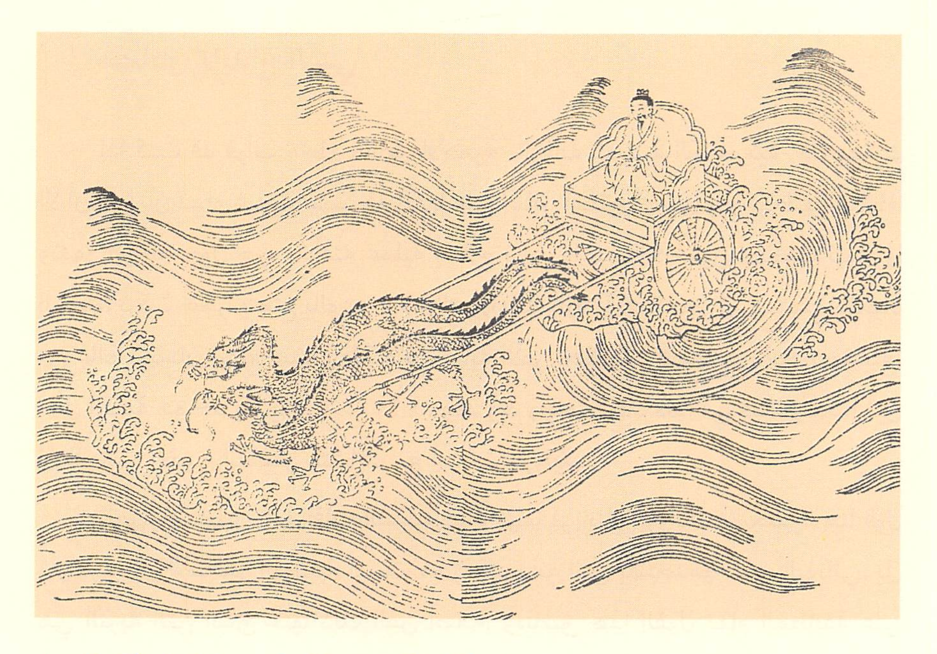
لم تكن الأساطير الصينية على علاقة وطيدة بالدين وحسب، بل مارست تأثيراً هائلاً ودائماً على الفلسفات الصينية القديمة. فكما كان الحال في اليونان قديماً، تشرّب الفلاسفة والمؤلفون في الصين- خاصة في حقبة الممالك المتحاربة- الكثير من الأفكار من الأساطير والخرافات، وحين تتوارث هذه الأساطير بين أجيال متعاقبة، فإن إطارها الثقافي وطرائق استخدامها تختلف، ويقوم الناس بإعادة صنعها. ولم يكتفِ الفلاسفة في



حقبة الممالك المتحاربة بفتح فصل جديد في تاريخ الفكر الصيني، بل أصبحوا نماذج روحية كلاسيكية تقتبس منها الأجيال التالية وتتّبِع قدوتها؛ نظراً لغنى أفكارهم وعمق مضامينها الروحية.

ومن بين جميع فلاسفة ذلك الزمن، لعل تشوانغ تسي أكثرهم غموضاً، فقد استخدم الكثير من القصص الخرافية في طروحاته الفلسفية، وقام باقتباس الكثير من التشابيه من الأساطير. فعلى سبيل المثال، يدور كتاب «تشوانغ تسي: تشيوشوي» حول قصة خه بو (إله النهر الأصفر). في بادئ الأمر، كان خه بو رجلاً عادياً يدعى فنغ يي، ولم يكن يرغب في العمل في المزرعة، بل أراد أن يصبح إلهاً. وحين سمع أن شرب عصير النرجس البري لمدة مئة يوم سيجعل منه إلهاً، رحل في طول الأرض وعرضها بحثاً عن النرجس البري. وبعد مرور تسعة وتسعين يوماً لم يتبقَّ له إلا العثور على زهرة نرجس بري واحدة حتى يصل إلى مراده ويحقق حلمه، ولكنه عندما عبر النهر الأصفر لتناول زهرة النرجس الأخيرة ارتفع مستوى مياه النهر فجأة كثيراً فأغرقه، وصعدت روحه حزينة ومكسورة الخاطر. عندها، ذهب ليشتكي إلى إمبراطور الجاد الذي كان يعلم أن فنغ يي قد تناول عصير النرجس البري لمدة تسعة وتسعين يوماً، فارتأى الإمبراطور أنه ينبغي لفنغ يي أن يصبح إلهاً، وما كان منه إلا أن عيّنه كإله على النهر الأصفر، فتحول اسمه إلى خه بو. أخضع خه بو النهر الأصفر، وفي الخريف تدفقت جميع الأنهار إلى النهر الأصفر، فتفجر بالحياة، وامتلأ بالأسماك والتنانين، فشعر خه بو بسعادة غامرة ظناً منه أن كل شيء جميلاً في العالم قد أصبح ضمن مملكته، وقرر الذهاب شرقاً (الصورة 5-7). ولكنه حين وصل إلى نهاية النهر الأصفر وجد نفسه على أول البحر الشمالي، ولم يكد يجد لذلك البحر نهاية، وبدا النهر الأصفر بجانبه مثل جدول صغير. عندها، اكتشف خه بو مدى ضيق تفكيره كما كان من قبل. ثم عبّر تشوانغ تسي عن العلاقة الجدلية بين المعرفة والفهم من خلال إله البحر، فقام بإعادة صياغة الأسطورة بما يتلاءم مع العالم الفلسفي الذي بناه في عمله هذا. ويمكننا اعتبار أسلوب كتابة تشوانغ تسي رائع الجمال من ضمن الموروث الأسطوري الرومانطيقي.

خلال تاريخ الصين الطويل، تركت الأساطير والخرافات القديمة بصمة عميقة؛ سواء أكان ذلك في ثقافة الأمة الروحية أم في عاداتها الشعبية، ولا نزال حتى اليوم نستشعر ذلك التأثير في الحياة السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية في الصين.



الصورة 5-7 «فنغ يي»، من «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار: كتاب حول شمال البلاد» (نسخة جيانغ)

يظهر فنغ يي في الصورة وهو راكب في عربة يجرها تنينان عاديان. يعتبر فنغ يي إله النهر الأصفر، وفي الصين القديمة كان الناس في مناطق كثيرة يقدمون القرابين إلى آلهة الأنهار.



مصادر الإبداع الفني

إذا كنتَ قد قرأت «حلم القصر الأحمر»- الرواية الصينية الكلاسيكية- فلا يمكنك إلا أن تعي أن تساو شيويه تشين قد ألّفها على أساس أسطورة نيوي وا وخياطتها للسماء. وتدور الرواية حول حجر خلَّفَته عملية إصلاح نيوي وا للسماء؛ فحين أصلحت نيوي وا السماء، تركت حجراً يتمتع بالوعي والإدراك وراءها، وأراد ذلك الحجر أن يستمتع بالحياة في عالم الإنسان لبضع سنين، ولكنه في نهاية الأمر تحوّل إلى قطعة من جاد تونغلينغ. بطل القصة هو جيا باو يوي (الصورة 5-8)، وقد وُلِد وحجرُ الجاد هذا في فمه، وهكذا نرى أن الجانب الغيبي الغامض متشابك مع أحداث الرواية.

تلعب الأساطير والخرافات الصينية دوراً مهماً في بناء الروايات، ويحضُرنا هنا قول ماركس: «إن الأساطير اليونانية ليست مجرد الترسانة التي يستخدمها الفن اليوناني، بل هي التربة التي انبثق عنها ذلك الفن أصلاً». وينطبق هذا القول تمام المطابقة على العلاقة بين الأساطير والفنون الصينية. فقد انبثقت الأساطير عن الخيال، وهو المنبع نفسه الذي ينبثق عنه الإبداع الفني. بل إن الأساطير فنٌّ بحد ذاتها، فهي النتاج الفني للمجتمعات الإنسانية الأولى، كما شكّلت الأرضية التي قامت عليها الفنون بمختلف أشكالها في العصور التالية؛ مثل الأدب والمسرح والرسم.

لقد كانت الأساطير والخرافات مصدراً للنزعة الرومانطيقية في الأدب الصيني، وتشمل الأعمال المندرجة تحت هذه النزعة خيالات جديدة وعجيبة وجريئة. ومن الجدير بالذكر هنا أن عدداً كبيراً من الكتّاب الرومانطيقيين قد برزوا في تاريخ الأدب



الصورة 5-8 «جيا باو يوي»، رسم قديم على كليشيه من «حلم القصر الأحمر»

تمثّل رواية «حلم القصر الأحمر» إحدى ذرى الأدب الصيني القديم. وقد وُلِد البطل وحجر الجاد في فمه، فأُطلق عليه اسم باو يوي، أي «الجاد الثمين». كان حجر الجاد ذاك من مخلفات نيوي وا حين أصلحت السماء، وجلبه راهب طاوي معه إلى العالم الأرضي، فكانت تلك هي بداية القصة في الرواية.



الصورة 5-9 «رسم لجيو قه»، من أعمال تشانغ وو من سلالة يوان

يتألف الرسم من أحد عشر جزءاً على أساس قصيدة «جيو قه» التي ألفها تشيوي يوان على أساس الأغاني المعتمدة في طقوس تقديم القرابين. وتجمع القصيدة بين عناصر رومانطيقية وسحرية في هذا العمل شديد التأثر بالأساطير.

الصيني الكلاسيكي؛ مثل تشيوي يوان، وتشوانغ تسي، ولي باي، ولي خه، ووو تشنغ إن.

ظلت الأساطير والخرافات مصدر إلهام للكثير من الكتاب في العصور التالية، فأصدر تشيوي يوان قصائد حافلة بالخيال مثل «لي ساو» و«تيان ون» و«جيو قه» (الصورة 5-9) و«تشاو هون»؛ وجميعها قامت على أساس حبكات مقتبسة من الأساطير القديمة. وتعتبر قصيدته «تيانون» من درر الأدب الصيني ومعجزات تاريخه، وتقوم جزئياً على تطبيق الأساطير والخرافات. وقد حفظت لنا أعمال تشيوي يوان الكثير من الأساطير النفيسة التي كانت مصدر إلهام في قصائده.

لي باو من الشعراء المشاهير في حقبة سلالة تانغ، وقد استخدم بدوره الأساطير والرموز في قصائده؛ مثل قصص قيام نيوي وا بصناعة التماثيل الإنسانية من الصلصال الأصفر، وخياطة السماء بالحجارة، ورمي يي سهامه على الشمس ومساعدته الناس على التخلص من العذاب، وقيام قونغ قونغ بتدمير جبل بوتشو. وأشهر أعماله هو «رحلة في الحلم إلى جبل الأم السماوية»، وهي قصيدة ترسم عالماً أسطورياً حافلاً بالصور الرائعة. ويمكننا أن نميز ارتباط أسلوب لي باي المتحرر مع جرأة الأساطير وغرابة محتواها. (الصورة 5-10)

كانت الأساطير والخرافات من المصادر المهمة في كتابة الروايات، فقد كانت





الصورة 5-10 «رسم للي باي وهو راكب على حوت»، من أعمال شيوي ليانغ من عهد سلالة مينغ

كان لي باي (701-762) شاعراً رومانطيقياً عظيماً، وتتميز الكثير من أعماله بتوجهها الأسطوري، فأطلق عليه لقب الشاعر الخالد.



الصورة 5-11 «قان جيانغ يصنع سيفاً»، من أعمال ما تاي في أواخر حقبة سلالة تشينغ وبداية نشأة الجمهورية الصينية (نسخ تسنغ شو تسونغ)

يعود أصل قصة قيام قان جيانغ بصنع سيف إلى مجموعة من القصص القصيرة التي تدعى: «قصص تعليمية عن الأرواح والخالدين». فقد قيل إن مو يه- زوجة قان جيانغ- ألقت بنفسها في قدر لصهر الحديد، فصدر سيفان حادان عن عملها هذا، وأصبح قان جيانغ وزوجته مو يه رديفين للسيوف الحادة.

تلك الأساطير ذات الحبكات البسيطة سلفاً للروايات الخيالية، ويرتبط نوعا الفن هذان بشكل طبيعي. وقد كانت «سيرة حياة الإمبراطور مو» أول رواية صينية أسطورية تقتبس أحداثها من الأساطير القديمة. وبرزت القصص الخارقة للعادة بشكل خاص في حقبتَي سلالتَي وي وجين، واستمدت جذورها أيضاً من الأساطير الصينية القديمة، ومن الأمثلة على تلك القصص: «لي جي يقتل الحية»، و«قان جيانغ ومو يه» (الصورة 5-11) و«دونغ يونغ»، وجميعها حافلة بالأساطير والخرافات.

تروي «دونغ يونغ» قصة شاب فقير يدعى دونغ يونغ أراد أن يبيع نفسه كي يتمكن من دفن أبيه، فتحركت مشاعر إمبراطور السماء بسبب عمله هذا، وأرسل الجنية السابعة إلى عالم البشر، فتزوجته



الصورة 5-12 «دونغ يونغ يبيع نفسه»، نحت حجري للقصص الأربع والعشرين حول البر بالوالدين، منطقة ذات مناظر جميلة في جبل فنغمينغ في كونمينغ، مقاطعة يونان (تصوير يانغ شينغ بين)

باع دونغ يونغ نفسه ليدفع تكاليف جنازة والده، وقد أثّر عمله البار هذا بإمبراطور السماء. وفي وقت لاحق، تم تغيير القصة لتصبح على الشكل التالي: تحركت مشاعر ابنة إمبراطور السماء السابعة نتيجة عمل دونغ يونغ، فتزوّجته من دون أن تحظى بموافقة أبيها، وعوقبت نتيجة لذلك. هذا وقد حُوّلت هذه القصة إلى أوبرا تحت اسم «تيانشيانبي»، وهي تحظى بشعبية كبيرة.

ولكنها تركته في آخر الأمر بعد أن عملت في النسج لمساعدته على سداد دينه. إن هذه القصة تشبه بعض الشيء قصة راعي البقر والفتاة النساجة؛ حيث تدور الحكايتان عن زواج إلهة من بشري فانٍ. (الصورة 5-12)

«رحلة إلى الغرب» من القصص الخيالية الصينية الأخرى الرائجة. وهي ترتبط بشكل وثيق مع الأساطير؛ سواء أكان ذلك من حيث محتواها أم من حيث أسلوب روايتها. ويعتقد بعض الناس أن مصدر أسطورة الملك القرد إنما يرجع إلى هانومان، القرد الهندوسي، لكن شخصيات القصة الأخرى مثل الإله إرلانغ (الصورة 5-13) والملكة الأم الغربية وإله المعجزات القوي جميعها شخصيات محض صينية. وتشمل القصة أيضاً شياطين ذات أشكال بشعة تُجسِّد الفكرة القائلة إن البشر والحيوانات جميعها تمتلك الجسم نفسه، وكذلك النزعة الإحيائية في الأساطير الصينية التي ناقشناها سابقاً.

لقد ورثت أعمال مثل «فنغ شن يانيي» و«الأزهار في المرآة»، و«قصص غريبة من استوديو صيني» وغيرها من الأعمال الخيالية تلك الأساطير القديمة. وأدرج لي رو تشن الكثير من الأساطير القديمة في أعماله. ففي «الأزهار في المرآة»، نرى شخصيات وعادات وحيوانات وطيوراً نادرة الوجود لاقاها تانغ آو ولين تشي يانغ أثناء سفرهما إلى الخارج. ولا شك في أن القصة مجموعة من الصور والقصص الأسطورية القائمة على جغرافيا خيالية، حيث اقتبست معظم موادها من «الكتاب المرجعي في الجبال



(إلى اليمين) الصورة 5-13 «الإله إرلانغ وكلب السماء»، رسم توضيحي من «رحلة إلى الغرب»

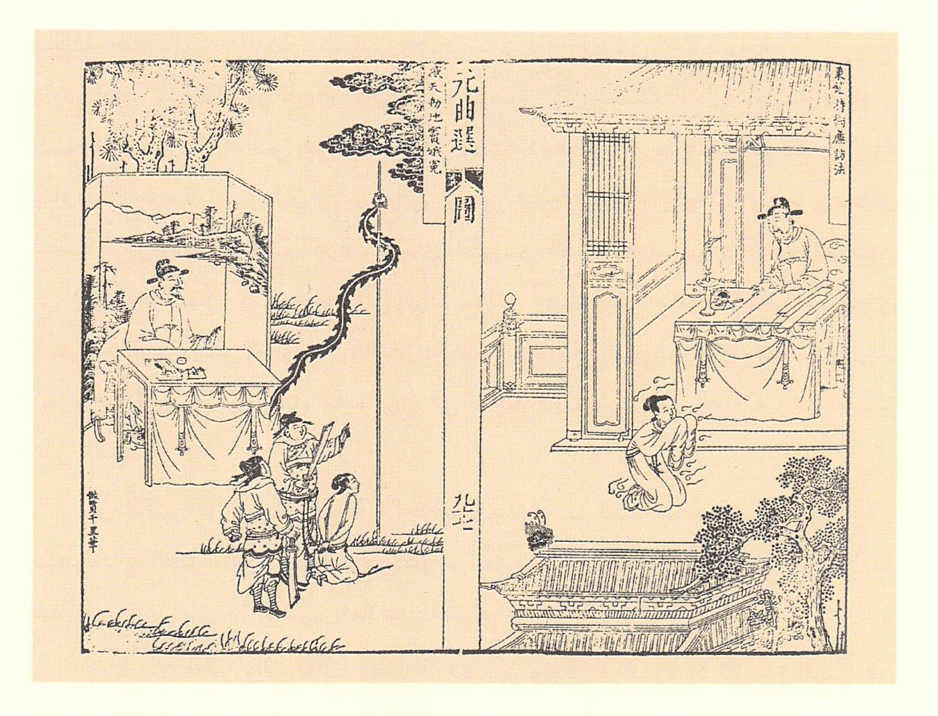
كان الإله إرلانغ من الآلهة الطاوية، ويتمتع بقوى خارقة، ويرافقه كلب سماوي يساعده على قتل الوحوش والشياطين. وفي هذه الرواية، تم إغناء شخصية الإله إرلانغ وتطويرها. وهذه الرواية من الأعمال الكلاسيكية الرائعة في الصين، وتشتمل على عدد كبير من الشخصيات الأخرى الخيالية، وتمثل التفاعل بين الأساطير الصينية والأدب الصيني.

(إلى اليسار) الصورة 5-14 «الظلم الواقع على دو إي»، صورة من أوبرا صينية

«الظلم الواقع على دو إي» من أعمال قوان هان تشينغ؛ وهو مسرحي شهير كان يعيش في حقبة سلالة يوان. تأتي القصة من كتاب يدعى« ليه نيوي تشوان»؛ وهي تدور بالدرجة الأولى حول اتهام دو زوراً، وكيف أنه تمت إزالة ذلك الظلم. وتجمع القصة بين الأسلوبين الواقعي والرومانطيقي، وتحفل بالخيال والحبكات الجريئة التي تتخللها الأساطير.

والأنهار»؛ مثل مملكة النساء ومملكة الوجوه ذات الشعر. لقد رسخت قصص «الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار» في مخيلة لي رو تشن، وكانت مصدر إلهام له، وقدّمت له مواد غنية استخدمها في أعماله. ويكاد كتاب «الزهور في المرآة» يكون مجرد إعادة إنتاج «للكتاب المرجعي في الجبال والأنهار».

أثّرت الأساطير والخرافات أيضاً بشكل عميق على الأعمال المسرحية، فاقتبست بعض الشخصيات والحبكات المسرحية من الأساطير الصينية؛ مثل إله المعجزات القوي الذي كانت شخصيته تمثل في مسرح الدمى أثناء حقبة سلالة سونغ. تم تأليف «الظلم الواقع على دو إي» (الصورة 5-14) في حقبة سلالة يوان، وهي مقتبسة من أسطورة حول امرأة بارة بوالديها في البحر الشرقي ذكرها كتاب «ليين نيوي تشوان». وتطورت «تيانشيانبي»- وهي أوبرا صينية من نوع هوانغمي- من قصة أسطورية كانت متداولة أيام سلالتَي وي وجين، حيث باع دونغ يونغ نفسه ليتمكن من سداد تكاليف دفن والده، ومن ثم تطورت إلى قصة أسطورية جديدة مكتملة جزئياً.



علمت الجنية السابعة بتضحية دونغ يونغ، وأثّر ذلك فيها أشد التأثير، فنزلت إلى عالم البشر وتزوجته سراً، فأرسل إمبراطور الجاد كلاً من الملك السماوي لي والحرس السماويين الأربعة كي يجبروها على العودة إلى السماء. ورغم عدم رغبة الزوجين في ذلك، إلا أنهما اضطرا في نهاية الأمر إلى الافتراق عن بعضهما تحت شجرة باغودا. كما أدّت أوبرا سيتشوان الحديثة أعمالاً عن أساطير مثل «يوي العظيم يسيطر على الطوفان». وتعكس كل تلك الأعمال العلاقة الوطيدة الناشئة بين المسرح والأسطورة.

أمّا في ما يتعلق بفن الرسم، فقد أولى الأقدمون عناية خاصة بالأساطير في رسومهم. وفي الفترة السابقة على حقبة سلالة تشين، كان من الرائج إدراج القصص الأسطورية ضمن الرسوم. وإن «صورة الإنسان والحصان» لوحة مرسومة على الحرير ترجع إلى حقبة الممالك المتحاربة، وقد تم العثور عليها في تسيدانكو، تشانغشا، وهي تمثّل الإمبراطور هوانغ وهو يصعد إلى السماء(الصورة 5-15). أما صور «الأباطرة العشرة القدامى» التي نُقِشت على مقابر وو في حقبة سلالة هان فقد تم العثور عليها في



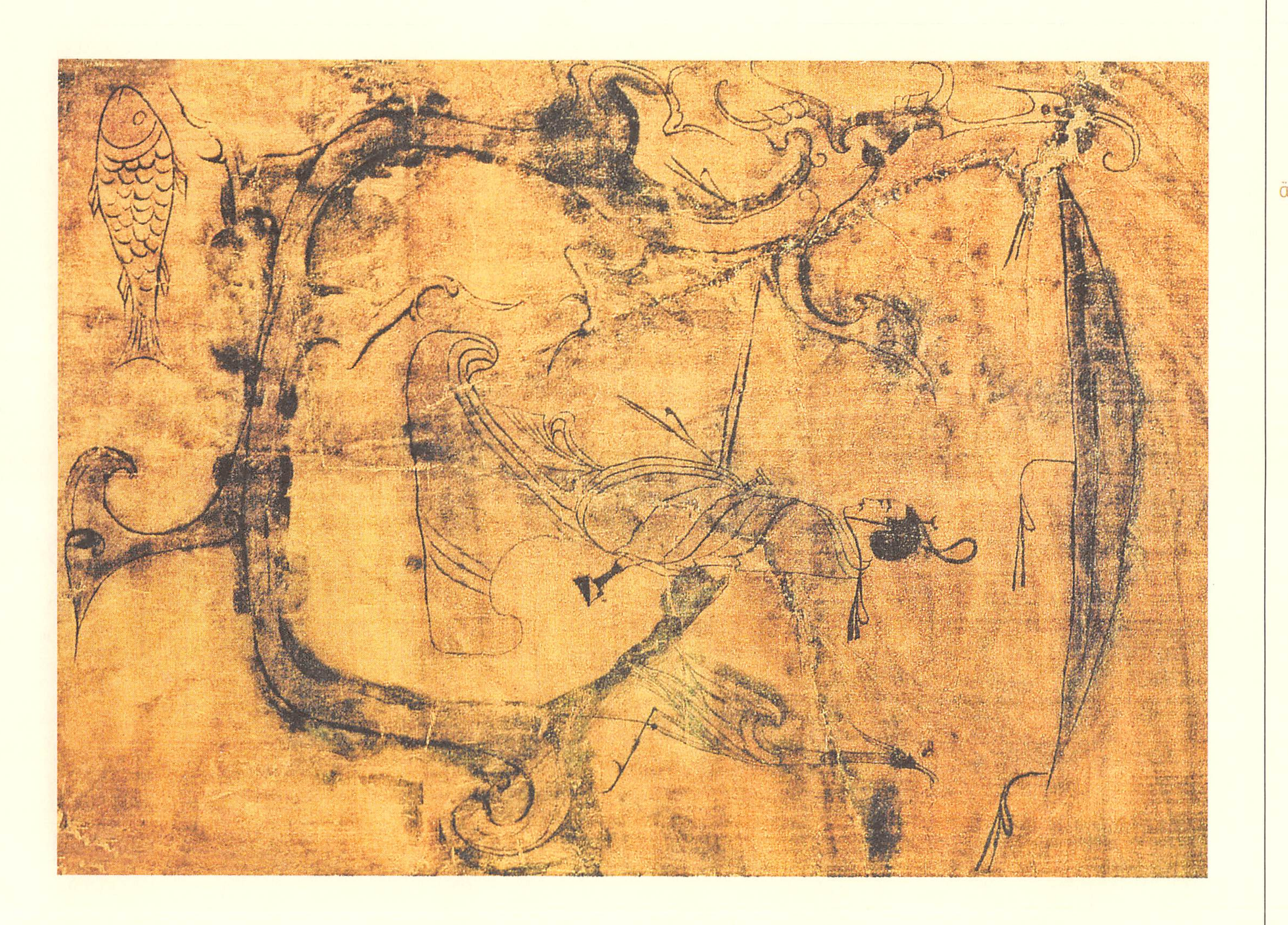
منطقة جياشيانغ، مقاطعة شاندونغ. وهي تشمل صور فو شي، وتشو رونغ، وشن نونغ، والإمبراطور هوانغ وياو ويوي. وفي هذه الرسوم، كان لتسعة أباطرة أجسام ورؤوس إنسانية؛ حيث كان فو شي هو الاستثناء الوحيد، وبدا مظهره غريباً وقد رُسِم مع نيوي وا، وكان لكل منهما رأس إنسان وذيل أفعى. وتُظهِر صورة نيوي وا وفو شي وهما يتعانقان عملية التزاوج التي أنتجت العرق البشري. أظهرت «الصور التوضيحية للكتاب المرجعي في الجبال والأنهار» الذي يعود إلى عهد سلالتَي وي وجين أسطورة الطائر الأسطوري الأنثى جينغ وي وهي تحاول ملء البحر بالحصى، وشينغ تيان وهو يحارب بفأسه ودرعه. كما توجد لوحة جدارية في معبد يوي في مدينة سانمنشيا ليوي العظيم وهو يسيطر على الماء.

إن الكثير من أعمال الفنية والحرفية الحديثة مستمدة أيضاً من الأساطير؛ مثل سيطرة يوي العظيم على الماء، ورمي هو يي سهامه على الشموس التسع، وخلق بان قو للعالم، وخلق نيوي وا للبشر وإصلاحها للسماء.

تمثِّل الأساطير والخرافات معيناً لا ينضب، وتوفِّر مواد وفيرة للإبداع الفني في العصور التالية. وتتم إعادة إنتاجها وصياغتها عصراً تلو الآخر على أيدي الفنانين فتحفِّز المشاعر والأحاسيس. ولا شك في أن التفكير الأسطوري والقصص الخيالية ستظل تلهم الفنانين وترتقي بالفن الصيني.

الصورة 5-15 «رسم للتنانين السائقة»، رسم على الحرير تم العثور عليه في قبر يعود إلى حقبة الممالك المتحاربة في شانغشا، مقاطعة هونان

يمثِّل الرسم كيفية ارتقاء صاحب القبر إلى السماء وهو راكب على تنين. ويعتقد معظم الناس أن الرسم يمثِّل الإمبراطور هوانغ وهو يرتقي إلى السماء، ويجسِّد رغبة الناس في الخلود.



جذور العادات الشعبية

هل تعلم أن الشعب الصيني في ليلة رأس السنة يبقى ساهراً معظم الليل، إن لم يكن الليل كله؟ هل سمعت بيوم الإنسان في الصين القديمة؟ هل علم أصل يوم منتصف الخريف؟ إن عيد الربيع، وعيد المصابيح، وعيد قارب التنين، ويوم منتصف الخريف، وعيد التسعة المزدوجة جميعها أعياد صينية تقليدية لها تاريخ قديم ومضامين حضارية عميقة. وترتبط بعض العادات التي يمارسها الناس في هذه الأعياد بالأساطير الصينية.

إن عيد الربيع أهم عيد في الصين، وهو يُقام تقليدياً في اليوم الثالث والعشرين من الشهر القمري الثاني عشر، ويستمر حتى اليوم الخامس عشر من الشهر القمري الأول في التقويم الصيني، حيث يصل إلى ذروته في ليلة رأس السنة في اليوم الأول من الشهر الأول من التقويم القمري. إن عيد الربيع هذا يدلّ على بداية السنة الجديدة، لذا يُعرَف أيضاً باسم: احتفال رأس السنة. وخلال هذه الفترة، يلتئم شمل العائلات، ويتم صنع الفطائر وكعك رأس السنة، كما تُعلّق أبيات شعر عن الربيع، ويتم إطلاق المفرقعات النارية، وتُرسم لوحات رأس السنة (الصورة 5-16). كما أن هناك سلسلة من العادات الشعبية والنشاطات المتنوعة؛ مثل السهر طوال الليل أو إجراء مكالمة رأس السنة. وفي السنوات الأخيرة، أصبح الاحتفال بالأعياد الصينية رائجاً في شتى أرجاء العالم.

يوجد عدد كبير من الأساطير حول عيد الربيع، وخاصة حول شوسوي وتعليق أشعار عن الربيع. وشوسوي هي عادة السهر طوال الليل لملاقاة العام الجديد الذي يعرف باسم أونيان.

ويتداول الناس قصة شعبية مثيرة للاهتمام تفسّر أصل هذه العادة. إذ يُروى أنه في الأزمنة الغابرة، كانت وحوش هائلة الحجم وشرسة وعنيفة ومفترسة تدعى نيان تقطن الجبال (الصورة 5-17). ولحسن الحظ، لم تكن وحوش نيان تخرج كل يوم، بل كانت تظهر في المساء وترجع إلى الجبال عند أول انشقاق السماء بنور الشمس ساعة الفجر. وكان الناس يخشون بشكل خاص ليلة نيان المعروفة أيضاً باسم «نيانقوان» (آخر يوم من السنة). فحين عرف الناس عادات وحوش نيان أصبحوا يعدّون الأيام، وفي آخر يوم من السنة كانوا يغلقون الأبواب والنوافذ ويحمون المواشي، كما كانوا يحضّرون العشاء



الصورة 5-16 «آلهة الحظ والرخاء والعمر الطويل»، كليشيه خشبي لصورة لرأس السنة في تاوهواوو، سوتشو

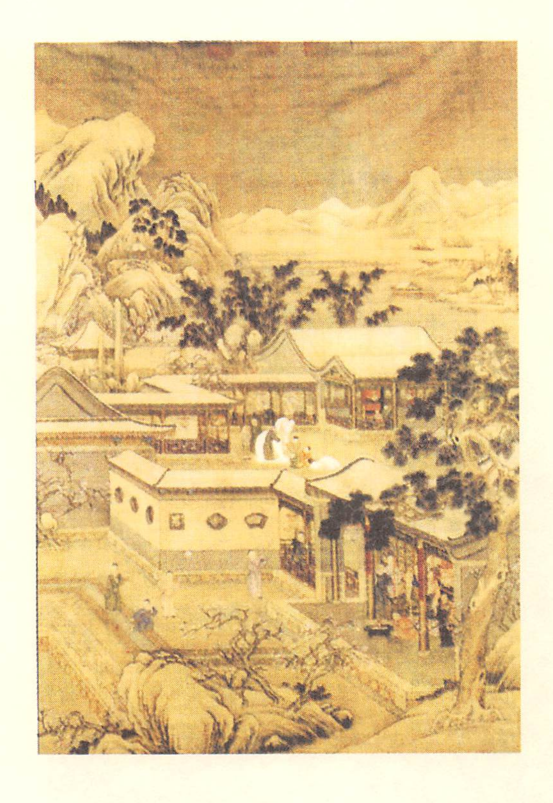
اقتُبِست صور رأس السنة من رسوم الآلهة على الأبواب. ورسمُ هذه الصور من الفنون التي تتميز بها الصين. إذ يضع الناس صور رأس السنة في ذلك اليوم كنوع من الدعاء لتمني حسن الحظ خلال السنة، وتظهر عليها عادة آلهة الحظ والرخاء والعمر المديد.

مسبقاً، ويُغلِقون فتحات طبخ الطعام، ويتناولون عشاءهم بهدوء. (الصورة 5-18)

كان الجميع يتناولون طعامهم ببطء وهدوء قلقين على مصيرهم، كما كانوا يحضّرون عشاء كبيراً ويضعون أفضل طعامهم أمام أبواب منازلهم، ويقدّمون قبل العشاء أضحيات للأسلاف كي يحموهم. وبعد العشاء، لا يتجرأ أحد على النوم، بل كانوا يتحدثون معاً ليشدوا أزر بعضهم بعضاً.

وهكذا، تحوّل هذا السهر وتطوّر إلى عادة «شوسوي» خلال فترات حكم السلالتين الشمالية والجنوبية. وكان الناس يضيئون شموعاً ومصابيح زيتية، ويسهرون طوال الليل معتقدين أن جميع أنواع الشرور والأمراض ستهرب خائفة إن فعلوا ذلك، ومتوقعين سنة



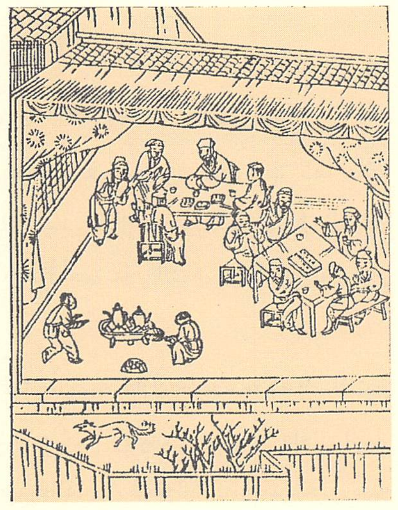


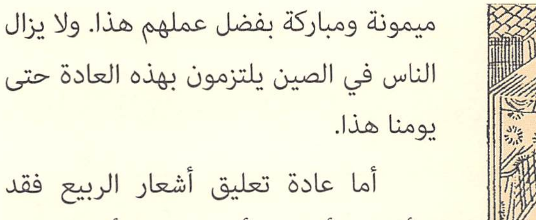
الصورة 5-17 «إطلاق المفرقعات النارية للترحيب بالسنة الجديدة»، رسم توضيحي من «القاموس المصوّر لتاريخ سلالة تشينغ»

للمفرقعات النارية تاريخ يرجع إلى أكثر من ألفَي سنة. ويُقال إن الناس اكتشفوا عن طريق الصدفة أن الوحوش المسماة نيان تخشى اللون الأحمر والضوء والأصوات العالية. لذا، عند نهاية السنة يُعلّق الناس أوراقاً ومصابيح حمراء، ويرتدون أردية حمراء، ويقرعون الطبول والنواقيس، ويطلقون المفرقعات لإخافة وحوش نيان. وقد تحولت هذه الأسطورة تدريجياً إلى عادة.

(في الأسفل) الصورة 5-18 «عشاء ليلة رأس السنة»، رسم توضيحي من «بين فنغ قوانغ يي»، من عهد سلالة تشينغ

في ليلة رأس السنة، يجتمع الناس ليتناولوا العشاء معاً، ويستمر العشاء لفترة طويلة تمتد إلى منتصف الليل. في مناطق الصين المختلفة عادات مختلفة في ما يتعلق بالعشاء. ففي بعض مناطق جنوب الصين، لا يصدر الناس أصواتاً عالية أثناء العشاء، وبعد أن ينظفوا كل شيء، يفتحون الباب. وترتبط هذه العادات مع الأساطير.





ميمونة ومباركة بفضل عملهم هذا. ولا يزال الناس في الصين يلتزمون بهذه العادة حتى يومنا هذا.

أما عادة تعليق أشعار الربيع فقد بدأت قبل أكثر من ألف سنة في أواخر حقبة شو (الصورة 5-19). وقد قيل إن تلك الأشعار بدأت «كتعاويذ من خشب شجر الدراق»، حيث تروي الأسطورة أنه كان هناك طائر تدرج يقف في أعلى شجرة دراق ضخمة تغطي مسافة ثلاثة آلاف لي من جبل في

عالم الأشباح، وكانت هناك بوابة في الجهة الشمالية الشرقية للمنطقة التي تقع فيها الشجرة. وفي كل صباح، كان على الأشباح التي تسكن المساء أن تعود قبل أن يغرد طائر التدرج؛ حيث كان شن تو ويوي لي- وهما رجلان من الآلهة- يقفان على جانبَي البوابة لمراقبة الأشباح ولقمع شراستها؛ فإذا اكتشفا وجود أيٍّ منها أمسكا به وقيّداه بالحبال المصنوعة من القصب، وأرسلاه كطعام للنمور، ولذلك كانت الأشباح تخشى شن تو ويوي لي. (الصورة 5-20)

حين أدرك الناس هذه الحقيقة، قاموا بحفر صور هذين الإلهين على خشب شجر الدراق، وعلقوها في بيوتهم لطرد الأرواح الشريرة. وفي وقت لاحق، تحولت هذه العادة إلى مجرد نقش اسميهما، وكان هذا مريحاً أكثر، ولذلك يُطلَق اسم «تعويذة خشب شجر الدراق» على هذه الأخشاب. وقد بدأ الناس منذ عهد سلالة سونغ بكتابة الأبيات



الصورة 5-19 «تعليق الأبيات الشعرية»، رسم توضيحي من «كتاب الحياة اليومية المصور للعادات القديمة»

حين كانت أحداث مهمة مثل الزواج أو الجنازة أو العيد تجري، كان الصينيون يُعلّقون أوراقاً تحتوي على بيتين من الشعر. وتُستخدَم تلك الأوراق في عيد الربيع، ويُطلَق عليها اسم دوبيت الربيع، وكانت في بادئ الأمر تُستخدَم لدفع الأشباح والشياطين بعيداً. وفي وقت لاحق، تحوّلت إلى رمز للسعادة والبركة.





الصورة 5-20 «إلها البوابة: شن تو ويوي لي»، صورة رأس السنة من عهد سلالة تشينغ

يُقال إن هذين الإلهين كانا أخوين، وكانا بارعين في الإمساك بالأرواح الشريرة وإطعامها للنمور، فكانت الأشباح تخشاهما. ولهذا السبب، يستخدم الناس صورهما لإخافة الأشباح. فتُعلَّق صورة شن تو على اليسار ويوي لي على اليمين. ولا تزال هذه العادة سائدة في الصين الحديثة، لكنّ أهالي المناطق المختلفة يؤمنون بآلهة أبواب مختلفة. وقيل أيضاً إن أبيات شعر الربيع لها علاقة بشن تو ويوي لي.

الشعرية على خشب شجر الدراق لطرد الأرواح الشريرة. وفي وقت لاحق، حل الورق الأحمر محل خشب شجر الدراق؛ لأنّ الورق الأحمر هو الأجمل شكلاً والأقرب إلى روحية العيد. ومنذ ذلك الوقت، تم اعتماد شكل أشعار الربيع، وأصبحت هذه العادة من ضروريات عيد الربيع.

يوم الإنسان عيد مهم احتفل به الصينيون القدامى في اليوم السابع من الشهر الأول من كل سنة، وهو اليوم الذي اعتقدوا أنه قد تم خلق البشرية فيه. وهذه العادة قديمة للغاية، ويرجع تاريخها إلى أكثر من ألفَي سنة، وتقوم على أساس أسطورة خلق نيوي وا للبشر. وكانت نيوي وا قد خلقت حيوانات أخرى قبل الإنسان، وتقول الأسطورة إنها حين خلقت العالم فقد خلقت الدجاج في اليوم الأول، والكلاب في اليوم الثاني، والخنازير في اليوم الثالث، والخراف في اليوم الرابع، والبقر في اليوم الخامس، والخيول في اليوم السادس، والبشر في اليوم السابع، ولذلك يتم الاحتفال بيوم الإنسان في اليوم السابع من الشهر الأول من كل سنة تخليداً لمناسبة خلق نيوي وا للإنسان.

في ذلك اليوم، كان الناس في الصين القديمة يتناولون حساء الخضروات السبعة ليزيلوا الأمراض ويطردوا الأرواح الشريرة، كما كانوا يلصقون رقاقة ذهبية أو زرقاء فاتحة على شكل الإنسان على النوافذ لإبعاد الأرواح الشريرة أو للزينة. وكانوا يصنعون زهوراً من الورق ويرسلونها إلى الأصدقاء. ويتداول الناس مقولة أن الطقس إذا كان جيداً فبإمكانهم التكهن بأن الإله سيجعل طالع الناس على الأرض سعيداً، ويعتبر قيام امرأة حامل بالولادة في ذلك اليوم حدثاً سعيداً للغاية، بينما كان الكتّاب في ذلك اليوم يُحبّذون تسلق جبل لكتابة القصائد. ومع أن الاحتفال بيوم الإنسان انحسر تدريجياً، إلا أن بعض العادات المرتبطة به لا تزال حية؛ مثل صنع الفطائر، وتناول حساء الخضروات السبعة، ولا تزال بعض المناطق تحتفظ بعادة تناول النودلز (المعكرونة الصينية) في اليوم السابع من الشهر الأول من السنة القمرية.

أما عيد منتصف الخريف فهو ثاني أهم احتفال في الصين بعد عيد الربيع. وهو يُقام في اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن من الشهر القمري، كما أنه ثاني عيد يلتئم فيه شمل العائلات في الصين. وفي ذلك اليوم، يجتمع أفراد العائلات ليتناولوا كعك القمر وللاستمتاع بروعة القمر البدر، وللتعبير عن أمانيهم الطيبة لبعضهم بعضاً من خلال



إرسال كعك القمر. وقد لعبت الأساطير والخرافات دوراً كبيراً في تطور عيد منتصف الخريف، ولعل أسطورة طيران تشانغه إلى القمر أشهرها، وهي تُضفي جواً من الغموض والرومانسية على العيد، كما تضفي هالة من الروعة على قصر القمر.

ترتبط أسطورة طيران تشانغه إلى القمر بشكل وطيد مع أسطورة إطلاق يي لسهامه على الشمس ومساعدته الناس على التخلص من بلائها. لقد أسقط يي بسهامه تسع شموس من بين عشر، وكانت جميع الشموس في الحقيقة أبناء إمبراطور السماء الذي سخط على يي وتشانغه وعاقبهما من خلال إجبارهما على العيش على الأرض. لكن الملكة الأم الغربية تعاطفت مع مصير يي، وأعطته حبة دواء تعيد إليه الخلود. لكنّ فنغ منغ– وهو تلميذ يي- كانت لديه أفكار شريرة أخرى. وحين أخذ يي جيشه إلى الصيد، استغل فنغ منغ الفرصة ليحاول إجبار تشانغه على تسليمه الحبة. وحين علمت تشانغه أنها لن تتمكن من التغلب على فنغ منغ ابتلعت الحبة بكاملها، وبدأت بالطيران إلى السماء، ولكنها سرعان ما اشتاقت إلى زوجها، فطفت على سطح القمر الأقرب إلى عالم البشر، وأصبحت إلهة. نظر يي إلى السماء وصاح باسم زوجته بأسى، وفي تلك اللحظة وجد القمر منيراً بشكل استثنائي، ورأى فيه شكلاً متحركاً يشبه تشانغه، فطلب من أحد الأشخاص أن يضع طعام تشانغه المفضل على طاولة حرق البخور، في حديقتها الخلفية المفضلة، وقدّم هذه الأضحية إلى زوجته. اشتاقت تشانغه لزوجها أيضاً، وحين انتشرت الأنباء بأن تشانغه أصبحت إلهة في القمر، أخرج الجميع مجامر البخور للدعاء للحبيبين. ومنذ ذلك الوقت، التزم الناس بعادة عبادة القمر في عيد منتصف الخريف. (الصورة 5-21)

تُدرِج الأساطير الصينية المعارك الملحمية مع الاكتشافات الشاقة، ومع المصائب، والإنجازات الخالدة التي حققها الأقدمون. وقد تطورت بعض الأساطير وأصبحت عادات شعبية تُعطي نظرة سعيدة ومتفائلة ومنفتحة على العالم من خلال إزالة آلام الحروب ودموع المصائب. وقد بدأت الصين بزرع ملامحها القومية كأمة جادة في العمل لا تعرف الاستسلام منذ عصر ابتداع الخرافات. ومع أن ذلك الزمن قد انطوى في الماضي السحيق، إلا أن جوهر هذه الأساطير لا يزال موجوداً في حياة الشعب الصيني ودمه.



الصورة 5-21 «صغار الأرانب تجلب الحظ السعيد»، مجلة التنوير المصورة في أواخر عهد سلالة تشينغ وأوائل عهد الجمهورية الصينية

خلال عيد منتصف الخريف، تدعو الزوجات إله الأرنب الصغير للحصول على الحظ السعيد، ويُعتبَر صغار الأرانب تجسيداً لتشانغه. ولذلك يُساوي الناس بين عبادة صغار الأرانب وعبادة القمر، ويأملون أن يجلب لهم ذلك الحظ السعيد.



المراجع:

[1] Chu Binjie. Ancient Chinese Myths[M]. Shanghai: Juvenile and Children's Publishing House, 1956.

[2] Gao Heng, Dong Zhian. Ancient Myths[M]. Beijing: Zhonghua Book Company, 1963.

[3] Mao Dun. Research on Myths[M]. Tianjin: Baihua Literature and Art Publishing House, 1981.

[4] Feng Tianyu. On Ancient Myths[M]. Shanghai: Shanghai Literature and Art Publishing Group, 1983.

[5] Yuan Ke. Mythological Stories in China[M]. Chengdu: Sichuan Juvenile and Children's Publishing House, 1984.

[6] Yuan Ke. Dictionary of Chinese Myths and Legends[M]. Shanghai: Shanghai Lexicographical Publishing House, 1985.

[7] Gu Deming. Myths of Chinese Ethnic Minorities[M]. Beijing: Chinese Folk Literature and Art Publishing House, 1987.

[8] Yuan Ke. History of Chinese Mythology[M]. Shanghai: Shanghai Literature and Art Publishing Group, 1988.

[9] Ding Shan. Research on Ancient Chinese Religion and Mythology[M]. Shanghai: Shanghai Literature and Art Publishing House, 1988.

[10] Lang Ying. Heroic Epics of Chinese Ethnic Minorities: Manas[M]. Hangzhou: Zhejiang Education Publishing House, 1990.

[11] Renqindaoerji. Heroic Epics of Chinese Ethnic Minorities: Jangar[M]. Hangzhou: Zhejiang Education Publishing House, 1990.

[12] Yang Enhong. Heroic Epics of Chinese Ethnic Minorities: Gesar[M]. Hangzhou: Zhejiang Education Publishing House, 1990.

[13] Liu Chenghuai. General Theory of Ancient Chinese Myths[M]. Kunming: Yunnan People's Publishing House, 1992.

[14] Deng Qiyao. The Thinking Structure of Chinese Mythology[M]. Chongqing: Chongqing Publishing House, 1992.

[15] Qian Mingzi. Ancient Chinese Myths and Legends[M]. Beijing: The Commercial Press, 1996.

[16] Qian Mingzi. Heroic Epics of Chinese Ethnic Minorities[M]. Beijing: The Commercial Press, 1996.

[17] Li Jianping. Dictionary of Chinese Mythological Figures[M]. Xi'an: Shaanxi People's Publishing House, 1998.

[18] Sun Zuoyun. Research on Ancient Chinese Myths and Legends[M]. Kaifeng: Henan University Press, 2003.

[19] Bertman Stephen. Climbing Olympus: What You Can Learn From Greek Myth and Wisdom[M]. Translated by Han Song. Shanghai: Fudan University Press, 2005.

[20] Ye Shuxian. Philosophy of Chinese Mythology[M]. Xi'an: Shaanxi People's Publishing House, 2005.

[21] Wang Yixin. Mythology and History: Historical and Cultural Connotations of Ancient Greek Hero Stories[M]. Beijing: The Commercial Press, 2006.

[22] Chen Lianshan. Chinese Myths and Legends[M]. Beijing: Wuzhou Press, 2008.

[23] Wang Xianzhao. An Overview of the Motif of Human Origin of All Nationalities in China[M]. Beijing: National Publishing House, 2009.

